



رحلة إلى المغرب

اندري شوفريون

ترجمة: د. فريد الزاهي

أندري شوفريون

رحلة إلى المغرب

ترجمة

د. فريد الزاهي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.

مكتبة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

Chevillon, André, 1864 - 1957

[Crépuscule d'Islam]

رحلة إلى المغرب / أندري شيفيلون ؛ ترجمة فريد الزبيدي. - ط 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.

ص. ١٠٠ سم.

ت د م ل 8-690-01-9948-978

Un Crépuscule d'Islam : au Maroc en 1905

1 - المغرب - وصف ورحلات. أ- زبيدي، فريد.

DT310.2 .C4712 2010



المجلس الوطني للثقافة والتراث
Abu Dhabi Culture & Heritage

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث

«المجمع الثقافي»

© National Library

Abu Dhabi Authority

for Culture & Heritage

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1431هـ - 2010م

هذا الكتاب ترجمة لـ:

André Chevillon

Un crépuscule d'Islam

Au Maroc en 1905

Ed. Hachette, Paris, 1906

الأداء الفريدة في هذا الكتاب لا تتم بالضرورة

عن رأي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث - المجلس الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380، هاتف: 300 26215 971+

publication@adach.ae

www.adach.ae

رحلة إلى المغرب

في الطريق إلى مدينة فاس

- ٦ -

فاتح أبريل - 2 أبريل / نيسان، في عرض البحر. الطريق جنوب مدينة طنجة ليست آمنة، على الأقل حتى مدينة القصر الكبير. ولكي نتوجه إلى فاس علينا المرور حتى بمدينة العرائش. ركبنا سفينة عتيقة من مائة وخمسين طنًا كانت تُنهي هنا أيامها؛ ولأنها لم تعرف النظافة منذ زمن، فقد أصبحت سفينة عربية. ومائة من العرب واليهود والريفين^(١) كان عددا كافيا ليعملها الزحام. كانوا مسترخين على ظهر السفينة أو على الجسر الفوقي أو في المعبر، على طنافس من القطيفة الوسخة للصالون، متلفعين برانسهم^(٢) وجلابيههم أو عباءاتهم اليهودية السوداء، متأهين لتلقي دُوار البحر. والشاطرون الأقوياء من بين المغاربة كانوا مقرصين في حلقة يعدّون الشاي، وأحدهم يعزف على قيثارته ذات الوتر الواحد بعض النغمات الخفيفة، كما كان أحد اليهود يمحط ويغلق أكورديونا أوروبياً بشياً. لكن، عند إقلاع السفينة على الساعة التاسعة والنصف صباحاً، في بحر يتعكس فيه الهدوء وزرقة السماء، قام أغلبهم بيسط زرايبهم وتمدّدوا عليها؛ أغمضوا أعينهم نصف إغماضة، وصار كل واحد منهم يندن مغلقاً فاه، متجاهلاً من حوله تنفّاً من لحن عربي غريب الإيقاع، بفواصله المتكررة.

ياله من إحساس بأن هؤلاء البشر وهذه الإيقاعات وهذه السفينة لها جوهر مُتباين، بها أن السفينة منتوج حضارة أجنبية عنهم. ثمة، من جهة، مداخن الباخرة العابقة بخاراً، والسلام والكوى الحديدية، والمعبر الذي يتمشى فيه بحار إنجليزي، الوحيد من نوعه على ظهر الباخرة، الذي يصدر أوامره الصارمة للرجل ذي الجلاب الذي يدير الدفة؛ باختصار، كل ما لا يزال يذكر بعمل ونباهة أعراقنا الأوروبية على هذه السفينة الشائخة، ومن جهة أخرى هذه الوضعيات الواهنة، والعيون التي لا بصر لها لدى المغاربة، ومآقي اليهود الكبيرة وعبوهم السائلة وجوههم الواهنة والمحلوقة بشكل سيء، وأحذيتهم... يا

(١) المقصود بهم هنا الأمازيغيون سكان جبال الريف بشمال المغرب.

(٢) البرنس عبارة عن معطف ذي عُنْب لصيق به.

له من نشاط! ففي وسط هذه الأشياء الأوروبية، لا يحس الأوروبي أنه في بلده كما هو الحال عموماً بالشرق، بمجرد أن يدير الظهر لخلية النمل التي يشكلها الأهالي، ويضع رجله على سلم الباخرة. وعلى هذه السفينة التي تبدو لنا أنها سفينة بشكل خاص، نحن لا نختلف في الجوهر عن هؤلاء الريفيين المتوحشين ذوي الطابع الصياني الذين يسافرون بينادقهم وحملات خراطيشهم المليئة، وخناجرهم الرومسية في الخصر. وفي قاعة الأكل، على الكنبات المهترئة تترام الرزم التي نذكرنا بالقوافل أو بالأكوخ. ثمة سلال مغطاة بستائر غريبة أو مزينة بحملات من السوخر، يبدو أنها تحمل المؤن والكسكس، ومكاحل مسورة بالنحاس ذات ماسورات منقوشة، وبنادق الريمينتون والنويسيتر، وصناديق من أرملة غابرة ذات مسامير كبيرة ومغلقة بالقطيفة الخضراء. وثمة رزم كبرى من الأثواب لا يبدو عليها للوهلة الأولى أي حياة. وفي قمة هذه الكوم ذات الشكل الهرمي تلمع عيون نسوية من خلال شق الثوب. كان أفراد العائلات اليهودية أكثر عدداً ومتكويين على أنفسهم، أجدادا وآباء وصبياناً، بحيث لا يفترون بعضهم عن بعض في هذه السفينة كما في الحياة قيد أمانة. والنساء منهم، بوجوههن الوديدة الذكية، الشاحبة تحت خمار الكتفين ذي الألوان الفاقعة، يمنحن أنداءهن ليرقانات مهمهمة.

كفّ أقصى شمال إفريقيا عن المرور أمام أعيننا؛ فقد خرجنا من المضيق الكبير الذي يفصله عن أقصى الطرف الجنوبي لأوروبا. هنا نحس أننا أمام أحد النقط الرائعة في العالم. وأنا لم أرَ أبداً عمراً بحرياً بهذا الامتداد تحيط به شواطئ بهذه الزوعة. وعلى بعد ثلاثين ميلاً منا، تمتد الجبال الأندلسية الشاهقة، ومن بعيد إلى أبعد تظهر قممها الحادة الأكثر علواً. إنها عبارة عن شحوب خالص في الشفق الخافت، حيث يتبدى ضربٌ من البياض الصافي والبخاري كأنه الألماس. وعلى يسار السفينة وقريباً منا، يسحق سوارى السفينة الصغيرة الجدار الذي يشكله حاجز «مبارطيل» الجلي. إنه أنف جبل ممتد في البحر لا شبيه له في البحر المتوسط؛ وهو عبارة عن جرف ساحلي لا يماثل غير رأس السرّ في الصومال، الذي يرسم في الجانب الآخر من القارة المتوحشة منعطفاً كبيراً للعالم. وخلفنا يمتد خط لانهاثي بين الجبال الحجرية الرائعة (ذات اللون الرمادي الشاحب في البخار الأمامي) التي تشكل أعمدة هرقل والحاجز الصغير البعيد لجبل طارق. إنها فراغات البحر المتوسط التي تبدأ من هناك في التوسع باتجاه

فرنسا وإيطاليا. وأمانا مياه المحيط الأطلسي التي تتسع أكثر فأكثر. وكما في الممر المائي الشاسع، هنا بانجاء الأفق، نعيش سكون البحر نفسه، والروعة المتناوجة التي يخفف منها الضباب اللامرئي، والوحدة الزرقاء، ومعها الطمأنينة المؤقتة والرائعة لجزء من العالم واقع تحت خدر النور.

لا شراع لمراكب صيادين في الأفق، فباخرتنا وحيدة في هذه الفضاءات، في اللحظة التي نقوم فيها بنصف دورة لتوجّه نحو الجنوب. تجاوزنا في وقت وجيز رأس سبارطيل الذي يرسم إحدى الصور الأساسية لكوكبنا، والتي أتصوّر أن بالإمكان رؤيتها من القمر وهي تسم الكرة الأرضية الزرقاء بلطخة كثيفة وضبابية. وفي أقصى الجنوب تمتد الكتيبان الحارقة لساحل رملي موحش يجاور الصحراء ثم السينغال والعالم الأسود، ويمتد دائماً في النور مقابل المحيط الأطلسي المتوهج. وداعاً للمنارة الصغيرة البيضاء، التي تسهر على صيانتها بلدان أوروبا، في سفح رأس سبارطيل، هي الحارس الأكثر تقدماً من هذه المناطق المتحضرة، والمنارة الوحيدة للمغرب التي تربط طنجة بالطريق الوحيدة المفضية لهذا البلد.

انصعنا لإيقاع البحر المتباعد والعميق، وأبحرنا بموازة مع الكتيبان المستقيمة المغبرة. لا شيء غير الكأبة المشرقة، كأصفر الرمال وزرقة الأمواج الصاخبة، التي تخرجنا كل واحدة منها كي نقرّ في صمت ونجري نحو نهايتها في عنف. وهناك، في الحد الفاصل بين الساحل والبحر تبدو ألسنّة هب بيضاء طائفة. إننا نراها تمر مرتعشة، منفصلة عن الشاطئ والبحر، لتعود ببريق منشّج. كان يلزمنا بعض الوقت لنفهم الأمر. هو من دون شك سراب ركام الرّند المتدفق على الساحل غير أنه بعيد جداً كي يصلنا طنينه. وبها أن الرّند ينحرف في الطبقة الهوائية الدنيا الحارة التي تبدو كزيت متناوج على الرمال، فإنه لم يعد غير توهّج شبحي مفاجئ.

ونحو الثانية مساء تراهي لنا مربع أبيض صغير على الكتيبان المغلفة بحرارة متوحشة. إنها مدينة أصيلة، الصامتة في وسط أسوارها المربعة. وهو مربع بلون جبلي ضائع في الوحدة التي تبدى حتى الجذر المتساقط لسورها. ولا علامة حياة، ولا حركة أو دخان في هذا المكان الذي نعرف أنه أهل والذي ينحو شحوبه نحو الرمادي تحت وطأة الشمس. نعم، إنه يبدو

مكاناً مهجوراً من زمان، غير أنه لا يزال ماثلاً على ساحل محيط ساخن، وعلى شاطئ لا نهاية لامتداده حيث تطير ألسنة لهب عجيبة...

وبعد ساعتين من ذلك بلغنا مدينة العرائش، التي بدت لنا غير شاحبة وكثيبة كأصيلة وإنما بيضاء بياضاً ثلجياً وهي تنحدر من جرف نحو مصب النهر الأزرق. وكلما اقتربنا منها كانت تنكشف لنا أسوارها المسننة البيضاء أيضاً التي تغلفها بكاملها بحيث تخفيها عن ناظرنا، كما لو كان ذلك غلاف عش إنساني موضوعاً هناك ومربوطاً إلى هذا الشاطئ القفر. وفي داخلها من دون شك ضجيج وصخب دفين كما الزنابير المتجمعة في كيس لصيق بالصخر. ومن الجهة الأخرى، وبدءاً من جذر السور، ثمة الوحدة والبحر والبادية المشرقة الخالية إلى ما لا نهاية.

رست السفينة عند مدخل المرفأ قرب السياج البدائي. ياله من منظر بسيط وشامع! لا وجود للأشجار ولا للتفاصيل. فقط الزرقة الرائعة للنهر، والمتعطف الكبير الخالص بشطبه عبر السهل، والمرعى الطويل اللانهائي الذي تقوده التلال المحاذية نحو الشرق، والذي سوف نسير منه بعد غد نحو داخل البلاد.

وفي مدخل النهر، على كئبان رملية فاقعة، مجموعة من البدو ذوو طابع رعوي ينتظرون المركب الذي سيقودهم إلى المدينة المغلقة، صحبة حميرهم المحملة.

3 أبريل/ نيسان. ما كنت أتخيله خلف الأسوار هو الحياة الكثيفة المزدهمة. وفي الصباح عند الإفاقة من النوم، في غرفة صغيرة تطل على الزقاق الأكثر ازدحاماً في السوق، أسمع جلجلة الدواب والعراك وأصوات سائسي الحمير: «بالاك، بالاك»⁽¹⁾. أسمع الصباح بالعربية، ومهمة الناس كما لو كانت دندنة هائجة للذباب على زجاج النوافذ. يالها من حياة وقادة في فورانها الباكر القريب من أذني. ينبعث منها تأثير حيوي، وهو ما يطرده عني شكوك الإفاقة من النوم، كما لو أن أشعة الشمس الإفريقية تشعل في الشمال النور الوهاج للظهيرة منذ الساعة الأولى من الصباح.

جاءني أول ضيف فرنسي (من مواليد الرباط)، وهو الفرنسي الوحيد المقيم هنا. وهذه الغرفة الضيقة التي أقيم بها ذات أثاث أوروبي، غير أن بها روائح وعطورا لطيفة ليست آتية من أوروبا. هل هي متباعدة من حوانيت السوق القريب؟ لا، لأنني أدركت أن آثار العطر قد تبقى هنا كما لو أنها ظل الغرفة، منذ أن وُجد هذا البيت.

إنها الروح العربية للدار المغربية التي تنبعث من عمق الحيطان، ورائحة الأخشاب النادرة، وربما كان ذلك خشب الأرز الذي استعمل في سقف الدار. يكفيني أن أشمه كي يستثير ذلك في نفسي الشرق: فقد تشبعت به في حوانيت دمشق والقاهرة، مخلوطا ببخور صمغ جاوة والألوة مع دفق الجمال الرائعة التي كانت تمر تحت الأقواس البخورية.

ففتح الساتر وأطللت من النافذة. لم تعد الشَّقْشَقَة التي كانت تسَلُّ إلى نومي من قبل تثير في نفسي الدهشة. ففي السابعة صباحاً، كان سكان العرائش بكاملهم يتكدسون في هذا الزقاق الضيق. وهم بين أكياس الحبوب والفقف المقلوبة وركام القَصَّة والحمير الملتصقة بالحيطان عبارة عن زحام وخليط من اليهود بعباءتهم السوداء، والنساء المتلفعات مثل الرزم، والصبيان العراة، والبدو اللابسين الخرق، والبرجوازيين المغاربة. كل هذه الجمهرة من الناس التي تتعارك، وتساوم البضائع وهي تتضارب بالأكثاف وتجري في العتمة الخصب

(1) أفصح الطريق، باللسان المغربي الدارج.

في فعر هذا الترداب.

وحين رفعت عيني، كان علي للتو إغلاقهما للعديد من المرات قبل أن أتمكن من التعرف على البياض الناصع الذي يترأى أمامي: سطوح نلجية تحت نور الشمس، غير أنها مائلة إلى الزرقة بشكل خفي على الإدراك، كما لو أن ما تحت ذلك الثلج يكاد يلامس شفاية المرأة. وبعيداً من هناك، خلف خط من الألوان البيضاء المحزّزة، تمتد الزرقة الباهرة والثقيلة للمحيط الأطلسي السديمي، وإذا ما أنا أدّرت رأسي شيئاً ما نحو الشمال ثمة مصب نهر اللوكوس ذي الزرقة المساء، حيث يمتد اللون الذهبي للرمل، ثم المجرى الأول للنهر وهو يتمدّد بسعة في السهل.

يقال بأن هذه الحلقات الرائعة من بين أجمل أشجار البرتقال في العالم قد أوجت للقدمات بفكرة الثنين، الذي كان يحرس فيها وراء أعمدة هرقل حدائق المسيريد⁽¹⁾ المسحورة.

* * *

صعدنا إلى الهضبة الموحشة التي تشرف على البحر فوق العرائش، عبر الزقاق القذر الصاخب. روائح كريهة وعطور الشرق. وعلى كل منزل ثمة اللون الأبيض الناصع للجير. لكن عند عتبة الأبواب الموصدة هنالك دورّ سوداء تحت القبة العتيقة لا تدخلها الشمس. والوحد يتجمع مع القاذورات في الماء الأسن في الأرضية المحفورة. الظل رطب وصقيع؛ ويبدو لي أن المدينة تنتشر بها الحمى. يا له من انطباع غريب! ففي هذه المدن المغلقة والمكتنفة للدفاع عن النفس، لا تدخل الشمس البيوت، بل تنتشر في البادية لتنعكس في الخارج على الأسوار والسطوح في شكل بياض باهر.

إنهم بشرٌ شاحبون وكثييون، خاصة منهم اليهود المتلفعون بلباس الحداد، وبناتهم ذوات الثنورات القصيرة التي تبين عن أفخاذهن العارية، يمشين حفاة في الوحل، ويبدون أكثر شحوباً باللباين بين حجاب الكتفين الأحمر والأصفر على رؤوسهن، الأحزمة ذات الألوان العديدة. هذه البشرة البضة الشفافة (مع بعض الوردية الفاقع على الوجنتين) ستذوب بسرعة

(1) حدائق المسيريد حدائق أسطورية يحدّد موقعها بين مدينتي طنجة والعرائش بشمال المغرب. وتعيش بها الحوريات الأسطورية المسماة باسمها.

في هذه الأزقة الغريبة. البياض نفسه نلاحظه لدى المسلمين المدينين غير أنه أكثر رجولة. وهم يجلسون في عتبات بيوتهم أو يقعون في حوانيتهم. على العكس من ذلك، فالقرويون الذين يبيعون أعشابهم وبصلهم في قعر الزقاق ذوو جمال به مسحة من الفحولة. إنهم يجلسون وركبتهم قرب ذقنهم، متلفعين بئرنس في لون التراب لا يظهر منه غير وجههم، فيدون كما لو نحتوا في قطعة من المرمر، مثل جرار مصرية يبين غطاؤها عما يشبه الوجه البشري. والملاح كذلك ذات طابع مصري، إذ هي عريضة وضخمة بحيث لا يبدو منها شيء من الطابع المغربي الذي تكون علاماته دقيقة وحادة. وأنصور أنني الآن أمام الإفريقي الأبيض الحق، البدائي والأهلي، ذلك الذي عرفه الرومان.

تسلقنا المنحدر متفادين الحمير الشعناء التي تنحدر مهرولة، وعليها تركب بشكل جانبي رزم آدمية، تخرج منها رؤوس وقورة ومتوحشة، وإحداها تصرخ فينا «بالاك، بالاك، بالاك»، في حين لامستنا قدمان حافيتان عند مرورهما بنا، فالزقاق كان مختقاً بالناس.

وفي ما وراء ذلك، كان يتظرنا شيء غير متوقع. في الزقاق منعطف تنشق منه أمامنا ساحة شاسعة محاطة بأعمدة، وهو أمر مدهش في هذه المدينة البنية. ففي هذا الإطار العتيق يتزاحم الشعب الشبه بالتبائيل المغيرة المتدثرة. وفي الوهلة الأولى يبدو المكان كما لو أنه ركن من روما العاصمة، أو سوق في حي ترانستيفيري⁽¹⁾. لكن الوجوه بالغة الوحشية، والبرانس إفريقية، والنساء نصف مقنعات. ثمة عواجز متهاالكات عند قدم الأعمدة وأندادهن متهدلة. إنهن جذات جاءت بهن من دون شك عائلتهن البدوية التي أنت لتعسكر عند مدخل مدينة العرائش. ثمة أيضاً شباب رانعون ذوو أجسام ممتلئة ووجوه هادئة، ولون قمحي يشبه لون الثوب الصوفي المائل للرمادي الذي يرتدون. كفوا عن الكلام وظلوا واقفين هناك من غير حراك، صامتين مثل حيوانات. هناك أيضاً «عرب» السهول وبرابرة الجبل، ومشعوذون سودانيون وخلاسيون. وجوه جلدية غامقة، بعضها بعين سوداء متحللة في قرنية صفراء؛ وجوه تلمع بالعرق، مثنية ومتشعبة بالجفاف من فرط الحر وقساوة الجنوب.

لكنني لم أكن أتجول في العرائش كراغب في التعرف على الأجناس البشرية. كان هدفي

(1) المركز التاريخي للعاصمة الإيطالية.

متراضعاً وواضحاً. كنت فقط بحاجة إلى جبل لكي أعقل حصاني في المخيم، جبل حقيقي لا يكون من التبن المضفور. وخادمي الريفي الذي يعرف جيداً هذه الحيوانات تجوّل طويلاً حول هذا السوق من غير أن نستطيع العثور على هذا الشيء النادر. وفي الأخير قادنا تاجر انهم بمسحانا نحو حانوت مغلق تحت القوس. فتح مصراعيه فكانت المفاجأة المشؤومة: رائحة عطنة تزكم الأنف، فهذا المكان الضيق عبارة عن مدفن للجثث والعظام. ويبدو أنه حُفر في ركام كبير من النفايات، فثمة أوراق قديمة وجُزر عتيقة، بحيث تظهر الحرق مع العظام والجلود الدامية على طول الجدران الثلاثة، ومن السقف تتلى أخرى، كما ثمة أمعاء ناشفة ومئات الأشياء غيرها.

في هذه العتمة الزائدة على عتمة الزقاق بدا لنا وجه غريب، إنه يهودي ذو عباءة طويلة، جاف المظهر، مرغل في الشيوخوخة وذو ملامح تشبه الكواسر. ظهر أمامنا ووقف نصف منحني، رافعاً ذراعه في الوقت الذي غلقت فيه طاقته بطريدة معلقة فوقه. تراجع محدقا فينا بعينه الحادتين من الخوف أو الحذر. إنه يتراجع بشكل لاشعوري كما لو كان يريد العودة لدفنه، بحيث نخاله طيراً طريدة أو عنكبوتا بدأ يهرع في شبكه نحو ذبابة مية، لكن ما أن يقترب منها أحد حتى تتجعد في مكانها.

لكنّ هذا اليهودي العجوز ما لبث أن اطمأن لنا وأدرك ما نبتغيه منه. ومن غير أن ينبس ببنت شفة، انهمك في زاوية من مزبلته، وأخرج منها حبلا كان هناك بين السور الجلدية. لم يضع وقتاً في البحث، إذ كان يعرف كل ممتلكاته؛ فثمة نظام لا ندركه نحن نعم في مطرح النفايات هذا. وبصوت خافت لم يغمم إلا بكلمة يتيمة: «واحد بسيطة»⁽¹⁾. إنها قطعة من جبل قديم متروك تبدو أعلى مما كنا نتصور.

وعند إحدى زوايا هذا السوق، اجترنا باب السر⁽²⁾ لنجد أنفسنا في فضاء مفتوح، إزاء الهضاب الشاسعة الخضراء المشرقة على مدينة العرائش والتي تنتهي بأجراف قرب البحر. وهناك تمتد الهضبة موحشة حتى المنتهى، لكن الجوانب الفقراء للأسوار مليئة بالمسكرات، وهي عبارة عن خيام بدو قصدوا المدينة لبيع أعشابهم ودوابهم. ثمة فوضى بيثة على

(1) وحدة نقدية إسرائيلية كانت مستعملة بشمال المغرب.

(2) باب خلفية مخفية في الفلاخ تستعمل للنجاة في حالات الحصار.

الأرض المصفرة المحاذية للأسوار العتيقة: نساء بالأسمال، صبيان وكلاب، ماعز وشياه، مُحرّ ترنّع بين الحُرم والطناجر الكبرى. وهناك كانت تعسكر أيضاً القوافل التي تحمل إلى فاس صناديق الشاي والسكر والشمع التي جاءت بها للعرائش بواخر أوروبية. البغال مربوطة، وأسراب الجمال قاعية في حلقة بدائية حول كوم التبن. إنها تأكل ويطونها إلى الأرض، بحيث نرى أسناما متصلة خشنة، وأفخاذا مرفوعة ومثنية كما أفخاذ الجراد، وفيما وراء ذلك على طرف العنق المطاطي، تغفو الرؤوس أو تهمهم، ثم الشفاه الغليظة من حيث يتلى العشب.

هذا الخليط البئيس، وهذه الحيام، وهؤلاء الناس والدواب، وهذه النيران والدخان المنبعث منها، والبادية الفارغة في الأفق، والبحر غير البعيد، كل هذا يجعلنا نفكر في جمهرة من الناس في العصور الوسطى، تعيش ألوان التيه والعذاب. ثمة عمران عسكري ييمن عليها ويمنحها طابعا ملحيميا. إنها قلعة مغربية إسلامية كانت فيها مضى تواجه المسيحيين ونحمي في ثغر العرائش قراصنة بلاد المغرب. واليوم، وهي تعيش انهجران وغزتها الأعشاب، لا تزال تشهد أمامنا بكبرياء الماضي العظيم للمغاربة. القلعة أعلى من أسوار المدينة، ومن تستأنتها تنبثق دعامةٌ مستوية وحادة مثل سارية السفينة، تمنحها لفضاء البحر. وحدها اللقائى الكبيرة تعيش فيها، واقفة على حافتها كأشباح قدرية في الفضاء. وما أن ابتعدت عن جمهرة الناس حتى سمعت الأصوات الرتية التي تقوم بها وهي تصفق بمنابرهما: طاك، طاك، طاك...

ومن جهة البحر، في الأسفل على المنحدر الذي يصعد من الساحل الرملي، ثمة حصن من القرن السابع عشر، مرتفع وبئيس لا تظهر منه سوى القَبب المثلث لآبراجه...



تركْتُ ورائي كل هذه الجمهرة المغربية في ما وراء الحصن. لم يعد يوجد أثر لإنسان، ولا أحد يترأى لي على مرمى البصر. ليس ثمة ما يحدّد المنظر الطبيعي ويمنحه انتهاء، إذ قد يتعلق الأمر بهضبة خضراء في فرنسا على شاطئ البحر اللامتناهي. بيد أن هذا النور هو نور المناطق الساخنة من الأرض، ولذلك فهو أكثر ليونة وأكثر غنى برطوبة المحيط الأطلسي. وهو يغلف هذه الأزهار التي يجيها أناس الشمال في فصل الربيع.

يكون الربيع أكثر تأثيرا في النفس على جرفٍ مطلٍّ على المحيط؛ فقرب المياه الخالدة حيث

كل فصل لا يفعل سوى أن يعكس جناحيه، لا يمكن للمرء إلا أن يعشق بانطلاقة أكثر حيوية هذه المعجزة التي لا تدوم أكثر من بضعة أسابيع، إذ ثمة الكثير من الهشاشة المتشرة، ويريق من اللطافة والسرعة البالغة. لكن هنالك نور ساطع يضاف لهذا التأثير بحيث إن البهاء لا يبرز فيه إلا لكي يندثر. وتحت الأفق الثابت الذي تتخلله أشعة الصيف، سوف تنبعث للتو الطاقة الرطبة والمبكرة. ثم، هنالك الأقل من المرح في سعادة الأرض هذه، والكثير من النشوة المنهكة.

الهواء شبيه بمياه رابية، فهو يسبح ويسيل ويغلف كل شيء ببلسمه الدافئ. وروح الأزهار تنبعث من كل مكان، تمتصها الشمس الحارقة، ومن كل الجوانب تنطلق أيضاً النوارس المغردة.

أزهار من كل نوع ولون. ومنها حقاً تتدفق الحياة أمواجاً، في نكهة دافئة وقوية العتيق. وهنا وهناك، تذكرني شجرة صبار هائلة بلونها المائل للزرقة بالإكسیر الإفريقي لهذه الأرض، خلال صيف ذي سنة أشهر سيحرق كل شيء سوى هذه الأصناف المكتنزة التي ستستفيد منه على الدوام.

توقفت عند مقبرة صغيرة، بحيث يلزم الاقتراب منها كثيراً لاكتشاف وجودها. وحينها تعرّف في الأعشاب المتعالية، وتحت الزهور البرية نقف على تلك الرّبوات الصغيرة التي تتكرر فيها أشكال تمحي من تحت. قبور لا شاهد لها ولا كتابة عليها. قبور غامضة ومجهول صاحبيها، ولا أثر إنساني في هذه العزلة الرائعة.

هناك يبدأ المنحدر الذي ينتهي بجرفٍ حادٍّ على رمال الشاطئ. وهناك يعلق الحقل الميت شعب زهوره. وهناك في الأسفل برك تركها جزر البحر، وحقول الطحالب التي تمتزج راتحتها البحرية بعطور التبن واللّقاح. بدا لي بعض المغاربة البيض بعيدين معلقين على صخرة يصطادون السمك. مشهد الرمل والمحيط الأطلسي، ووجوه مغاربة برانسهم، تلك الصور الشرقية والغربية كانت منفصلة بعضها عن بعض في ذهني، بحيث إن رؤيتها مجتمعة تبدو لي مفارقةً مستحيلةً كي يحلم بها المرء.

إنه الهدوء الكثيب لهذا البحر المحيط الذي لا شراع فيه، والذي يظل لدى البشرية العتيقة

لهذا البلد الحدّ الذي لا يمكن تجاوزه. تنعرج المساحات المتموجة الراكدة حتى الأفق المبيض، كما نراها من علوّنا تتكون في الصيف، حين أصبح هدوء البحر مطلقاً منذ عدة أيام، لكي تعيش فتورها في عزّ النور.

في هذه اللحظة أصبح نور المهاجرة خارقاً بدفقاته وفيضه، وغدا الفضاء يتمدّد كما عيوننا في هذه الحرارة المفرطة. والطاقة ترقد في زرقة المياه وتشعّ؛ والمنبسط ليست غير عطور وروائح عبقّة، وألوان تنبعث بإرادة الربيع في طراوته. وعلى كل شيء، يعمّ هذا السكون العارم....

في قمة ذلك الجرف، غير بعيد عن المقبرة التي يكاد رُفاتها لا يظهر تحت الزهور، كنت مع الأموات في عمق القوى الخالدة، في قلب العناصر؛ وفي هذه الهاوية لم أكن أشعر إلا بالسكينة والنظام والنشاط الحماسي، يرافقني النور دوماً ومُوجباته كلها حياةً تتمحي وتنبعث في الآن نفسه.

في بلدان النور والموت هذه، لا يكفُّ الموت عن التجرّد من طابعه المرعب!....



عند العودة إلى العرائش وقت الظهر، صادفت القافلة التي ستقودنا إلى فاس قد وصلت لتوها من طنجة عبر البرّ. في الزقاق ثمانية عشر بغلاً وفرسان، وسائسو البغال وخدمٌ من الأهالي، أي كل ما يصهل ويغمغم ويصرخ، ويتدافع مع الحمولة، ويسدُّ المعرّ الضيق، ويسبّب الاضطراب والهياج في المدينة. وخلف المحلّة فيالق خيالة القائد ماك لين⁽¹⁾ Mac Lean الذي كان يعود مباشرة إلى فاس، استطاعوا حسن الحظ المرور من المنطقة الخطيرة جنوب طنجة.

في المساء سوف يعسكرون هناك فوق، في الأرض العمومية التي يخيّم فيها البدو والقوافل جنب البحر، قرب القلعة القديمة التي تعشّش فيها اللقّات. وغداً سنلتحق بهم عند الفجر كي نأخذ الطريق وسط المراعي.

(1) ماك لين صابط بريطاني دخل في خدمة السلطان مولاي الحسن في أواخر القرن 19، وأشرف على تدريب جنوده المشاة. كان أيضاً مستشاراً لابنه السلطان مولاي عبد العزيز الذي كان يحكم البلاد خلال زيارة شوفريون للمغرب.

4 أبريل/ نيسان. كَوْنًا موكبا طويلاً يسير الموهني عبر البلاد المغربية، هذا البلد الشاسع بلا طرقات، حيث لا شيء غير امتداد الأراضي الذي لا يتغير، بدائية دائماً كما البحر وخالية مثله من كل شيء. والسير هكذا، من أفق لأفق آخر، بعيدين عن العالم الذي كَوْنُهُ لأنفسهم المتحضرون، بعيدين عن حاضرتنا وعن واقعنا، عبارة عن متعة من قبيل عبور ذلك الامتداد البحري حيث لا علائم استدلال غير النجوم، والخطوط المثالية للدراجات. هكذا كان يسافر الناس في ما مضى من الأزمنة، ناس الخرافات القديمة؛ وهكذا كان يسافر ملوك الماغي⁽¹⁾ rois mages، وغير بعيد عن بدايات العالم، يعقوب أو الأب إبراهيم، بين نهري دجلة والفرات. وعبر السهل الربيعي، وبين الزهور، وتحت تغريد التاراس التي تتحلل في النور، صار موكبنا يتمدد ويتمدد، ويفتت على طول نصف فرسخ. كانت الدواب المحملة نسير بكوكبات متوالية وعبونها نصف مغمضة، ظهورها ترزح تحت سُبل هائلة ذات خطوط حمراء وسوداء، ولا تظهر منها سوى أذان مترنحة، ورؤوسها مستسلمة وأقدامها الضامرة تتحرك بصعوبة. وأمام كل كوكبة يسير سَواشها على الأرجل مثنى وثلاث، متمسكين بالأيدي، بوجوه صارمة وجيلة تعبر عن كبرياء الرُّخل. وبينما كان خدمنا، راكبين على مطاياهم بين الأغطية والسلال، يتبادلون المزاح الماغن أو يغفون، كان هؤلاء يسيرون بخطوات متوافقة وقوية، رؤوسهم عالية، مستسلمين للصمت كأناس يقضون حياتهم مع الدواب، جانئين البلدان الساكنة، تحت حرّ الشمس أو تحت لمعان النجوم. لقد عادوا مؤخراً من مراکش، وبعد أيام من الانتظار بمدينة طنجة، هاهم ينطلقون باتجاه بادية جديدة، بحزم البحارة الذين يمتطون سفينتهم ويعودون لتأمل البحر. وهم وحدهم يؤدون بدقة الصلوات الإسلامية ركوعاً وسجوداً.

إنهم عرب، لا يرتدون أبداً الجلباب الداكن البربري، وإنما يتزَيَّون بالأبيض، وهو أبيض

(1) Magi Kings وفقاً لما ورد في إنجيل متى هم ثلاثة حكماء أو ثلاثة ملوك من الشرق قبل أنهم جاءوا لزيارة المسيح ليلة مولده حاملين الهدايا. واسم الماغي يعود لقليلة من الميدين كانت تختص بإقامة الشعائر الدينية لشعوب إيران القديمة. (المحرر).

أضحى رماديا، كما أضحيتهم التي كانت فيما مضى صفراء وأعقابها أرجلهم المغبرة.

أما رئيسهم، الفقير مثلهم، وخدام الرجل الذي أكرى لنا البغال بطنجة، فله هيئة أمير أو إمام. إنه ذو شحوب أرستقراطي، وشوارب تمتد فوق الشفة، ووجه بيضاوي متناسق، تحيط بوجنتيه من هذه الجهة وتلك لحية أشبه بالطوق. وحين يمشي ينزل بنفسه، لا ينبس بينت شفة ولا بضحكة عارضة، وهو يتسم أحيانا بيسمة هادئة ومستعلية. يظل جامدا بلا حراك، مستقيم القامة، ينصت للأوامر، في وضعية مُسَمَّاة بالفحولة والأدب جعلتها الصلوات اليفعة لديه، لا يجيب إلا بـ «إيّا» صارمة وصائتة، أو بحركة من يده التي ترتفع في مستوى المعصم. إن له فعلاً هيئة وحركات إمام.

كان هذا الرجل في ما مضى من الزمن غنيا ببعاله، غير أنها أصيبت بوباء فانت عن آخرها. وبما أن الله حرمه من كل شيء فقد أضحى خادما للآخرين، ووجهه حين يقود دوابّ ليس في ملكه، يبدو كما لو أنه لم يعرف الضنى كما عرف البهجة. لكنه يحترم الفلوس، أي المال الذي يمنّ به عليه الله. وبما أن سيده كان على سفر، فقد كان علي أن أقدم له هو عربون الرحلة عند انطلاقها. جلس أمامي على أعقابيه في وضعية المتعبد. جمع كلتا يديه حتى تتساقط في راحتيهما نقود العربون. كانت قطع النقود الحسنة⁽¹⁾ تتساقط، وحين بلغ العدد أربعة أفرج ما بين يديه فانزلقت على حجره، فيما كان يعلن بصوتٍ خافتٍ وبشكل مُتَوَالٍ عن عدد الدورويات⁽²⁾: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. كان ذلك أشبه بمراسيم احتفالية. وحين انتهت المراسيم، سار ليقعي قرب إحدى الأبواب وضرب قطع النقود واحدة واحدة على عتبتها الحجرية⁽³⁾.

سائسو الدّواب العرب هؤلاء يقدّرون الماء مقدار تقديرهم للمال. فحين تبلغ شط نهر، لا يتوانون عن النزول إلى وسط الغدير، وهناك عند الحصى الذي تهرب منه السلاحف، يرفعون بأناة أكمامهم، ويتعبد يثرون بعض الماء أمامهم، كما لو كانوا يهبونه لشخص غير مرئي. حينها فقط، يأخذون السائل المصفر في قعر أيديهم ويدوون في عبّ الماء بتؤدة وروحانية، من غير أن ينسوا صفق لسانهم.

(1) نسبة إلى السلطان مولاي الحسن (1873-1894). وهو آخر من سكّ نقودا ذهبية بالمغرب.

(2) جمع «دور»، وهو وحدة نقدية كانت متداولة بالمغرب في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

(3) حتى يتأكد الرجل من أنها فضة وأنها نقود غير مزيفة.

وضعوا بضائع لهم فوق أمتعتنا، يتظنون منها أن تدرّ عليهم بعض الريح بمدينة فاس. وهي من الخفّة بحيث لا تزيد في حمولة البغال شيئاً يذكر. إنها طيور الترنجي التي يبدو أن قبمتها في المدن الداخلية كبيرة، بحيث إن التأنيق البالغ للظرفاء هناك يتمثل، على ما يبدو، في أن يحملوا بطرف أصابعهم قفصاً بسجينة الرائع، كي يروحو مساء إلى البساتين والمقابر للترويح عن النفس. كان بصحبتنا أربعة من هذه الطيور في أقفاصها. وكل واحد منها يتوّج حمولة دابة. وقد تم تغطيتها بقمّاش درء لها من حرارة الشمس، بحيث تبدو كأنها خيمة مصغّرة. لكننا نبصر من الأسفل بالمسافر الصغير ينقر الجيوب ويفرّدهمرح في رطوبة الصباح، مطمئناً في هذا المقام المترنّح على إيقاع خطوات البغلة.

وهناك الجيلاي الدليل، وهو شخصية متعجّرة، والرئيس الفعلي للقافلة، الذي تنبّئ نخوته في ساعديه الأصفرين، وقبعته الهائلة المصنوعة من الحلفاء، وفي الخاتم الذي يضعه على بنصره. وهو ينسلخ عن المجموعة وينهض واقفاً بتصنّع حين يصدر أوامره. إنه شاب تلمساني رائع، يكره بدائيي المغرب، مهذار، له لحية ذات مسحة آشورية، وإحدى شفّتيه كثيرة الاكتناز، ولونه قمحي غامق. يبدو أن أبويه كانا يجبان الزنجيات، وهو بنفسه أسراً لنا أنه لن يجرم نفسه منهن في فاس حيث يُعتبرن ترفاً رئيسياً للرجال المورسرين، وزينة الحياة المرغوب فيها. ثم افترّت شفّته عن ابتسامة تعبر عن بهجته بهذه الرحلة.

وهناك عسكرينا، الذي اكرتينا خدماته من السلطات المغربية، بشمن تسعة بسيطات لليوم. إنه يمثل المخزن⁽¹⁾ المغربي ويوفر لنا الحماية المعنوية. لكن، ليست البذلة العسكرية هي ما يصنع حظوته. فشاراته تختزل في طربوش لا يظهر من تحته عُنْب وسيف أقل ضخامة من خناجر خدمنا. والبرنس من الجيوخ الأسود الذي لا ينزعه أبداً بمنحه هيئة راهب! لكن، تحت العُب الأسود ذي الشكل المخروطي، ثمة جبين حاد الملامح والسيف في الخاصرة. وهو يبدو، بوجهه الذي لا عمر له ذي المسحة الخلاسية حيث تبدو آثار الجدري، وبعيونه اللامعة ولحيته الصغيرة، كما لو كان ساحراً مُتاجياً للأرواح نصفه زنجي والنصف الآخر يهودي. إنه يسافر أيضاً، كما النساء، على مطيّة عسكرية، وهو حمار قصير القامة يكاد زغبه الكثيف الأشعث يتحول إلى فرو، وعلى فخذه المندليّين لباس داخلي اتسخ من وقت طويل،

(1) هو الاسم الذي ظلت تحمله الإدارة المغربية.

يتجاوز الطرف القدر لجبته؛ وفردتا خُفّه، اللتان بالكاد يمسك بهما بطرفي رجله العاريتين
تتمرغان في العشب. ولا كلام. فقط بالكاد غمغمّة بشوشة لحظة الرحيل كانت بمثابة تحية،
فهذا الخلاصي الرائع لا يهتم بمظاهر اللياقة العربية. لهذا فإن اجترار مضغة التبغ على الطريق
منعته من الكلام. وهكذا بدا أشبه بسحنة ساحرة ملتحية منه بساحر، بما أن الجنس يغدو
ملتبساً في هذه المفارقات من القُبْح.

كان الخدم والسائون يشيرون إليه بالبنان وهم يتضحكون، وفي الساعة الأولى من
الرحلة، قاموا بإضحاحه بمزحة شرقية ماجنة، مهتين أحدهم بأنه كان رفيقا حقا لتلك
الشخصية. يا لها من ضحكات رائعة تنطلق مجلجلة من أفواه الرجال البرابرة وهم على
بغالهم. كم يرنُّ ذلك بقوة في فرحة الفجر. كان صوت النوارس لا يزال يتعالى بمرح في
السماء. ووسط الندى كنا نمرُّ من فرشة لأزهار شقائق النعمان والأذريون إلى فرشة أخرى
من شقائق النعمان والأذريون. والخمرة اليافعة للربيع والصباح التي تحذر حواسنا، بحيث
تتخدر معها خيولنا أيضاً، فرأى المراعي الممتدة على مدى البصر يثير هياجها. لذا فإنها
تقوم لنا برقصات جاعة أكثر فأكثر بحيث تنتهي بالانصياع لهياجها. آه، ياله من من انطلاق
للمرحلة كرمية السهم. وفجأة بدا أن الأرض ترتفع وتقترب منا. ولم نعد سوى تخليق، وريح
وسرعة. التحقنا بكوكبات القافلة المتباعدة كما لو أنها لم تكن تتحرك، ومعها أهل الريف،
والعسكري والدليل والامتعة. ثم أصبحنا وحيدين، كومة صغيرة مرمية في الأفق، قريباً من
العشب الذي يمر بخطوط مسرعة، لا نعرف شيئاً غير الفضاء، وفي الضجيج المستمر للريح
في الأذنين على إيقاع الخطوات السريعة.

في هذا اليوم الأول من الرحلة، في السابعة صباحاً، بدأنا الغور في بلد إفريقي شاسع،
مديرين ظهرنا لركود البحر المحيط. هناك أولاً منطقة رملية، لا تنشر فيها غير نباتات الصبار
المدهشة. إنها قطعة من الطبيعة مستقلة استقلالاً تاماً عن بني البشر، لا تبلغ منتهى حياتها
وكامل شخصيتها إلا تحت الشرر اللانساني للظهيرة. بلَغنا طرف هضبة، فحاذيناها ونحن
نشرف عليها لنلج منبسطة شامعا كان يتعالى منه دخان التراب الخصب. ونهر اللوكوس

الهادئ ظل يستولي عليه كاملاً؛ ومن الأفق حتى المصب الأزرق بالعرائش تمتدّ حلقاته كما لو كان زاحفاً غافياً. وثمةً فرشاة ذهبية رمى بها الربيع تنهادي في المرعى، والرائحة المزة والخالصة لزهور الأذريون تعبق في أنوفنا، ومعها نفحات لزجة من التُّرمس.

وفي مقابلنا، فيما وراء النهر، كان خط من الجبال يمتدّ فوق الأفق بموازاة مع الهضبة التي نسير بمحاذاتها. وتلك المويجات تتجارى إلى ما لا نهاية، وتتمدّد وتتطاوّل الواحدة تلو الأخرى، كما لو كانت ظهور كلاب صيد في عزّ متابعة الطريدة. ومن تسابقها الرشيق، المنطلق في امتداد الفضاء والنور، تنبعث السعادة والحياة على الأرض، على المدى الخصب طوال أشعة الصباح.

حوالي الثامنة كنا قد وطأنا المنبط وقطعناه بشكل مائل كي نلتحق بشط نهر اللوكوس. هذا النهر البحري يخترقه نبض المحيطات. ظللت تحت تأثير الدهشة من هذا النور الإفريقي الساطع، ومن مناظر المصبّ هذه التي لا ترتبط في ذاكرتي سوى بالكأبة الكدرة لبروطانيا وبلاد الكورنواي⁽¹⁾ cornouaille ، وبمناظر إنجليزية أخرى تنبض بالحنين. كان ذلك المكان ساخناً، ومنه ينبعث بخار تلتفّع به العديد من النباتات الوافرة، والستائر من النباتات العارشة، ذات أوراق من الطراوة بحيث تحالها زمرداً خارقاً أكثر مما هي أوراق الصّفصاف الصغير.

أحسّتُ بعيرٍ طبيعيٍّ بكرٍ تمارس حياتها الرائعة في صمت، لأجل نفسها، في ركن من الأرض قبل الغزو البشري. طيور مائية طويلة الساق تقف على رجل واحدة، كل واحد منها منعزل في خليج صغير أو على أنف الجبل المطل على النهر، تنعكس على الماء شخصوها الشاحبة ولا تنزعج لمرآنا. وقطعان البقر والماعز والحيل والشيا والخرفان تائهة على الشط المعشوشب. كان فرسي يقودني بخطى صامتة في العشب طوال الشط المتعرج، عبر هذه الأسر من المخلوقات الأخوية.

وثبت معزة فتية على الطرف المنحدر الوعر من شاطئ من الوحل تركه المذّ. لم تستطع الصعود؛ كانت تبكي وتشكو مثل صبية صغيرة، وظلت أمها قلقة تذرّع المكان على المنحدر،

(1) بروطانيا منطقة توجد في الشمال الغربي من فرنسا ولها لسانها الخاص بها. وكورنواي بلدة من بلدانها.

مسائلة إياها، محدثة إياها بصوت معبر يكاد يكون بشرياً.

ثم ها هو من جديد مدى المرعى حيث تسرح دواب المخزن، من غير أن يبدو لنا راع لها، كما لو كانت لا تنتمي لشخص ما. كانت تنتشر في البعيد في المنبسط الرعوي قطعانا وقبائل. وخلف كل دابة ذات قرنين يوجد نوع من أبي منجل، يسميه المغاربة «طائر البقر»، يتبعها خطوة خطوة، بحيث يبدو هشا ورقيقا ومرتبطا بحلف قديم بهذا الحيوان المجتر الثقيل. وكانت تلك الحيوانات تقترب من دربنا الذي يكاد لا يرى لكي ترانا ونحن نمر. تتوقف العجول الصغيرة عن القفز، و«طيور البقر» تلوي أعناقها الرشيقة بانجهاها، والثيران تمد لنا خطمها، والماعز تبعر، والمهور تتوقف مرة واحدة عن ركضها المتهور ذي الإيقاع المتكرر كي تبدأ في الصهيل تجاه دوابنا.

نور صباحي متجدد يمتح طراوته من العشب الأخضر، جمال عالم يبدو كما لو أنه ولد للتو. وعلى البساط المبرق بالزهور الذي ظهرت به البادية اللامتناهية، كانت كل هذه المخلوقات البريئة ترعى وتحرس نفسها بنفسها. فكرت في تلك الصورة الساذجة للجنة التي كنا نشاهدها في طفولتنا، أعني الأيام الأولى من الخلق، قبل حدوث الشر، ومحبي الخوف، وقبل الموت، حين كانت الحيوانات والدواب تتكاثر بسلام وطمأنينة على الأرض، وكان فيها الرّب يتصور لنا في السحاب، ويفتح يديه ليباركها.



عند الظهر وصلنا عند إخواننا من بني البشر. إنهم عبارة عن ستة أكواخ من القصب قرب أحد مصبات النهر، الذي يعود مجراه المقعر من هناك إلى وسط السهل. كان ثمة رجال عجزة يلحى وقورة يحدقون فينا ونحن نقرب بسكينة ووقار الحكماء. كادوا لا يتزاحون عن الدرب الذي يعبر دقارهم⁽¹⁾، وكادت دوابنا وهي تسير متوالية تلامسهم من غير أن يبدو عليهم الملح. كانت عيائهم فيها مضي بيضاء؛ وهذه العلامة نعرف أنهم ليسوا بربراً، فكان هذا المنبسط ينحدرون على ما يبدو من قبيلة عربية استقرت هنا منذ الفتح الإسلامي. كان الصبيان يتجارون، وهم لم يتعلموا بعد المشية البطيئة للمسلمين. ذكروني بصبيان مصر، عراة

(1) الاسم الذي يطلق على القرية بالمغرب.

مصفرّين، برؤوس حلقة عدا خصلات طويلة، ويطون متفخة وعيون يأكلها الذباب،
حيث الأهداب ملتصقة بفعل رَمَد العيون.

هناك أقمنا غَحْمًا. المكان هادئ ورائع، وهذه الحاجيات المتوارثة التي تتطلبها إقامة
المخيم، والتي ظلت هي هي في كل الأزمنة: الأوتاد التي تُضرب بالمطارق الخشبية، والحيام
التي تُرفع، والقرية القماشية المتواضعة التي تتعالى فوق العشب، والدواب التي تُصَفُّ بالحلل.
ثم يتم إنزال الحمولات، ونزع سروج الخيول التي أصبحت بسيطة مثلها في ذلك مثل سروج
البغال، والجمهرة الصّبورة التي تنزل إلى مجرى النهر نحو عين الماء.

حوالي الخامسة مساء اكفهرت السماء بالغيوم فجأة، وأصبح الجو أكثر رطوبة. ثم حل
الماء بأثر شبالي، مع صحوات شفاقة وصفراء، ليستمر حتى الليل البهيم، في الفاصل
القصير بين الحميلة الرمادية الكبرى وألّق الأرض المدلّقة. إنه تأثير آت من الشمال، لكن
فيما حولنا كان ثمة فقط الشاعرة والبرية الموحشة والتناغم الرائع لمنظر طبيعي إفريقي.

هَبَّ نسيم رطب (فالمحيط لا يزال قريباً) على العشب الكثيف والغامق للمنبسط، حاملاً
إلينا تلك الرّعة السحرية لليل. وبدت السماء تنفلق رويدا رويدا، وضبابها يتحرك بإيقاع
منسازٍ لا يفتر. وأصبح كل شيء يغدو ضبابيا في البعيد. وحول المخيم كانت الدواب تنتظر
أن يسدل الليل سُتوره كي تتجمع بعد يوم من الحرية في المرعى الفسيح.

رأينا نساء يمررن وهن صاعدات من الوادي، حاملات الماء اللازم لأشغال الماء. كن
يتابعن في موكب غامض في الظل، وظهورهن منحنية تحت ثقل القُلل السائلة بالماء. كن
يربطن حولتهن بحبل يمر حول الرأس، ويجرّرنها بالجبين كدواب مسترقة.

ثم ظهر موسيقيون متجولون جاءونا من دَوّار آخر ويتأهبون لقضاء الليل هنا. كانوا من
الهزال والفقر بحيث يرتدون خرّقا مخيطة قطعة قطعة، غير أنها تتلى من على أكتافهم في انسداد
نخوة العباءات الرفيعة. إنهم يعتاشون من الحليب والدقيق والمبالغ الضئيلة التي يجود عليهم
بها الناس في القرى، مقابل شيء من عزفهم. ظلوا يرقبوننا عن بُعد بسحتهم الخجولة؛ وكان
علينا أن نطلق نحوهم إشارات ودودة كي يقرّ عزمهم على التقرّب منا. وعند هبوط الليل،
وفي المدى البدائي الذي تضيق فيه الأصوات، بدأنا نسمع موسيقى خافتة، والتّقر على الأوتار

والزئيق الضعيف لزمان القربة، وفيما تحتها النبض المعاكس، والإيقاع الشرقي للطلبة. إنها الموسيقى الطبيعية لرجال هذه المراعي، كما هي موسيقى تصادي الجراد للجراد.

توقّفوا عن العزف، وسلموا علينا وداعاً وانصرفوا، فرحين بريال منحناهم إياه (ففلأحو المغرب يعدّون النقود بالريال كما في بروطانيا السفلى بفرنسا).

أضيت الخيام من الداخل. وصار كل واحد ينهي تنظيم مأواه لهذه الليلة. وبين هذه الحيطان من القماش، وعلى ضوء الشمعة الحميم، نسيت شيئاً ما الفضاء البهيم والشاسع في الخارج. كنت أقرأ وأحرّر الرسائل متمنياً أن تصادف في الغد البريد المتجه نحو أحد الموانئ. ولدى ساسة البغال كان ثمة صوت يحكي حكاية جميلة. والحراس الذين قدمهم لنا أهل الدوار يأخذون أماكنهم حول المخيم، ليجلسوا القرفصاء على العشب ويصبحوا نقطا باهتة تكاد تنمحي في سواد الليل، كل نقطة متوحدة مع نفسها لا تُبدي حراكاً. وبباب خيمتي الهشة، كنت أراقب في العتمة شجرة هائلة تنتفخ على هوى الرياح الليلية. إنها شجرة هائلة تغدو رائحة أكثر لأن ليس لها من رديف، وهي المرشد الأساس للطريق بين العرائش والقصر الكبير في رتبة المتبسط. إنها شجرة حور رجراج يرتجف لأقل نسمة برد، ويطلق حفيفه الحزين عند كل هبة ريح تمر؛ كنا نخمن شحوبها، وقشعريرتها القضية. هي غمرة الحزن في الليل تعبر عن نفسها بتهدّات مستدامة...

نباح الكلاب لم ينقطع حتى الصباح. نباح الكلاب الصغيرة الهزيلة التي تقوم في النهار بالسكون والاختباء وفي الليل بالحركة الصاخبة، بحيث تتجاري بين الخيام ملاحقة كائنات خفية، وأشباح كلاب أتخيل أن العيون البشرية لا تبصرها. هذا المهرج يشكل جزءاً من الأشياء المعتادة، والناس يشجعونه لأنه يبعد السارقين وقطاع الطرق الذين لا نرى لهم أثراً في النهار أيضاً. كم هي غريبة الحياة في هذا الشهل الذي يكون في واضحة النهار الصورة الكاملة للسكينة والطمأنينة، وفي الليل مليئاً بحركة الكلاب والأشباح والسارقين!

وحتى أغبر من حال أرقمي، رميت بنفسي خارج خيمتي حوالي الثالثة صباحاً. ليس ثمة من نجم في السماء، وكتلة السحاب لا تزال تغلف السماء فوقي، والظلام البهيم يعم كل شيء. حُنت سرب دوابنا الساكنة عند مرابطها؛ ثم توقف النباح. لا ريب في أن الكلاب

أحسّت بوجودي، فالعيون كانت تطلق بريقها من كل جانب، وخيالها الغامض يمرّ في النعمة ويلامس مثلثات القماش. كم يكون عددها؟ ربما كان أكثر من عدد سكان القرية، وكلها كانت في حركة دائبة هذه الليلة مشغولة بلقاء مقدس وعجيب للكلاب.

وفي البعيد، خارج المختيم، وقعت فجأة على شيء أبيض انبثق بشكل غامض من الظلمات.... وما أن خطوت خطوتين حتى وجدت نفسي أمام آدمي. إنه عربي مفرّص في برنسه، وهو أحد الحراس الليلين الذين يتابعون الواحد عن الآخر بخمسين متراً ويشكلون حلقة حولنا. تراجعنا إلى الوراء، وكلّي تأثّر للعثور على هذا الكائن المختبئ في العشب، الذي قضى صحابة ليله هناك، والذي تركني أقرب منه من غير أن ينبس ببنت شفة أو يحرك ساكناً.



5 أبريل/ نيسان. أخذنا الطريق في الساعة صباحاً. وقطعنا عشرين كيلومتراً خطيّة في العشب، عبر السهوب الشاسعة ذات الخضرة الخشنة القريبة من الشحوب، كما مراعي بلاد الفلاندر Flandres بفرنسا. كانت السماء لا تزال متلبدة بالغيوم، وطبقة البخار ممتدة في الأسفل بمحاذاة الأرض، مغطية المنبسط الذي يبدو من تحتنا ساكناً ومتخفّفاً أكثر كما لو كان يريد أن يُنهى في صمت لاتناهي حياته النباتية. لا انطلاق اليوم لأسراب النوارس المشققة، وإنما فقط سلاحف صغيرة تعبر الممرّ الرملّي ببطء النوم الذي يلائم هذه الصبيحة الغائمة الفاترة.

وعند الظهر كنا قد تجاوزنا نهر اللكوس. نزلنا عبر ممرّ منحدر من جرفه نحو مجراه العميق. ثم عبرنا الوادي بتوّدة، والماء الموحد يصل للدواب حتى البطن، والغفّ التي تحملها البغال ابتلّت أطرافها، بحيث كانت القافلة بكاملها أسيرة هذا الممرّ بين جدران الصلصال. هذه الأرض الخصبة، وهذا الحفرة المنحدرة، حيث حركتنا مائتان محمّلتان بالطمي تتسارعان بجروح، والأخضر الرائع، تحت أشعة الشمس التي انبثقت أخيراً، والأحراش التي علقت بالخافة، كل ما يشي بالبلد الموحد على الشطّ الآخر، تبدأ أصفاً جديدة. فنحن بدأنا نقرب من مدينة القصر الكبير والمرعى نحوّل إلى حديقة جميلة، إذ كانت فيه أشجار باسقة، جذوعها منغمسة في الزهور المتعالية. وعلى المرّة أن يحدّق جيداً في شعرها انسدل على طول تلك

الأوراق ذات اللون الفضي المائل إلى الرمادي، كي يتعرف فيها على أشجار الزيتون، طالما أنها هائلة ومكوّنة من أفنان متشابكة. إنها أشجار زيتون ذات طابقين، وهي الأعظم التي وقعت عليها عيناى من بين الأشجار الكثيرة في هذه الجنان. حينها تبدأ البساتين، تلك الجنان التي نسط هدوءها وعطورها حول المدن العتيقة في بلاد الإسلام. منها تلك المتشعبة بأشجار اللوز المزهرة، بجموع من التويجات لا أثر للخضرة فيها، خفيفة كتخليق تتعلّق به الورود والفراشات المنيرة. وبساتين أشجار البرتقال، بأوراقها البسيطة اللامعة التي تشبه زهور شجيرات الدفلى، وزهورها البيضاء التي تكفن البادية القاسية بعذوبة لدنة.

وها نحن بمدخل مدينة القصر الكبير القديمة والمتداعية. انمحي العشب، وعلى أرض محدوبة تنتشر الأراضي القفراء، وتعالى البقايا المتآكلة للأسوار؛ وثمة أفواس جبسية لضريح ولي، وقبب متآكلة، ثم بيوت مهجورة، كما أنجيل، من زمن بعيد، وقضبان نوافذها الصغيرة تتراكم عليها شبكات العناكب. وأخيراً قببٌ وصوامع متداعية. وكل ذلك من التراب اليابس، في شكل آجر عربي مَرَّاص بشكل متقاطع كما التواريخ، وكم هو قديم هذا الآجر ومنفصلٌ بعضه عن بعض! إنه ذو مرآى هَشٍّ وَلَيِّنٍ مثل آنية فخار تآكل برنقها؛ وكل ذلك مصنوع من المادة المقدسة نفسها وقد أعادت القرون طبخها بلون الأجراف نفسه.

5-6 أبريل/ نيسان. إنها مدينة محتضرة من مدن الريف المغربي، وهي بقايا فاترة وجزئية من الماضي العربي العظيم. وأغلب أزقتها تعود للوقت الذي استقر فيه العرب في ضفتي البحر المتوسط فكانوا أيضاً أوروبين. وبيوتهم الإفريقية كان لها جبهة مثل بيوت طليطلة وغرناطة. لم أكن أتوقع أن أجد في مدينة إسلامية كهذه، عوض السطوح الجعرة، هذه السطوح المثلثة من الأجر، الشبيهة بأقدم بيوت مدنا العتيقة بالجنوب الفرنسي كمدينة آرل Arles وإيغ مورط⁽¹⁾ Aigues-Mortes، لكنها سطوح ذابلة مثلها ومتازجة في منظر الغبار نفسه، ولها نفس اللون الوردى الجاف والشاحب الذي يغلف المدينة بكاملها بالقشرة نفسها التي أعدم الدهر طابعها المستوي.

واليوم أصبحت هذه المدينة مدينة اللقالق بالأخص؛ ففي كل شتاء، تعود من البلدان النصرانية وتأتي هنا لتستحم بأمطار سماء إسلامية. ليس ثمة من واجهة بيت، ولا شق لم تُقَم فيه تلك الطيور الكبيرة عشا بعظمة وبهاء. ولا يمكننا أن نرفع أعيننا من غير أن نقعا على منقار طويل، وسيقانٍ وشبح كبير ينعكس عالياً في الفضاء، أو عليها نائمة لا يظهر منها إلا نصفها من وسط قفّة كبيرة من الأحراش.

اللقالقي هنا هي الكائنات الحية الوحيدة مقابل غفیان بني البشر وخمولهم. هذا الشعب المسكين الجامد يندثر في البؤس والتعفن وفقر الدم، والتطيرُ الوضع، أي في حياة أجدبتها إدارة قاتلة، وإرادة أُعِدِم فيها المجهود بالتهب والسلب الذي يمارسه العمال والقواد، الذين لا يُنصَّبون هناك إلا لذبح الآخرين. هذا الحمول لا تحطئه العين. والأزقة التي لا يوجد بها حتى بلاط الحجر العربي البدائي، عبارة عن دروب تتجول فيها ببطء مدهش أشكال إنسانية مغلفة بالعباءات. وهنا وهناك امرأة أكثر تواريا من ميت في كفن، ورجل ذو مشية خاطفة بلا هدف، ليتهي إلى الارتغاء في الغبار. وفي كل مكان من هذا الغبار هناك مآثر الموت، وأضرحة عتيقة من الأجر والجبس المتشقق، وكلها أماكن للصلاة والعبادة يزورها بعض المؤمنين؛ ذلك

(1) آرل وإيغ-مورط مدينتان تاريخيتان في جنوب فرنسا.

أن الإسلام هنا فقد حرارته وبساطته الأنوفة. لقد أصبح ديناً شعبياً مليئاً بالعبادات وأنواع الحج والزوايا والكرامات. وموضوع التعبد لم يعد هو الخالق وإنما الولي الصالح الذي اتحد بربه، وهو عبارة عن شخص هستيري ومجذوب يكون صاحب كرامات ماهر يبيع كراماته ويترك لسلالته البركة التي يتاجر فيها هؤلاء بدورهم. وهكذا ينتشر التصوف في شكل سحر وطب إفريقي، هو الآتي من دون شك من الهند الوثنية عبر بلاد فارس والاسكندرية. وخلف سياجات الزوايا تسود الأمراض العصبية والتنويم المغناطيسي، التي تعالج بالجذبة والصراخ والموسيقى المهيّجة، كما بالنشوة التي يوفرها الكيف⁽¹⁾، ويكل ما يثير ويهيج ويخدر ويرمي بالإنسان خارج وعيه في النشوة الصوفية. وفي زقاق منعزل، حيث غامرت بنفسه، كان ثمة صخب متواتر يأتيني من وراء جدار ويثير فضولي. الأمر كان يتعلق بحفل شباط يهودي صاحب بالعزف والطبول. واجهتني باب من الخشب؛ كانت مغلقة، غير أنها من التآكل (كما كل شيء في القصر الكبير) بحيث استطعت أن أراقب من شقوقها ما يحدث في الداخل. أبصرت بياحة فيسحة، مكتظة بجمهرة من الرجال كانت تبدو عليها علامات اللعنة: شبوخ وشباب أغلبهم ضامر، متلفعون بعباءاتهم الداكنة المرتفعة، وأيديهم في حركة دائبة، وعيونهم لامعة من الهذيان. كانوا يتزاحمون في حلقات ورؤوسهم كلها تهتز مجتمعة بشكل مدوّخ، مطلّقين أصواتاً «هو هو» هائجة وجفّاء خلال غوغاء الآلات الموسيقية والطبول. وفي مركز الحلقة مجنونان يتأيلان في جذبة متشّجة.

لا شك أن قفزات من هذا القبيل تهدّ الأعصاب وتنهكها. والعبون التي ألهبتها الحمى نجو أكثر؛ فالحياة في هذه المدينة العليلة تختزل نفسها في هذه الهياج التناوبي الراقص أو الوجد الزنجي. والقصر الكبير مدينة لا تقدم لي سوى صور الانحطاط الأشدّ بؤساً. يالها من وجوه، ويا له من سلوك متعب في عتمة السوق المتشعب بالروائح القديمة لخب الأرز والمسك وماء الزهر، وتحت الأشعة الزرقاء للشمس، التي تصفّيها القبة المثقوبة! شحوب خالٍ من الدم ليهود كثيين، رخاوة وكسل المسلمين. وقرب القفّ، عقاقير بائعي العطور، وقطع الحديد البدائية للحذّادين، والمتوجات الأكثر وضاعة لمصانع أوروبا كتلك التي يُنَجَّول بها في عربات باديتنا الفرنسية. وتباع في هذه الدكاكين أيضاً مواد السحر، والإكسير

(1) بنة نزرع بشمال المغرب وتنتج مادة تدخن بالفلون، كما تنتج أيضاً غلّز الحشيش المعروف.

والطلاسم. وتوجد فيها عناصر الرعب الغامضة. وتحت أرضيتها، في ميزاب وضيع يمر من هناك، يسكن الجن من جميع الأصناف والأنواع. هناك الذكور منهم والإناث، ومنهم الضُّفر والبيض، بل هناك أيضاً الزنوج منهم واليهود. وهم يعرفون أساء قبائلهم وسلطانهم: أبو شامة، أبو يودي، سلطان الجن شمهورش. كما لهم أعيادهم والمعتقدون فيهم، وكنانة^(١) الذين يطردون الجن من المرضى، ويكوّنون طوائف غريبة بمقدّمها وأضرحتها، وأولياؤها الصالحين. والجن اليهودي «سيابوين» صعب المراس. وللتأثير فيه، يسكر الإخوة بهاء الحياة ويتهيجون بالجذبة ثم يهجمون على القاذورات ويلتهمونها ملء أيديهم.

هذه الأمور البشعة حكاها لنا الفرنسي الوحيد الذي يعيش بالقصر الكبير منذ خمسة عشر عاماً، وهو معرّبٌ كلية، بل عربي بشكل أروع من العرب المساكين حوله، بورشاحه الناصع وصوته الجهوري، والحركة النادرة العربية لليد وهي ترتفع عارية خارج الأثواب الموصلية المسدلة. إنها يد تتبع التعاليم القرآنية، لا تحمل إلا خاتماً من الفضة. كان يفصح لنا عن تلك الإنسية العليقة والمنهوكّة، وعن يؤسها العميق، والعهر المتفتني فيها بين النساء (اللواتي يستنبط الخليفة منهن حصته من المال)، والرعب الذي تثيره حملات قبائل الخلطتين، وينادقهن في أيديهم، حين يتزلون من جبالهم لمحاصرة حارة من الحارات ونهب أموالها وسبي فتياتها. كان يفصح لنا عن عزلته، وخواء المحادثات مع الأهالي. ومع ما يمكن أن يتسم به هذا المقام من حزن، فقد اعترف أنه لن يستطيع أبداً العيش في أوروبا. أحياناً يحاول أن يمنح لنفسه عطلة، غير أن حنيناً غريباً يعيده بسرعة إلى تلك المدينة المغربية الصغيرة المحتضرة.

ثمة جاذبية ممهورة بالسكينة والكآبة تنبعث من هذه الأشياء كلها في الحضارة الإسلامية التي تسير بهدوء نحو الموت والتي يغلفها الزمن بغبارة البطيء، من هذه المساجد الضياء التي تنحشر بين الضُّبار والزهور، ومن هذا الشعب الخامل في غفوته، بحيث تغمر الأوروبي بالبهجة؛ وهكذا يبدو المجهود الجبار لحضارتنا كله بلا جدوى. إنها حضارة تبدو كحلم منهك، ولعبة صبيان نافلة. ثمناً كما لو كنا في حديقة مظلمة، نرى من وراء زجاج نافذة حركة راقصين على إيقاع موسيقى لا يصلنا منها شيء. أي حلم هم يلاحقون ويجعلهم في

(١) زاوية ذات أصول من بلدان غرب إفريقيا، أي ما كان يعرف بالسودان. وقد أفرزت موسيقى ورقصا يعرف بهذا الاسم لحد اليوم.

حركة؟ الحقيقة توجد خارج هذه الجمهرة من الناس وحركتهم الدائبة، في سكونية وهدوء هذا الفضاء الفسيح، خارج حلم المرمنين هذا. ذلك هو الاقتراح الصامت والخادع لهذه البلدان الهادئة المشرقة، حيث إننا بين الناس الذين ليسوا سوى أشباه أحياء، نحسّ بالروابط اللازمة لتحلّ، ومعها كل ما يتّصل بالمجهود. يا لها من رغبة لدى هؤلاء الناس في عدم قياس المدة الزمنية، وفي التّيه في التوالي المتكرر للساعات، والحمول مع مجمل الأشياء في النور والسكون. هذه الصوامع المهجورة هنا وهناك في حقل من الزهور، وفي غبار مكانٍ خلاءٍ، وتلك القبب المتداعية التي تتعالى شيخوختها في الأفق الطرّي، كل تلك الأشياء تتحدث إلينا، وتذكّرنا بحكمتها، المتمثلة في عدم المقاومة وفي الاستسلام، وترك الزمن يفعل فعله، هو الذي أوصلها إلى الشيخوخة حيث تبدو جميلة، وسيوصلها إلى الموت حيث ستحسّ بنفسها أفضل. وهذا الأفق الساموي، ألن يكون ذا طابع أكثر ربّانية إذا هم لم يتحركوا؟ ففي الجمال الساكن للعالم، يكون الشاب الأبدى هو الفرحة الوحيدة المطلقة. وهذه الفرحة ستكون هي نحن إذا ما عرفنا كيف ننسى أنفسنا، وكيف نصمت ونأمل. والحجر الشائع لهذه الأسوار وتلك الأضرحة، انظر إليها كيف تتغلّف وتحترقها وضاحة الصبيحة بعد كل فجر.

أحسست خلال مقام طويل في مصر، أرض الشمس والموت، أن الزمن يتوقّف في النور. ففي مرتع الأبدية ذاك، وبشكل مغالّف لما هو هنا، ينمحي الوهم المخصوص المركّب الذي يثير الهواجس في نفسية الأوروبي، ذلك الحلم الذي لا علاقة له أبداً بلانهاية الصمت، حيث سندخل لتوّنا. لكن، في كل بلد من بلاد الإسلام، يبدو الموت هتّنا وأخويا، ويُقدّم لنا في قلب طبيعة ساحرة مآثرها وصورها. ونكهة زهرة اللوتس التي نقطعها هناك هي عبقها السحري. ولكي يكون للجاذبية الغربية أثر، على المرء أن يكون وحيداً وينتظر كثيراً، والألا يغير مكانه. أما في مدينة القصر الكبير هذه، والتي أعبرها فقط، ليس لي الوقت لتلقي تلك الجاذبية، ومع ذلك، خلف بؤس هذه المدينة الصغيرة التي تمثل الانحطاط المغربي وكل ما يقرّف من التجديد الأوروبي، أنا أنعرف جيداً على أماراتها. إنها تتمثل في الأرقّة المتعرّجة العميقة... والنساء اللواتي يمررن لصق الحائط أكثر تدنّراً من الراهبات، وأشكالهن الغامضة تمتزج بجير المحيطان. والصوت المتهادي والمهدئ للمؤذن، الذي لم يتغير مع الزمن، يخلق فوق المدينة كنشيد للسلام الدائم. الإنسان ينشد كما في الحلم. والصوت لا يحمل شيئاً شخصياً، بحيث

نخاله غريباً عن المنشد وأنه يأتي من بعيد. إنه في بطنه يخرج من ماضي الأجداد، بحيث يكلم الموتى الأحياء من خلاله لطمأنتهم وتويعهم...

أصبح النهار باهتا ونحن نتوغل في البساتين عبر مسلك من الغبار والوحدة. هنا يغلف السكون والسكينة هذه البساتين المزهرة، بين قبب الأضرحة التي فقدت لونها. إنه مساء ذهبي، والأطلال، وروائح الأرض، والفرحة الغامرة العجيبة للربيع بخدره الرباني، وفي كل مكان ثمة رطوبة الرحيق المنبعث...

الحياة لا تنفك عن الحدوث، كما هي دوماً، في الحاضر الذي لا يمرُّ زمناً. رجعتُ من مسلك الغبار والوحدة كما لو كنت أثيراً متيراً في الذبذبة العامة للهيب، أي ما ينمحي في الموت ويتكرّر في اللحظة نفسها. يا له من انطلاق مدّش ثلاث نخلات خلف جرف، في حقل الباذنجان البري، تنبثق من وراء صومعة مهجورة فقدت طلاءها! أي طاقة خارقة تنتظم إشعاع سعفاتها المزخرفة وتعلقها في الأعلى!

هذه الصومعة العتيقة لم تهجر كليةً. فوقها يعشّش لقلق، وفي قمتها ينبثق ويبدو عملاقاً في شفافية الأصل. وهناك أرى الكثير من تلك اللقائ التي تشبه شعباً خرافياً. والمدينة خلف البستان تنقطع على الأصل الذهبي؛ وكل برج وكل قبة، وكل نقطة عالية تنتهي بشبح طائر كبير يقف على عشه الهاتل. هذه اللقائ، وهذه الأعشاش، وهذا الماء الربيعي المحنّط، ليس كل هذا حدثاً من أحداث الماضي؟ هل حقا كل هذا شيء آخر غير الماضي والأمس؟



كنا نعسكر على منحدرات من الأعشاب الصغيرة في هذا الحي الأهل بالبساتين. لم أستطع النوم بسبب رائحة البرتقال التي كانت تلج الخيمة وتركز فيه عبّتها لتطردنا خارجاً. وهكذا عشت تقريباً ليلة بكاملها يسهر عليها البدر والموسيقى. مرت ساعاتها، كل واحدة أكثر سرية من الأخرى، تعيد صياغة العالم بشكل أكثر إلغازاً.

كنا نستشق بلذة أريج الهواء الذي تتناسل نسائته الخفيفة، والذي أصبح دائماً بفعل تقدم الربيع. أصبحت زرقعة المدى مناسبة، وفي هذا البحر من الهدوء والسكون يوجد الهلال الغريب الذي لا تعرفه شعوب الشمال، هلال البلدان الإسلامية، ممتداً أفقياً في الفضاء

وطرفاء مرفوعان في المستوى نفسه كما لو كان زورقا من نور. وهذا البدر المختلف يجعل من الليل أكثر غرابة، فقد كنا نخال أننا نتأمل هذه الأشياء للمرة الأولى: السماء والأرض في الليل والليلة القمرية. ومعناها بدا أكثر تأثيراً وربانية.

لم تكن الأرض جامدة. من حولنا في البساتين المحاذية كما بعيداً في الجبال والسهول كان البدر يعلم في زرقة الليل، ويطلق همساته وغناؤه بالأصوات كلها. عددٌ لا نهائي من الحشرات يطلق صريره في شكل رنات فضية، فتميز جيداً القريب منها، كما لو كان قشعريرة خفيفة تتحرك شيئاً ما، ليقطعها صمتٌ نصيرٌ وتستعيد من جديد حركتها. لكن هناك في البعيد، كانت تتمازج الملايين من الأصوات، لتعند في مستوى صوتي واحد لامتناه، كما الصفحة، صفحة الأرض الحاملة والمنشدة.

وعلى هذه الخلفية التي تفقد في النهاية صداها، تبرز الموضوعات المختلفة للكائنات الحية الأخرى. كان ثمة النقيق المستمر الذي لا يحصى للضفادع والذي يتحول إلى نداء، ويتنفخ كما لو أنه يقترب منا فجأة، حانقا من التضايع الجماعة للرغبة. وهذه الحرارة المفاجئة كانت ترجرج الليل حتى النخاع. لم تكن تلك الأصوات تأتي مرة واحدة من كل صوب كما صرير الحشرات، بحيث يميز فيها السامع بين شعبين مختلفين، يتوقف أحدهما لينصت للآخر. ياله من تأثير وجداني في هذه الجلجلة الليلية للشراغيف في هذا الربيع الساخن للبادية. إنه صوت الحب العنصري الذي يستفيق مرة كي ينشد شهوته العارمة والبسيطة في الحياة.

كانت هناك أيضاً النبرة الفريدة للضفدع البري، التي كانت صافية صفاء تاماً، متحللة بحيث تشبه نبرات الهارمونيكا: «أوت، أوت، أوت»، ودائماً هي هي، من لحظة لأخرى.

وفوق المخلوقات الزاحفة، كانت الموجودات العليا تتحسّس الليل وتعلق على وقاره الصارم. وكانت الشحارير في الأفنان البخارية لأشجار اللوز تتصادى من بستان لآخر، بمحاورات تتخللها الوقفات والخشوع. كان غناؤها المستمر القوي يعبر عن سيادة لا ييلفها هذا الطائر الجني في فرنسا إلا في منتصف مايو/ أيار بعد أن يكون قد مارس الدّربة أسابيع كاملة.

7-14 أبريل/ نيسان. حين تركنا مدينة القصر الكبير التي وصلناها بسرعة، كان ذلك إحساساً حقيقياً بانطلاق السفر، سفر أعالي البحار الذي لم يبق حتى حينها سوى بمحاذاة الساحل ليأخذ جهة أعالي البحار.

باتت تفصلنا عن مدينة فاس ثماني مراحل أو محطات. مرت ثمانية أيام بسيطة كل البساطة وروتيانية بحيث تكاد تختلط ذكرياتها. أغلب مراحل السفر كانت تمتد في منبسطات فبيحة ومتشابهة، مع أنها كانت أراضي مختلفة، كل واحدة منها بنهرها ويفصل بينها وبين ما يليها ارتفاع هام في الأرض. إنه تموج متوتر من الغرب نحو الشرق، قضينا في عبوره ثلاث أو أربع ساعات. وسواء كانت تلك الأراضي منبسطة كبركة راكدة أو مرتفعة، فقد كانت الأراضي نفسها، رائعة الرطوبة والخضرة، بلا أشجار ومن غير ربيع سوى ربيع الحبوب والعشب المزهري، ومن غير عبق غير العبق المألوف للزهور الآذريون، ذلك أن زهور اللؤلؤ والسوسن وشقائق النعمان الحارقة ليست متعة سوى للأعين. الربيع الحقيقي الذي يجدر الحواس تركناه وراءنا في بساتين القصر الكبير. لكن سعادة النورس لم تكف عن التدفق في الساء. باتت غير مرئية، منصهرة في هاوية النور، فلم تعد غير روح فقدت جسدها، وغير بهجة الصباح المتذبذبة المليئة وجداً.

كل يوم كنا نهض في الفجر، حين تبدد مياهه البيضاء الليل تدريجياً فتبدأ في تغليف النجوم. حينها يدخل خادمي رأسه تحت الخيمة لينادياني، ثم يسألني إلى الداخل بكامل جسده، ويبدأ بإشعال الفانوس. علينا بنظافة الصباح، وارتداء لباسنا على ضوء هذا اللهب وفي قشعريرة الفجر، وأرجلنا في العشب والزهور التي حبسناها معنا في الخيمة. والتاسعة يسرعون في تحميل البغال. وإذا ما أنا تأخرت، يبدؤون في نزع أوتاد الخيمة وجمعها. وها هي الخيمة في الأرض كشيء هلامي، منطبعة على العشب، تصطفق وتطفو مع ربيع الصباح. إنه انطباع حزين يتناوب وأنا أفقد هذا المأوى المؤقت. أنهيت ارتداء ملابسني وأنا أقشعر تحت الشساعة الباردة للسماء التي لم تستر بعد إلا بنور حديدي. وها هي السماء والمنبسط القفر

يخرجان من الليل البهيم: يالها من شاعة لا يمكن للإنسان أن يتصورها! بحس المرء نفسه ضائعا وسط الأفق الدائري، في قلب فوضى المخيم الذي تجمع خيامه: ثمة أقمشة منزوعة نصفيا تصطلق في الريح كأشرعة سفينة غارقة، وحقائب السفر مُشرعة في الأرض؛ وفي فوضى عارمة على العشب البلول يوجد الأثاث المتواضع المترحل مع الكتب والدفاتر، أي كل ما نملكه في الدنيا في تلك اللحظة. لكن نظاماً جديداً سوف يأخذ مكان الفوضى الموحية بحالة من النهب والتلب. لقد بدأ الدليل الرئيس، الفخور بخاتمه وسرواله الأصفر، يصرخ بأوامره العرية. والعسكري المشعوز الرهيب حزم على جبهته حزام عُجه الأسود؛ ظل يغمز بعينه، واقفاً أمامنا في عباءته، مُغمفاً لنا بتحيته الصباحية. تلقت البغال حمولتها الواحدة تلو الأخرى، وأسرج الريفيون الخيول. ها هم يشدون المهاميز ويفلقون رؤوسهم في بياض «الرُزْز»⁽¹⁾ التي سوف تصلح لهم فينا بعد لاتقاء حرّ الشمس. ثم جاء الشاي الساخن عزاءً لنا، فينا كان الفجر يتحوّل إلى صباح مبكر، وموجة من الحمرة القانية تنشر رعشة الحياة في الفضاء. وفي اللحظة التي قذفت فيها الشمس بأشعتها الأولى، غمرتنا الفرحة في القفز على مطايانا والإحساس بأفراسنا والقيام بخطواتنا الأولى باتجاه الأفق.

ولعلّ الصباح الأول هو الأجل من هذه الصباحات في دَوّار خير الدين، في منتهى الجبال التي عبرناها أمس منذ القصر الكبير. كانت قرينتنا القماشية تعطي المنحدر الأخير من هذه الأعالي. وتحتنا منبسّط فسيح متقرّر بعض الشيء، يمتدّ كما لو كان صحنا، وجوانبه ترتفع تدريجياً نحو الأفق الدائري. وخلفنا على التلّة سطوحٌ مقبية من التبن تنشق من سباح الصّبار، وكل واحدة منها عليها عَشٌّ من الأغصان يمتد فيه شبح لقلق راقد. وفيها فوق هذه الأشياء الداكنة، دخان أزرق يتبخّر في الهواء البارد الذي لا يصله بعد خدر أيّ شعاع شمس.

قرب المخيم كان يحدّق فينا أناس الدوار منكمشين في برانسهم الممزقة، وأذقانهم على ركباثهم، مصطفين وجامدين بلا حراك، بحيث نخالهم عصافير تصطف في الشتاء على جبل تلغراف. إنهم يقشعزون برداً، ويدهم الباردة ترمي من تحت، على الكتف، بعضاً من الثوب البئيس الذي يمسكون به معدوداً على القم، بحيث لا نرى سوى جزء شاحب من الوجه، وعيون تبدو لوحدها الشيء الحي في هذه المخلوقات، تراقب ما يجري حولها. ولا كلمة يُنيس

(1) جمع رُزّة وهي سباط من الثوب عبارة عن كوفية.

بها. إنها كائنات رمادية في صباح رمادي.

حولنا كانت القطعان تتشر. وشيئاً فشيئاً تظهر مجموعاتنا بعيداً في المنبسط، بمقدار ما يتقدّم النهار، ويتجمع في الغرب لون وردي فاتح. إنها في كامل وضعتها، جائئة أو جامدة، تبرز بمساحة المرعى الذي لا يزال من دون لون.

لكن، حين اقتربت لحظة بزوغ الشمس، وحين أحسناها ترتفع في الأفق ويتشر النهار بمويجاته، تستفيق الحياة على الأرض الخضراء وتتوالد. ثمة قطعان متناثرة تطلق ثغاءها وتبعر وتمهمهم، خاصة منها الثغاء الباكي لصغارها التي تضرب ضروع أمهاتها كي تتعلق بأندائها. ومن منصة شجيرات الصبار خرجت أخرى كانت محبوسة هناك في الليل: قطع كبير من الماعز الصغير كان يرغب في التوقّف لينظر وسائل ويصرح بها يفكر فيه بصدد هؤلاء الأجانب الذين احتلوا مرعاهم. لكن راعياً كان يدفعهم، كما لو كانوا صفّاً من الصبيان يتوجهون للمدرسة.

رجّة من النور في طرف المنبسط البعيد، ثم رأس لبيب يقترب، وأخيراً ها هو الكوكب المتوهج الناعم ينبعث. وفي لحظة واحدة، انغمس العالم السامع حولنا في أشعة الشمس. وطالت ظلالنا الشاحبة على أبسطة من الأفكار التي ترمي قلوبها البليلة فجأة نيراناً من الماس. وبالسّعة نفسها بدأ الندى ينشف في شكل بخار. وتراخت القطعان النائمة، وتداخلت أصواتها المتكاثفة، ثم ها هن نساء القرية يمررن في الضباب، في موكب يشبه حاملات القرايين في التّوراة. كنّ الواحدة تلو الأخرى، وللّهنّ الصّلصالية على الرأس مستقيمة كما الثياب المتهذّلة عليهن، رائحاتٍ للشّقي من العين المجاورة.

كانت الخيام قد جمعت، وبدأ الاستعداد لربط الحمولات، حين جاء رئيس هؤلاء الحراطين⁽¹⁾ وهو أحد عممي فرنسا⁽²⁾، يقدم لنا هدية فلاحية من الدجاج والسمن ستضاف لمؤننا. لقد كانت لدينا رسالة مبعوثة له تخصّ الاهتمام بنا؛ فالفرنسيون يجدون الكثير من أصدقائهم من بين هؤلاء الرعاة الذين يعانون من القوضى المغربية ولا يستطيعون رعي

(1) العبيد المتوقون.

(2) يعني المؤلف هنا الحماية التي كانت فرنسا تمنحها لبعض الشخصيات من التجار وغيرهم قبل عقد الحماية الفرنسية على البلاد سنة 1912.

قطعانهم في أمان وسلام. ونحن لا نمر أبداً من قرية لا يأتيها شيخها لزيارتنا زيارة لياقة ويمنحن أحياناً خروفاً، ودائماً البيض والحليب. إنه عجوز ضالع في الشبخوخة ويكاد يكون أعمى. وهو بادي الوفاة في ثيابه البيضاء الناصعة وبياض لحته الكثّة. بالأسر، ما أن أقمنا نغيمنا هناك، حتى خرج من الدوّار محفوقاً بابنيه للسلام علينا والاحتفاء بمقدمنا: إنه أشبه بإسحاق مرتعشاً من فرط الشبخوخة يتبعه إشعياء ويعقوب. والأمر نفسه اليوم كما البارحة: نحيات رسمية شرقية، بحيث يحمل الرّجل يده نحو قلبه وشفاهه، تتبع ذلك كلمات ورعة، ومتمنيات بلاغية يتخلّلها اسم الله الرحمن الرحيم.



إنه يوم سفر بطيء انتقلنا فيه من منبسط لآخر، فوق الثنايا المتهاوجة التي تفصل بينها، إلّا هنا وهناك، حلقة من شجيرات الصّبار ذات الأشواك، حيث تتاورى أكواخ آدمية وضيفة وواطنة، وأعشاش كثيرة للقاتل. البلاد هنا أقل هاجرة من جنوب فرنسا. ليس ثمة من انبثاق للصخر في عزّ الانبساط العشوشب، يمنح للطبيعة ملايح الرقة والقوة. إنها أشبه ببلاد نورمانديا الفرنسية لكنها أكثر شساعة، بتموجاتها ذات الإيقاع المركز وبانعدام الشجر فيها. وما يبقى هو أرض رخوة وممتلئة، حيث ريح المحيط الأطلسي لا تسهر على الروائح العطرة كالزعر والعرعار، وإنما على غطاء عشبي كثيف دائم الخضرة، وحقول قمح تنبت بسهولة، فهذا العشب ذو البريق اللامع لا يزال اليوم طرياً. إنه قمح يكاد يكون برّياً، بحيث يكفي الإنسان أن يخذش الأرض ويترك الحبوب تنفلت من يديه كي يكون الحصاد هنا مضموناً.

تمتدُّ تلك الحقول على مقربة من القرى، تفصل بينها مناطق فارغة تسود فيها الزهور والنباتات العلفية. وثمة نبات اللّبلاب في كل مكان، والأذرون بفرشات ممتدة امتداد البصر، والأكوام الزرقاء أو الذهبية للرّمس التي تطلق عبقها الدافئ، وشقائق النعمان الأكثر تواضعاً التي تحترق في خفاء تويجائها النارية غير المتفتحة تماماً في جهاتها الأخضر المسنّن. أما فورة السّوسن فقد انتهت، إذ يبدو أنها قد غلّفت الأرض من أسابيع قليلة بغطاء بنفسجي راعش. وعلى ضفاف الوديان، في سفوح التلال، لا تزال سيقانها الواقفة تصفر، وبذورها انتهى ذبالها في شكل كوم من الحرير البنفسجي.

ظللتنا نسير صباحات كاملة من غير أن نصادف طيف إنسان. وإذا ما لاقينا قافلة فذلك هو حدث اليوم. وهي تكون قادمة دائماً من مدينة فاس، وتسير باتجاه مدينة طنجة. تجارٌ عرب، وشخصيات محترمة تكون وجوههم الشاحبة محاطة بلحي سوداء. يمتطون بغالهم في سكونية، مرتدين جلابيب كستنائية مشمّرة فتكشف عن سراويل ترفع حتى تدخل الأرجل في المهماز القصير. إنهم يبدون كقُفس المسيحيين في دوراتهم التبشيرية. وهم يسافرون جماعة من باب الحيلة والحذر، بحيث ينتظر البعض منهم البعض الآخر للرحلة جماعةً. وأحدهم رافقه زوجته، وهي عبارة عن رزمة بيضاء عجيبة، ذلك أن نساء البورجوازية الحضرية يتحجّبن بشكل أكثر صرامة من البدويات⁽¹⁾.

مررنا أمام معسكر. في الصباح الباكر، كان ذاك المعسكر يبدو من بعيد على التلال وفي الأفق عبارة عن نُثار من النقط الشاحبة، ثم بدأنا نميز معالمها مع مرور الساعات وهي تكبر أمامنا. والآن، استطعنا التعرف على خيمتين مخزنتين⁽²⁾، مزوّقتين بمثلثات سوداء، وحولهما الخيام الصغيرة من القماش حيث يأوي الخدم. يبدو أن قائداً⁽³⁾ قد توقف هناك، ورئيس قبيلة يمر من قرية إلى قرية لجباية الضرائب للسلطان. إنها عملية مخوفة بالمخاطر، بحيث يحدث أن يسمع المرء طلقات البنادق، في الوقت نفسه الذي نرى الدخان يصعد وسط الخضرة الداكنة التي ترسمها شجيرات الصبار في أحد الدواوير على قمم التلال. ومن يؤدون الضرائب الذين يستقبلون الجاهلي. وعلى بعد فرسخين من هناك، سقط جريمان وقُتل حصان في القرية التي حططنا بها الرحال طيلة العشية، مما يعني أن هذا الدّوار لن يدفع الضرائب.

وفي أحد أيام السبت، صادفنا مجموعة متواضعة من اليهود معسكرة في جنان من أشجار الزمان البري، لأنهم لا يسافرون يوم السبت (الشباط). ومن حينها رافقوا مجموعتنا الكبيرة، حتى يتمتعوا بالحماية التي تتمتع بها، حين سيكون علينا عبور البلاد الأقل أمناً الممتدة فيما

(1) هذا ما يؤكده قبله شارل دو فوكو Charles De Foucauld في رحلته، سنوات قليلة قبل ذلك، التي سهاها: «التعرف على المغرب». وهو ما يعني أن المعلومات عن البلاد يستفها الرحالة أيضاً من الكتب التي نشرت عن المغرب بالرغم من قلتها.

(2) تسمى الخيمة المخزنية لحد الآن بالخيمة القيادة نسبة إلى القائد، وهي ذات أعمدة عالية ومزخرفة من الداخل والخارج بالأقواس والنوايرق، وتعتبر علامة على الرفعة والسلطة بحيث تستخدم اليوم لإيواء السياح.

(3) هم خلفاء السلطان في البوادي، ومنهم من واكم ثروات هائلة وصار يشكل خطراً على السلطان خاصة في فترة الاستعمار.

وراء نهر سبو. إنها لبركة طيبة هي بركة الأوروبيين، فقطاع الطرق لا يتهجمون عليهم أبداً. ثمة ثلاثة صبيات يهوديات نيهات وفطنات، مختلفات كل الاختلاف عن الصبيات المسلمات الكيثيات. نخوفن منا بحيث فضّلن السير قدامنا مع خدمننا. لكن حين وصلنا إلى المخيم، أرسلن لنا ببسمات عذبة، ثم حاولن أن يقدمن لنا بعض الخدمات البسيطة، كالإمساك بفرس أو إحضار كوب ماء. إحداهن حسناء، ذات أجمل وجه يخرج من البرنس الكتيب التي اختارته لنفسها ذهبيا يكاد يكون مشعاً. يا لها من مفارقة بين الوجه الفتي الصافي واللباس الرسمي الذي تضع فيه الفتاة الحسنة. في الصباح كنّ الأوليات المتأهبات، فمتاعهن خفيف جداً. كانت حقائبنا نحن لا تزال مطروحة أرضاً في الوقت الذي كن فيه قد امتطين بغالهن، ويتظرنا من غير حراك مستقيبات الأجسام في العباءة الفضفاضة التي تغلفهن. ثلاثة أشباح رصينة نحيفة تنتهي رؤوسها بحدة القتب. وها هن يأخذن الطريق خلف ساسة بغالتنا، تلك الصبيات اللواتي كن البارحة فقط يغامرن وحيدات في البلاد القفر، واللواتي يتعلقن اليوم بقافلتنا، كما في البحر تحطّ طيور بثيسة على حواف السفينة التي تبدو لها فلا تطير إلا بمعيتها.

وحتى ننسى بعض الشيء طول المسافة، كنا نحفز الرجال على الحديث، فهم يعرفون بعض الكلمات الفرنسية أو الإسبانية، ونحن نفهم بعض الكلمات العربية، غير أننا نستخدم بالأخص الإشارات.

بدأت أعرف خادمي، الشاب الريفي ذا الجبين الصغير الذي تخترقه التجاعيد، ربما منذ ولادته، الذي يشبه وجه القروء التي يذكروني بها أيضاً أنفه بلا تنوء، والعينان العسلتان اللتان لا ذكاء فيهما. رجلاه اليابستان تخرجان من الثوب البربري الخشن الذي تجعله التطريزات الكبيرة الصفراء بين الكتفين أقرب إلى لباس القسّس. من المستحيل التكهن بعمره، فهو نفسه لم يعرف ذلك أبداً. ولقد قال لي: «هنا، ليس الأمر كما لديكم. نحن لا نعد السنين». ها هو رجل مسلم يحدد الفرق الأساس بين عالم الإسلام وعالمنا. وهو، بفخر واعتزاز، يعتبر نفسه مواطناً من بلدي. ففي أحد الأيام، وقد كانت المجاعة مستشرية في قريته، عبر الحدود إلى الجزائر، وخدم في الجيش لدى الفرنسيين في منطقة وهران، مثله مثل أجداده الذين كانوا يشتغلون مرتزقة لدى الرومان والقرطاجنيين. وقد جاء من هناك بطلاسم تعتبر نادرة في بلاد المغرب وتسمى الهنجي (الكونجي: العطلة) يحملها تحت ملابسه، مغلفة بالحبر وموضوعة

في كيس من الجلد. سألتني: «هل تريد رؤية طُلسمي؟» ولكي يريني إياه حلَّ ثِيابه بحذر بالغ بحيث إن تجاعيده القردية بدأت تهتز. ثم أبدى لي ميدالية عسكرية، وهي لم تكن بطلسم أقل فاعلية، مغلفة بإحكام كما الطلاسم.

إنه خادماً أجلف وأليف، على الطريقة المؤثرة للعبيد؛ فقد حفظ عن ظهر قلب عدد الأشياء التي أملك وأشكالها الدقيقة. وهو يعرفها كما يعرف كلُّ الرعاة كلَّ خروف من قطيعه. وإذا ما أضعت منها شيئاً ينهرني ويبحث عنه ويعثر عليه حتماً ودائماً. وعدا هذه المهمة، فهو يتكفل بالحقائب التي يفتحها ويفلقها، ويعدلي سرير المعسكر، ويجزم بابي القماش في الليل جيداً. وهو لا يفكر سوى في أن يأكل الرُزَّ ولحم الخروف بملء يديه وشذيقه، وأن يزعم هو ورفاقه في المخيم بالمزحات البربرية الجافة، ثم الذهاب للشخير تحت خيمة الساسة.

رحت لأراه نائماً هناك. وقبل أن يُسلم نفسه للنوم نزع عنه رزَّته، فظهر رأسه حليقاً وعارياً وأملس فوق وجهه أحرقته الشمس وغزته التجاعيد من فرط النظر في نور الشمس. وخلال نومه الذي لم ترتخ فيه تجاعيد الجبين، ظهر لي النموذج العرقي بشكل أفضل، وهذا الرفيق بدا بعيداً بشكل محزن وبوضع وغامض وقريب من الحيوانية.

ثمة خادم آخر لنا، هو ذلك الذي يقدم لنا وجبات الأكل. إنه رجل ابن الثلاثين عاماً، تبدو عليه ملامح السذاجة أكثر، يبدو دائم الدهشة والبله، وقد أخطرنا سيده السابق بطنجة أنه «ثعلب» الطريقة العيساوية⁽¹⁾ في تلك المدينة. حاولت أن أسأله عن وظائفه المقدسة، فأنكر أمامي كل شيء. لكن بما أنه يعرف عوائد عيساوة الثعالب، قال مشيراً إلى الخرفان هناك: «شوف (انظر)، خلال العيد، حين يلتقي الرجال الثعالب واحداً كهذا في الطريق، يجب أن يلتهموه حياً. نعم، أي أن يمزقوه إرباً إرباً بأيديهم ويتزعموا أحشائه ويلتهموه. هكذا هو الرجل الثعلب! وهكذا على الإنسان أن يتعلم ما يقوم به مع عيساوة. بلا سكين. لا، القتل والتمزيق بالأصابع فقط. وأطلق ضحكة صغيرة بلهاء فيها الكثير من التقدير. وأنا أعلم (فقد رأيته وتبعته في إحدى المواكب الدموية لعيساوة) أنه قد عرف هذه الشخصيات

(1) العيساوية طريقة صوفية تعود إلى مؤسسها محمد بن عيسى المعروف بالشيخ الكامل (1465-1526). وتشتهر هذه الطريقة الصوفية بموسمها السنوي بمدينة مكناس وموسيقاها وطقوسها التي تبدر بعض عناصرها غريبة وبدائية.

الماجنة، وأن الهذيان المقدس للطقوس العتيقة لا يزال تحترق هذا الرجل البريء الذي يحكي لي بهذا اللطف كله تلك الأشياء ويقوم بتفان بمهمته كخادم.

كان الريفيون يسخرون دوماً من دَمامة العسكري المشعوذ ومن عوائده. إنهم يضحكون ملء نواجذهم، متفليين على سند سروجهم، وهي بهجة قاسية يتردد صداها بعيداً في المراعي. لكن الأحداث الهامة كانت هي أحداث السماء. إنه الريح الذي بدأ عيب، والمجرى المائي الذي عبرنا، والمرور من منبسط إلى أحد المرتفعات في البلد، حيث موجات الريح المتعاقبة تتجارى وتتداخل، كما على صفحة منقوخة بمياه عاتية تتنفس أحياناً على الجوانب العريضة للأرض...

وغالباً ما كانت السماء عبارة عن أفق أزرق، وعوض ظلال الغيوم الهاربة، كانت الرياح المفاجئة هي التي تقلب حقول الحبوب، بحيث يعمّها ارتجاج مفاجئ من الأسفل إلى الأعلى. وأحياناً في بداية المرحلة بالأخص، يأخذني فرسي الجموح عدوا حتى التلال التي نحدُّ السهل، بعيداً جداً بحيث يكون علي أن أترجّل عنه حتى أنتظر الآخرين. وحينها أغدو وحيداً مع الأشياء الخضراء الأبدية. أسمع صمتها في النور؛ أراقب زهور اللؤلؤ وشقائق النعمان، والمساحات الممتدة في خضرتها؛ بلد بكامله صافٍ وقفر، حتى الأفق، عند الخطوط المتعرجة التي عبرناها بالأمس. وحيداً ألتزم السكون ولا أُميس حراكاً، أمتزج بهذه الأرض شيئاً ما، وبهذه الزهور التي تعيش هنا بعيداً عن بني البشر والتي جئنا لمفاجأتها، فقد كانت للحظة سابقة غير موجودة لأي نظر.

يتقدّم صف الدواب والناس ببطء، بحركة لانحها، عبر هذه الفضاءات التي يتوحد فيها النور بالسكون. وفي المرعى يتحرك نثار البذار الطويل، كما لو كان صفاً من التمل يتهادى... كل يوم تقريباً نلاقى بريداً من فاس نقاطع معه أو يلحق بنا. إنه شخص راجل يكاد يكون عارياً، أسود ومشق تحت الشمس من العرق. وهو يمشى بخطى ممدودة، بصلابة ويبلغ سرعة آلي. ويبدو أننا لو رفعناه عن الأرض، لظلت رجلاه تابعان حركاتهما كآلة تملأ بمفتاح.

حملة الرسائل هؤلاء يقطعون دفعة واحدة (توقفهم لا يكون إلا لبضع دقائق) الفراخ الخمسة والثلاثين التي تفصل فاس عن القصر الكبير عبر الجبال. وأحياناً حين تكون إحدى رسائل المخزن مستعجلة، نراه يقطع مرة واحدة الستين فرسخاً بين فاس وطنجة. وحينها نراه لا يتجاوز ثلاثين ساعة. علينا أن نذهب إلى اليابان لنجد عدائين مثل هؤلاء. وهم يقومون بمهنتهم هذه أباً عن جد، بحيث نحس بلدية وراثية لديهم وببيئة خصوصية، فهم يتمتعون بنحافة حادة، ولهم الخطوات الثابتة والدقيقة للقديس يوحنا كما صوره النحات الفرنسي رودان Rodin.

أوقفنا الرجل وسلمناه رسائلنا ثم استعاد حركته التي علّقها للحظة. وها هو الآن قد ابتعد عنا، جاهدًا في مشيه بحيث يصغر شيئاً فشيئاً في الأرض الفسيحة الشاسعة الفارغة. ياله من مخلوق صغير شهيم! إنه يثير في الدهشة بالطريقة التي يمتع فيها من ذاته الشجاعة والقوة التي تفوقه سريعاً وطويلاً عبر لحظات العزلة المتوالية.

كانت الشمس في قبة السماء حين وصلنا إلى محط رحالنا. ومنذ ثلاث أو أربع ساعات ظلت حارقة رغم الحجب التي وضعناها على رؤوسنا. قرب دوّار صغير هناك حقل، وهضبة صغيرة من العشب مخصّصة منذ زمن طويل للمسافرين. هناك، علينا إقامة خيامنا تحت حماية الدّوار. قطع الرجال كوم الشوك (التي لا تزعج غير الأوروبيين) وأزاحوا الأحجار الكبرى، وفي الحال كان المخيم قد صار جاهزاً! فقد مر الأمر بشكل أسرع من مشاغل الرحيل. تناولنا الغداء ثم قضينا العشيّة الطويلة تحت الخيمة حيث تتركز الحرارة وتتهادى تحت قوة الرياح.

حوالي الخامسة خفت حرارة الجو، فقامت ببعض الخطوات. كانت الأرض المخضرة تنعم العين باللطافة. وثمة رطوبة عطرة تأتي من البرسيم الطري. بدأنا ندرس طريق الغد بمنظار. قطعت زهرة ثم أخذت طريق الدّوار وتوقفت عند مدخل سور الصّبار. ياله من حياة نشيطة انزلت عن السهل لتلتجئ هناك في الليل. كانت الماعز والخرفان مزدحة هناك بحيث لا تستطيع الحراك، والحمر مصطفة ومشدودة بالحبال، ومسافرون من الفقر بحيث لا يستطيعون استخدام حراس والنوم في الخارج، وجمال جائعة تغضم حول كومة من التبن. وثمة صبيان عراة، ونساء عند المداخل الداخنة للأكواخ، ودائماً على رأس تلك الأكواخ

الطيور الكبيرة القدرية، اللقالب الهائلة، واقفة على أعشاشها، تنعم بالسكينة في الطمأنينة الصافية للسماء، فوق المرح الغامض المتحرك.

ثم حل وقت العشاء فتناولناه عند باب الخيمة، في الوقت الذي عادت فيه الألوان الوردية والذهبية لتغطي جهة الغرب، مستعدة في هذا الوقت المظلم أجواء تشبه الفجر. ولم يغيب النهار غمماً حتى كانت بعض النجوم قد لمعت في السماء. غمرت الظلمة الأرض، وأفاقها انمحت فكانت تغيب في العدم.

وهكذا لم يعد ثمة من واقع غير قبة السماء حيث ترتعش الآن بأعداد هائلة النيران التي تمثل العوالم الأخرى. إنها حياة الكون، حياة متوحشة تبدو هنا كما لو أنها قرية الحدوث، وتغز عنا أكثر بسكونها وبريقها...

الثامنة صباحاً. يبدو المخيم مقفراً، فليس هنالك من شخص بين الخيام. وكل خيمة تشع شيئاً ما بنورها الصغير الداخلي، كما يستنير غطاء مصباح. كانت تصل سامعنا نبرات آلة ذات وتر وحيد. في كل ليلة يكون العزف نفسه ضعيفاً وضائعاً في عتمة الليل، وموسيقى عنبدة وحزينة يجد فيها أحد سامة بغالنا، وهو رجل مرح وقوي، متعته الغريبة في وقت السكون. وتبقى الموسيقى إلى وقت متأخر من الليل؛ والآخرين لا يزعجونهم، بل يصمتون لإصغاء السمع لنوتاته. ياله من عالم مجهول منا يعبر عنه ذلك البربري بهذا اللحن الدائم الذي يشبه صرير الحشرات.

جاء خادمي الريفي ليحزم باب خيمتي ثقباً ثقباً. كان جاثياً على ركبتيه، ورأسه منحني حتى الشق الذي يفصل بين القماش والأرض. طلب مني الأوامر للصباح وصرخ لي بأمية سعيدة. ثم سمعت ضربات مطرقة الأخيرة على الأوتاد. صار أسفل الخيمة لصيقاً بالعشب في الأرض وصارت الخيمة البيطة محكمة الإغلاق. إنه إحساس وهمي بماوى حقيقي. ثمة فانوس يملأ هذا المكان المغلق بالنور الحميم. أمسكتُ بكتاب وقرئت الفانوس، وكنت سعيداً بأن أحس نفسي في بيتي الشخصي. لكن، عدا زربية صغيرة، كانت الأرضية من العشب وشقائق النعمان في المرعى، وحيطان الخيمة تتماوج عند كل نسمة في الليل. سكنت كل الأصوات في المعسكر، وفجأة سمعت صرخة بعيدة، كما لو كانت صرخة كلب يعوي

حتى الموت: إنه عواء الثعلب. كان بالكاد يصل إلى مسمعي، لكنه كافٍ كي تسري في جسي رعشة خفيفة. وردت ثعالب أخرى، وتقارب العواء، كما لو أن شياطين الليل والمنبسط الموحش كانت تتجمع شيئاً فشيئاً في حلقة من حولنا.

النوم تحت الخيمة خفيف جداً غير أنه مريح. تأتيني الأحلام لكن من غير حركة. فلا شيء يحدث فيها ولا شيء ذو طابع شخصي يوجد فيها. نحن نحس أننا لا نزال مسافرين، لكن كم هو أمر بسيط ذلك، بحيث يختزل في ذكريات عضوية وأولية كالتأرجع الريب للجسم على الفرس، وتصلب الجسم إلى الوراء تأهباً للنزول في منحدر. لكنني استعدت من جديد رؤية قطع مناظر طبيعية، وهندسة هادئة للسحاب في الأفق. وكل شيء يظل هناك، بحيث يتوقف عنده الذهن ويلتذ به ويمجد فيه طمأنينته. وتدريباً تتحول صورة أمان إلى صورة أمان أخرى. حينها، يشارك المرء في السكينة الأبدية أكثر مما يقوم بذلك أمام منظر واقعي. إن تلك المناظر تدخل في عمق الكيان، وتراكم فيه ما استطاعت من البراءة والطلاوة التي لا نعرفها إلا في لحظة النوم، حين ينمحي الإحساس وينكشف في صمت ما نحمله في النفس من قوة أو حزن.

ربما كان هذا الإحساس بالطمأنينة والطلاوة يأتينا ببساطة من العودة إلى الحياة البدائية بحيث نعيش راحة النفس، والتعب المقدس للجسد المشبع والمطهر في الهواء الطلق.

في هذا الحلم الشفاف تمر بي أصوات الخارج: حسان يمحهم، نباح الكلاب التي تبدأ بعد الثعالب بمجمعهم الرهيب، في انتظار رقاد بني البشر. وكذا نداء الحراس المقرفين في حلقة حول المعسكر. وأحياناً (هل يسمى هؤلاء الحماية لحمايتنا؟) يأتون للجلوس بين خيامنا. حينها يبدأ النوم الخفيف يهجرنا تماماً. وعليّ آنذاك أن انقض للتفاوض معهم في الأمر. أخرج رأسي من أسفل الخيمة فيصفعني الريح البارد الذي يرشح برائحة العشب، وفي الخارج نمة الليل اللانهائي البهيم، وكوكبة نجوم تميل إلى الأسفل الآن في الأفق. أُنهي من التسلل إلى الخارج، أنفض، وعلى مبعدة خطوتين ها أنا أجد نفسي أمام الأشخاص المزعجين: هناك شكلان شاحبان ملتصقان بالأرض لاذا بالصمت ما أن بدا لها شبحي وظلا هناك جامدين بلا حراك.

وفي الشأخة (وهي المحطة التي تلي القصر الكبير) كان الريح هو الذي منعنا من النوم. إنها الريح العاتية الآتية من المحيط، تلك التي تهب عادة على غرب فرنسا والتي تعرفت جيداً على صخبها الجبار. أحسست من خيمتي، قبل أن أنهض، بآثارها الخاصة وحماتها الساخنة التي تزعج الاضطراب في الإنسان وفي السماء، وفورها الرطب الذي يدعو إلى الارتخاء، وخاصة هوجها المثير وتقلباتها الغاضبة...

وحين تهب هذه الريح، تغدو الخيمة عنصراً بسيطاً في مهبها. هكذا يصطفق القماش في الخارج كما الشراع في العاصفة، وأوتادها الداخلية تكاد تنتزع: فهل ستقلب الخيمة حالاً لتخاطفها الريح كخرقة بالية؟ لكن رجالنا يهرعون إليها، ويحلقون حولها من جميع الجوانب بحبل واحد يجرّمونه حولها بما أوتوا من قوة ويربطونها إلى أوتاد جديدة.

وفي الصباح، كانت الريح لا تزال تتابع هبوبها لكن من غير عاصفة، فقد انحلت الأزمة بهطول الأمطار. كانت تسقط هدهود، على مد البصر، أمطار البلدان الساحلية الدافئة غير القوة التي يبدو كما لو أنها ستدوم لأيام قبل أن تأتي على ما في السماء من بخار رمادي.

وفي السادسة قررنا الانتظار، وظللنا بخمول نائمين حتى الساعة صباحاً. وبليدة غربية، أحست بالخدر وأنا أنتصت لنقات القطرات الدائمة للمطر على الخيمة، والسيلان المنتظم في الداخل لفطرة كبيرة تتكون ببطء دائماً في الثنية نفسها من سقف الخيمة، وتفصل عنه لتسقط وتسقط كما لتحبس لي الدقائق.

وفي الثامنة توقف المطول، وانحسرت الغيوم التي غلفت البادية كأنها كُنست كنساء، وهربت في شكل خرق شاحبة في رعب العاصفة. لكن الأفق لم يزرق بعد، فقد ظهرت قبة كبيرة بلون رمادي أكثر نضاعة ممهورة بمناطق كستانية. وكان هذا البساط الطويل بكامله يعتدّ بحركة واحدة ويبدو بطيئاً لأنه كان بعيداً جداً.

حينها تحولنا ببطء في الأعالي التي نشرف على الدوار. عثرنا هناك على بساتين، وهي الأولى التي صادفناها منذ ارتحالنا عن مدينة القصر الكبير. أشجار زيتون تنتفخ وتبيض، يداعبها الريح العاصف، وأشجار تين وأسيجة من الألوة الزرقاء، رائعة بصفاتها العالية كقامة رجل، ومستنة بالشوك الحاد المتواتر.

ونحننا كانت هناك أراض فسيحة خضراء متواجهة: موجات خلف موجات، وآخرها يرتفع إلى السماء حتى يكاد يحجب عنا الأفق الحقيقي. كل ذلك تنامي فيه حقول القمح الأخضر. وثمة العشب الطويل في كل مكان، ببريق أسر ورطوبة أكيدة، العشب البافع المغذي، بفرفشات متوالية وحقول متميزة. وعلى هذا البحر النباتي، كما على الآخر، كنا نرى خطوات الريح العريضة بإيقاع متوالٍ وثموجات كبرى.

لكن هذه التموجات سرعان ما غدت أبطأ، فالريح خفتت ولم تعد غير نسيم رخو. حبست نفسها تحت قبة السماء الغائمة (التي غدت الآن جامدة تماماً) مثلها مثل هذه الأراضي الشاسعة التي أزعجتنا. كان الفضاء مغلقاً ودافئاً وحميماً، والنور محجوباً، وهذا اللغز وتلك النعومة كانت تبدو أكثر ملاءمة لتكون الأرض في عمقه ولزوجته.



ثلاثون كيلومتراً بعد ذلك، في منطقة «الزّذات»، ظل ناس الدوار طوال الليل في هرج ومرج. همى وطمس العراكات المغربية. دام ذلك ساعات من غير سبب، مثله في ذلك مثل عراك الكلاب الذي لا يفتر لأن كل واحد منها يعود للنباح لأنه سمع نباح الآخر. إنه سأم الترحال بالمغرب، المتمثل في ضرورة حط الرحال تحت حماية القرى. يا للأسف لأننا لا نستطيع اختيار مكان تخيمتنا، فقط بالنظر إلى هدوء المكان وجماله، كما كنا نفعل ذلك بسوريا. وفي الصباح سألت الدليل عن ذلك الضجيج فأجاب: مرّ أحد أهل فاس وأخبر الناس هنا أن السلطان قد مات. يا لهم من أشرار.

هذا ما في الأمر. إنهم أشرار وأشقياء مثل تلك الكلاب التي يثير سعارها صوت واحد في الليل. فأن علموا أن السلطان مات أمر يثيرهم ويثير العراك بينهم ويدعوهم للتكثير عن أنيابهم.

وفي الحقيقة فإن هذا المرح له أسباب وجوده العميقة. إن هذه القبائل، من بين العديد من القبائل المستقلة المتمردة والسائبة والنهابة، لا تزال وفيعة السلطان. ولا السلطان ولا المخزن، يقدمان لها الخدمات التي يدين بها الحاكمون للمحكومين. من جهة أخرى، فإن هذا المخزن سيقع في الغلط لو ألح على جباية الضرائب حين يرغب في تجنيد الرجال، أو

استعادة السلاح الذي حمله معهم الهاربون من الجيش. هذه الرابطة المهترئة، الوحيدة التي تجمع مع ذلك القبائل، سوف تنقطع إذا ما توفي السلطان. فحين تغيب السلطة الوحيدة المرئية، تصبح كل قرية معزولة. هل ستمدد إلى مهاجمة جيرانها في الغد؟ وهل ستمكن من إخراج قطعانها من حظيرة الصبار؟ إنني أنفهم الهياج المفاجئ، الذي يشبه هياج عش زنابير يانسة، والعراكات الصاخبة، خاصة وأنها تكون في البلاد العربية عامة هي المعركة كلها، فالمتصر هو من زعق وصرخ أكثر.

هل تمّ تكذيب النبا؟ كان الهدوء التام يعم المكان عند الصبيحة. وهام الناس لا ينبون بنت شفة. وهم في ذلك شبيهون بإخوانهم كلاب الدوار التي تبدو بريئة من هرجها في الأمس. إنهم هنا على العشب، يجلسون على مؤخرة أقدامهم على حافة الطريق، مصطفين في خط كما أناس القرى الأخرى، يشبهون دائماً صف العصافير المقشعة من البرد على سلك تلغراف. إننا نخال أن هؤلاء المشاغبين لم يوجدوا أبداً إلا في الحلم، أو أنهم لبسوا سوى سكّون وبلا حراك. وحدها المآقي الصفراء في البرانس الباهتة تتحرك، مترصدة كل حركة منا باهتمام عميق.



وفي المحطة الموالية، بلغنا البساتين الجميلة لنهر وَرْغَة، البساتين الثانية والأخيرة على طريق فاس. وهي حدائق مستقاة من أشعار فارسية، تبدو خارقة في هذه الحرارة التي نعم الظهيرة، وسط منبسط قفر ملتهب بحرارة الشمس. إنها الظلال الوارفة والأكثر رطوبة. تمددنا على كتل من الطين الأسود تحت أوراق التين الصافية، وتحت الخضرة الغامقة لأشجار البرتقال.

قمنا بقيلولة قصيرة ثم تابعتنا المسير حتى بلاد «الشراردة». في ذلك اليوم قطعنا نهريْن: وَرْغَة وِسْبُو. إننا نلاقي نهرا في وسط كل سهل من هذه السهول التي تشبه أروقة طويلة لانهاية جنب المحيط الأطلسي، وتمد على الساء الغربية خطاً من الأفق صغيراً مؤثراً. ونحن نزل، نرى من الأعلى، هنا وهناك التعرجات الهادئة التي تنقطع، ثم تعاود الظهور بُعيد ذلك كي تنمحي مع الأرض كلها في أفق الفضاء، على بعد فراسخ منا.

لكن في الأسفل، حين نمس الأرض الواطئة، لا يغدو النهر مرثياً لأنه يجري عميقاً بين

حافتين. وثمة الكثير من العشب، والنباتات الممتدة من غير انقطاع حتى سلسلة التلال الأخرى. لكن قريباً منا ثمة تقاويس من أشجار الدفلى الوردية المزهرة حينها. ونحن نسير من قوس لأخر نقطف عند مرورنا بعض زهورها العجيبة المائلة إلى النضاعة، النادرة كما زهور الأزلية. وما فتت وحدثنا في هذه البلاد أن انحسرت عند الوصول إلى الوادي الكبير وعمزه. ثيران تتسكع هناك قرب المورد، وأخرى ذات الوبر البليل أتت من الشط الآخر، لتلتحق بالباقي في انتظار الراعي، قبل أن تأخذ طريق العودة.

ثم ها نحن على الضفة، وفي قعرها الذي لا يملؤه النهر غير العميق، بقنواته العديدة، مساحات شاسعة من الحصى والطمي، وهو أروع وأكثر صفرة من هذا الوحل، الذي يبدو عبارة عن تراب سائل. وجرف الضفة يرمي على هذه الحقول المزروعة المسترسلة ظلاً من معدن.

هذا الفضاء الحجري أو السائل حيوي بشكل رائع. تمر القطعان، ذات الدواب الهائلة، من ضفة لأخرى أو تنتشر فيها على هواها كما في المراعي. وأغلبها واقف بلا حراك لا يقوم سوى بالتمتع بالمياه الرطبة. وهي تمتصها بأشدّهاقها المنحنية، وترفع رؤوسها لتعاود الكرة بتؤدة، وقطعان الضفة منغمسة حتى الركبة في الفرشة المائية الرقيقة التي تتماوج عند كل حصاة كبرى. والأخرى منغمسة حتى البطن وسط المجرى الذي يثير أمواجاً كبيرة. لكن العديد منها ركبت على ربوة من الحصى. إنه مرتفع يتجمع فيه القطيع ويقف هناك، قرونة إلى الأعلى على خلفية السماء الشاسعة وشريط المنبسط الضيق، أو فيه ينحدر الشور ممّداً جسمه باتجاه المدى.

إن مشهداً كهذا يستعيد لنا، أفضل من العزلة الخالصة، أزمنة الأرض البدائية. فهذه الحيوانات المجترّة الهائلة التي تتسكع هناك بالئات، تراها تتناغم مع هذا المشهد الطبيعي الأولي، ومع شساعته الخالية. وهي تبدو، مع السلاحف السوداء وطيائر البقر، الكائنات الحية الوحيدة في هذا المرعى الموحش حيث تجري مياه عملة بالطمي في سرير واسع ومنهار، بين الحصى وتحت حواف من الدفلى الوردية.

من هناك، بين نهر «ورغة» ونهر «سبو» تبدأ الطبيعة في التغير. نحن نترك أخيراً البلاد ذات الحقول المزروعة ونخرج من هذه التمجّات الرخوة والبالغة الخضرة. ومن نهر لآخر، على المرء الصعود والتزول، لكن الصخور تتكاثر، ويبدأ الجفاف في التزايد، والعشب يغدو أكثر رمادية. وفي البعيد، جبال متراسة في نصف دائرة عند المشرق والجنوب، خالصة مثل الشية الملساء والحادة التي تولد من وسط الأفق. إنها نقاوة مثالية تفسح لنا من مسافات بعيدة عن الصخر العاري لقممها. والغريب هنا، كما في العديد من المناطق الأندلسية، هو أن الانطباع بأننا نساfer على هضاب عليا يأتي في هذا العلو غير المرتفع كثيراً. والقمم الطويلة المترابطة تشرف من قريب على المنبسطة وكل شيء كما هو الأمر دائماً يغدو في منتهى الخفة في المرتفعات: الهواء والنور وحركة الأرض والنباتات، بل حتى نبض الحياة الذي يخفق فينا راقصاً وهبجاً أكثر.

في كل الساعات من ذلك اليوم، ظلت تلك الجبال النائية تحافظ على ألوان الصباح والمساء. كانت الشمس تخضبها باللون الحمازي الفاقع وبالورددي. والظلال تنساب فيها رخوة كما المياه الزرقاء. كل شيء كان هنالك رقة وحيوية، وتلاوين متغيرة للون الشاحب الذي كان مع ذلك يدوم، كما الصدف الروحاني في أصيل الترويج. كانت تلك الموجات الطويلة من السبولة بحيث تتمدد من غير ارتفاع وتبدو وكأن النور يخترقها. إنه نور أزرق وكستنائي أو مائل إلى الحمرة، كما لون اللازورد أو الجَمَز أو الياقوت. ونرى جيداً أن لا الأرض ولا النباتات تثقل كل هذا.

يبدو السهل حولنا أكثر واقعية من تلك الأقاصي البلورية. كان ذا صفاء خارق، كما لو كانت الأشعة التي تداعبه تغلفه. والساء كانت شاحبة أيضاً بشكل غريب، بأفقها الذي فقد لونه فابيضٌ وخالطه اللون الفضي. ومع ذلك فإن الحرارة الإفريقية الحقة قد بدأت. إنه شكل اليوم الذي يبدأ وينتهي من التاسعة إلى الخامسة، بمهّ دقّ النور كما خلال الظهر، وهو ظهر يتوقف في الساء ويصب علينا دوماً مطراً من الأشعة المستقيمة، بحيث لا تقاس حدثها إلا بتعب العين.

في هذا اليوم من بدايات أبريل/ نيسان جاوز المحرار في الظل لأول مرة ثلاثين درجة.

من الجهة الأخرى لنهر سبو، تبدأ أراضي قبيلة الشراودة، وهي قبيلة محاربة لا يزال يجد لديها السلطان عسكريين في الكَيْش⁽¹⁾، بشرط أن يكونوا أحراراً للعودة إلى ديارهم حين يسأمون من الخدمة العسكرية، وأن تمارس القرى الحروب على هواها. الطريق من هنا إلى فاس أقل أمناً. ثمة أمر دال، فبمقدار ما تقترب من مدينة السلطان، بمقدار ما يردّد علينا الدليل نصيحة الخلز والحيطه. ممنوع الآن العدو وحيداً بالفرس في المقدمة أو التخلف عن القافلة. وقرب نهر سبو، أمسك الجليلي الذي يميز بغلته قرب فرسي بمرفقي بغته وقال: «هاك، انظرا» كانت ماسورتا بندقيتين نلمعان على بعد ثلاثين متراً في دغل أكمة. والحقيقة أن الأوروبيين لا خطر كثيراً عليهم، فهذه البنادق تكون في انتظار تاجر عربي وحيد، أو أنها ترصد الأخذ بثأر ما. والمسافرون الذين يستحقون خرطوشة بندقية يسافرون دوماً بقوة حامية. وعلى كل انتهت بالنسبة لنا هدايا الحليب ومشتقاته، والكسكس ليلاً في القرى، وفات وقت شيخ القرى الأصدقاء وترحيبهم التوراي. إنهم ينظرون إلينا شزراً ونحن نعبز أمامهم، وإذا ما نحن حصلنا، مقابل نقود حنية على الحرس الذين يحق لنا استخدامهم، فإن هؤلاء سوف يضحكون ويصرخون على هواهم في هذه الليلة الساهرة التي تشبه إحدى ليالي رمضان. وعند الثانية أو الثالثة ليلاً، حين نترجع من عدم القدرة على النوم، وإذا ما نحن منحناهم بعض النقود كي يلتزموا السكون (لأن ذلك أفضل من توعددهم أو تهديدتهم)، فإنهم يتضحكون أكثر وقد أثارهم هذه النعمة غير المتوقعة. وهكذا كنا نعول على القيلولة للتمتع بقسط يسير من النوم.

خلال تخيمنا بسبو، صادفنا «قافلة الخزينة»⁽²⁾ التي تحمل إلى فاس متوج الجمارك بطنجة. تمت محادثات طويلة بين قائدها ودليلا. ومن بعيد رأيت هذا الأخير، الذي بدا ضخماً وهو راكب بغلته، يهش بالرأس علامة النفي، ويرفع يده لمرات عديدة، كما للتوكيد. اقتربت منه فوصلتني عبارته: «لا، لا» التي تتكرر دائماً في خطاب عالي اللياقة، والتي كما يبدو تعني الرفض والاختلاف. وأخيراً جاء إلينا الدليل وفسر لنا باللسان الفصيح: «هؤلاء الذين

(1) الكَيْش أو «جيش الوداية» هي ميلشيات عربية أنشأها مولاي إسماعيل في نهاية القرن السابع عشر وساهمت بقوة في رد المطامع العثمانية واستعادة العديد من الثغور التي كانت قد سيطرت عليها الأساطيل الأجنبية. وقد استمرت هذه الميلشيات إلى حدود الحماية الفرنسية في بداية القرن العشرين.

(2) بيت مال المخزن.

يحملون المال إلى السلطان، خائفون من قبائل الشراردة. يقولون إنهم لا يملكون ما يكفي من البنادق. قلت لهم لا. فقالوا لي أن أسأل الأسياد، لأن الروميين أصدقاء السلطان...».

رفضنا جملة وتفصيلاً هذا الاقتراح. لا أبداً. إنه لأمر خطير أن نصبح حامية لصناديق مال خزانة السلطان. إذا لم يكن السلطان قادراً على ضمان أمن الطريق للمسافرين، على الأقل ألا يطلب منا مرافقة «فلوسه».



وفي الصباح، تركنا من غير أسى أول دوار غير مضياف للشراردة من غير أن نراه مجدداً من فرط الضباب الأزرق الذي انتشر من النهر على البادية. تبدو لنا فقط رؤوس الأكواخ، وبشكل أقل ضبابية، أشباح اللقائى واقفة فوق أعشاشها على سيقانها النحيفة العالية، التي كبرت أحجامها بشكل خارق مع الضباب. شيئاً فشيئاً بدأ نور الشمس ينساب في هذا الباب بحيث يذوب فيه ويكوّن الزرقة في الفضاء. ثم انكشف لنا سهل سبو الفسيح، تحت السور الجبلي الذي نسير بمحاذاة سفحه. لكن بدأ يحف الضباب الأبيض الذي يطرده من الأرض هواء البحر الناعم. إنه أكثر الصباحات رطوبة ووضاحة كما هي كل الصباحات التي تبدأ بالضباب. والنورس الذي لا يصلنا صوته يملأ السماء...

حوالي الثامنة، انعرجنا عن النهر، ودخلنا تَوّاً في الجبل من خلال سهل عرضي. لا يزال أمامنا منبسط طويل لكنه ضيق هذه المرة كما تمر بحري تكتفه الأجراف بين سفحين جبليين. إنها أراض خضراء وسرية اكتشفنا لتوّنا مدخلها. ففي سوريا، ونحن آتون من جبل الشيخ ونتجه نحو الشمال، أبصرت فجأة بين جبلي لبنان امتداداً طويلاً كهذا. إنه سهل البقاع الذي كان يسميه القدماء الشام المقعّرة. وينطلق البصر والروح بالطريقة نفسها هنا، تحت خدر هذا الفضاء الحار بين حدّين، أكثر من الدائرة العادية للسهل. وهنا النور نفسه الذي لاقيناه هناك، والظلال الرخوة والكستنائية في سفوح الجبال، والقمم الصخرية التي تبدو كأنها تحترق من الأعلى وتحلّ أفقا ساخنا. وفي الوادي ثمة الخصوبة الفلاحية، حقول قمح طري مناسبة في الهواء الخفي، حقول قمح كالتي نراها في منطقة البوص Beauce بفرنسا في بدايات يونيو/ حزيران، غير أنها برية أكثر، بعمقها الأزرق المخضر المناسب كما الماء، وبالزهور التي

تتخللها متناثرة هنا وهناك، من الترنجان وشقائق النعمان الزرقاء والحمراء المتهاوجة، مع الأخضر البلّوري للعشب والسنابل.

وحين وصلنا محطتنا كانت «قافلة المال» التي تسعى للحاق بنا، لا تزال بعيدة ورائنا. فسر لنا الجيلالي بطأها: «هؤلاء من المخزن. يسرون دائماً «بالشوية» (بتؤدة)، ثم عبّر عن مقتله بصفق لسانه ويده التي ترتفع عن المعصم. المخزن، إدارة الدولة المغربية، يعني فوضى الناس وبؤس الدواب، والناس الذين لا يتلقون أجورهم، والذين يقتطعون قوتهم من علف الدواب بحيث تتضوّر هذه الأخيرة جوعاً، وتعرج قليلاً بالرغم من وخز المتخاسم في جروحها التي تظل من دون التأم. مساء الخير لقافلة المخزن هاته! لعلها تلتحق بنا في المحطات المولية، لكننا لن نكون بجوار «خزيتها» المخيفة. فهي تقيم الليل وسط الدواوير، وفي النهار تنهادى بعيداً خلفنا.

هرج كبير في هذه القرية التي وصلناها، حين شرعنا في إقامة خيامنا في حقل مجاور لها. هرعت نساء من القرية، وهجمن على الدواب لمنع سائسها من حط الرحال. حينها انطلقت معركة مغربية لم يكن أصحابنا فيها من الخاسرين. يبدو أنهم يرغبون في إكراهنا على الإقامة داخل سياج الصبار. كن يخنش أن نقوم بإطلاق أفراسنا في حقول القمح اذخارا لبرسيمنا، فذلك كان هو ما نقوم به فيالقي المخزن. أكدنا لمن صفاء سريرتنا ومقاصدنا. ولسوف يرين ما تعنيه قافلة شريفة ومؤدبة على الطريقة الأوروبية. ثم إننا نرفض بتاتا أن نقيم في الليل في حظيرة مع العرب والقطعان والجمال، من غير أن ننسى جحافل الحشرات. وحين رأين أننا بدأنا مع ذلك في بناء خيامنا أصبحنا هادئات فجأة. فتقدم منا شيخ القرية وسلم علينا، وعبر لنا عن فرحه لاستضافتنا. وأخبرنا أن كل شيء هو لنا من زرع ودواب، ودعا الله أن يبارك فينا.

وفي الصخب الذي عشناه من لحظة، لم أستطع أن ألاحظ الحسن الفريد والعميق لهذا الشخص. كان عياه طويلاً متجعداً، جافاً من زمان كقشرة شجرة بلوط ميتة، أو جلدة فيل. هل بلغ الثمانين من العمر؟ هل عمره مائة وعشرون عاماً؟ لا أحد يستطيع الجزم في ذلك. عينا غاثرتان وخابيثان تحت جبين واسع، تحت محجرين دقيقين وبارزين. واللحية موج

ذهبي منسدل. والحركات صارت فجأة بطيئة كأنها للعبادة. فأنألم أر هذا النبل الفحل والحالم لهذا النموذج العرقي سوى لدى بعض شيوخ بلاد الهند، في الأقاليم الإسلامية الشمالية.



بدا واضحا أننا نقرب من فاس. فطريقنا تتلاقى مع طرق أخرى آتية من مكناس ومن الساحل الغربي، من العرائش ومن الرباط. إنها خطوط تكاد لا تُرى (وقد تكون قديمة قدم شعب البلد)، وهي الآن تسري الواحدة قرب الأخرى في العشب. أصبح الطريق مأهولا. صادفنا في طريقنا صفوفا من المشاة، وقوافل مسلحة، وأحيانا تعرّجات بطيئة من الجمال تنهادى تحت وطأة الحمولات الهائلة...

لكن ما يتكاثر بالأخص هنا هو عظام الحيوانات، على اليمين وعلى الشمال من الدرب، العظام الفقرية الممتدة للخيول، وأفخاذ الحمير والبغال، هياكل عظمية بكاملها تمد جمجمتها نحو فاس، يبدو أنها سقطت هناك بعد أيام طويلة من الجهد والاحتضار.

نحن الآن وسط المرتفعات الجبلية. وفوق الطريق الذي نسلك، تتعلّق القرى بالصخور، كما لو كانت أعشاشا حذرة للنجوارح، كي تراقب دوماً وعن بُعد العدو الذي قد تنشق عنه الأرض. ونحو العاشرة، بلغ سمعنا صوت تراشق بالرصاص. رفعت عيني: كان أحد رؤوس الجبال مغلفاً بدخان أبيض، فقال لي الدليل: «لا تخش شيئا، لكن علينا أن نمرّ من هنا بسرعة. إنه دوائر يأكل دوارا آخر».

ظهرت لنا، ساعة بعد ذلك، غابة زيتون صغيرة على منحدر بعيد. وفي «الشماخة» كنا قد رأينا خمسة أو ستة أشجار زيتون، وroman وتين بري قرب وادي ورغة. لكننا لم نلاق بستاناً حقيقياً مثل هذا منذ مدينة القصر الكبير. صرخ أحد رجالنا: «انظر. إنها قرية بني الأحمر، ولهم بساتين! هؤلاء أغنياء ويعملون بجدا!».

بنو الأحمر هؤلاء راعون حقاً، فهم لا يجهّدون فقط في زراعة أراضيهم بهاتين أو ثلاث مائة شجرة زيتون، وإنما يسعون إلى بيع غلتها. إنها تجارة بسيطة لا تضيف شيئاً للأرباح التي تنوي أوروبا جنيها من هذا البلد؛ بيد أنها الوحيدة التي رأينا علامات في البوادي المغربية. ومن بعيد إلى أبعد يكون ثمة رجل، غالباً ما يكون شاباً، يقعي أمام خس أو ست درّينات

من حبات زيتون، وقد يكون في حراسة ركام من الأحجار الصغيرة، بما أنه يبدو مهتماً بالبيع، وبلا أدنى حركة، ينظر إلينا ونحن نمرّ. يمكننا ابتياع ركام الزيتون هذا بقطعة نقدية نحاسية، لكن على المرء أن يأخذه بنفسه، ويضع قطعة «الفلوس» في يد البائع الذي يبدو أنه جاء إلى هنا لانتظارٍ مشترٍ غير محتمل، وإنما للانصياع للنوم. لكن هؤلاء التّوّم يعيشون لحظات استفاقة فجائية، بحيث يقفزون بقوة من سباتهم على طريقة الوحوش الغافية، لأنهم كلهم مسلحون. وهم يتمتعون بعطائهم ويندقيتهم محمّلة على الظهر. وكل راع أيضاً في بلاد الشراة هذه يحمل بندقية لرعي قطعانه.

وفي مكناس كانت الحرارة تصل إلى 32 درجة في الظل. وضعنا خيامنا في أرض بيضاء تحت الهاجرة. ثمة أحجار الصّوان وعظام بالثالث، ولا شيء آخر قرب هذا الدّوار الكتيب. كنا نرى الهياكل العظمية للخيول فاخرة صدرها، شبيهة ببيكل الأسماك، حتى سباح الدّوار الدائري على مقربة من المساكن.

ومع ذلك، وبما أن السماء خفّفت من حرارتها، فإننا نحس أننا هنا أفضل من المأوى المشترك للقوافل ذات المصادر المختلفة، التي تأتي كلها هنا لتتغلق طيلة ليلتها الأخيرة قبل بلوغ المدينة المقدسة. وفي الأصل، حاولت أن أليج المأوى. ثمة خمسون بغلاً، ومثلها من الجمال، ومائة من الخيل والحمير، وما عز وخرفان بالقطائع، ومعهم الرعاة وسوّاس الجمال والمسافرون. وخلف الصبار والحفرة مزيج من الناس والدّواب يثير لغطاً تتنازع فيه الأصوات. وتنضاف الروائح إلى العطانة التي تطفو على الأرض المجاورة.

الليلة ساخنة. والسماء تلمع فيها النجوم التي كنت أروح دوماً لرؤيتها، والتي تبدو كما لو أنها لن تشحب أبداً. كم أتلهف للفجر الذي سيدي لي صوامع فاس!

الدخول إلى فاس

14 أبريل/ نيسان. من ساعات ونحن ننزل من منحدر صخري حين انفتحت أمامنا سهول فاس، صافية. وكدنا ونحن ننظر من فوق إلى ذلك الامتداد أن نصرخ كما يونانيي كزينوفون⁽¹⁾ Xénophon حين أبصروا بالبحر: طالاسا، طالاسا!

ها نحن نصل إلى منطقة جديدة من المغرب. امتدادٌ شاسع منبسّط، فضاءاتٌ من الأرض النائمة التي تشحب تحت شمس الجنوب. وعلى مبعده مسافة يصعب تقديرها، ينبثق خط جبالٍ في الأفق. لكن في الجنوب الشرقي بخار متمدّد يصعد في شكل مثلث شاحب، وحينها نعرف أن الأمر يتعلق بالأفق الشاحب الذي يتجمع ويتمدّد هناك. وفي الأسفل يبدو أنه يقوم على الفراغ، كما منظر يركان «فوجي ياما» في المنام. ولا شيء ينبئ عن طبيعته الأرضية غير التخطيط البيضاء في هذه الزرقة المضّية، والخطوط المنتظمة التي لا يمكن أن تكون غير خطوط قمة مكّلة بالثلج. إنها قمة من قمم الأطلس المتوسط⁽²⁾ التي تظهر في الأيام الصافية، وتأتي لتشرق على مدينة فاس.

أتبعنا ساحل جبل حجري ممتدّ، ينتهي في المنبسط كما تنتهي سلسلة جبال الألبين الإيطالية في البحر المتوسط. وهناك في الأعلى ترقّ قمت المائلة وتنفر كما لو كانت موجة هاربة، بحيث هناك أيضاً يبدو كل شيء بسيطاً، ومرسوماً بخطوط شاسعة كما أغلب المناظر الطبيعية لإفريقيا. هناك أيضاً كل شيء يغدو خفيفاً، كما الأفق المرتعش في السماء، وكما هذا الهواء العطر، والعشب النّير على الأرض في المرعى، والفُرشات الوردية المزهرة. يا له من صفاء روحاني لهذه الصخور التي تغدو ذات لون مرجاني، وتبدو مشقة بياتها الأساس، وتشرّب السوائل ذات الظلال الزرقاء، بمقدار ما أن المدى، عند غروب الشمس، يتخلّص من نقاصيله ويغدو أملس ويتجمّد في النور.

(1) المقصود هنا كزينوفون الشاب الذي كان من أوائل «الروائيين» الإغريق، عاش بين القرن الثاني والرابع للميلاد. والحدث الذي يحيل إليه هنا شوفرون موجود في كتابه: «أهل إفريقيا»، الذي يبدو أنه ألهم شكسبير في كتابه «روميو وجولييت».

(2) هي السلسلة الجبلية التي توجد وسط المغرب ولا تبعد كثيراً عن مدينة فاس.

لم يظهر لنا بعد شيء من المدينة المقدسة، فقط ما يشبه الجزر يتمدد في الأفق عبارة عن كُوم غامقة من العشب، قال لنا الدليل إنها البساتين المغلقة للسلطان. وبالمناظر، ميزت قمعا عالية موقرة بالصنصاف والأشجار الكثيفة التي ستكون لا محالة ملئية بالبرتقال وزهور الرمان. إني لأتخيل بساتين إسلامية تأتي فيها نساء الحريم للعزف تحت الظلال الخضراء على جنب المياه الزرقاء...

صارت المسالك الموازية تتكاثر، ونهرب من أماننا في العشب والورود اللبابة. وهو ما يعني حركة بحرية ورواح نشيطة للمسافرين، بحيث إن القوافل الآتية من الجهات المختلفة تسير باتجاه مدينة عربية كبرى. ومن ساعة لأخرى، صرنا نلتحق بمواكب طويلة من الجمال. وفي كل مرة تختلط مجموعة أفراسنا وبغالنا بها لتسلخ عنها تدريجياً، وفي كل مرة نخال أننا نلتحق بالمخلوقات العجيبة التي تركناها وراءنا، خاصة وأنها تشابه وتزرع فينا الدهشة بالشكل نفسه. دائماً الخطوات الناعسة نفُسها تحت الحمولات التي تسحقها، والذهول نفسه الذي يُبين عنه أعناق الجمال التي تترنح بحركة لا حياة فيها. إنها المشية نفسها لدابة تعاند الحياة، وتمرّ اليوم فوق الكائنات الصغيرة من غير أن تراها، منغمسة في أحلامها العتيقة. وفي كل قافلة ثمة جملٌ صغير يكون دوماً هو نفسه، حرّاً من غير حولة، يوبر أشقر قرب الجمال التي تشبه الغيلان المقشرة التي لا عمر لها. إنه الوحيد الذي يبدو حاضراً وحياً، لأن له ارتباكاً وقفزات مفاجئة وغير منتظمة لا نجد لها لدى صفار الدواب الأخرى. وساسة الجمال نفهمهم يظهر من جديد أكثر هدوءاً من ساسة البغال، يمشون بخطى أوسع، وبصرامة لا ينطقون معها بكلمة، خلافاً للمزاج الحي لساستنا المهذارين. إنهم شريحة، تتبع فيها خطواتهم وحركاتهم اليومية وقع خطوات الدواب، وذلك أبأ عن جد.

ثم إننا التقينا بمسافرين غالبهم أناس بؤساء، أرجلهم متدلية، مُقرّشين على مؤخرة هيرهم، ذوو هيئة غريبة وعسكرية، يسرون مصطفيين بالخمسة أو الستة. إنها وجوه ذات كبرياء، بين بياض العمام (الُرُزَز) وبياض البرانس الوسخة. وهم يحملون بنادق طويلة تتأرجع على أكتافهم، ومسلحون بالخناجر وأوعية البارود في الخصور، والمهامز مرصعة وواسعة كالصحنون حيث تدخل عالية أرجلهم في أحذيتهم الصفراء. أو إنها وجوه مهادنة ومسالمة لا تقل أهمية عن السابقة، يجلس أصحابها بوقار على بغال حذرة ونافرة، على سروج

ذات مسند مصنوع من المخمل الأحمر. وهؤلاء يلبسون «الحايك» وهو عبارة عن عباءة رفيعة، تُدار حول الرأس، ويُرْمى بها تبقى منها على الظهر. ومن تحتها ينصر بالقفطان الذي لا يظهر لونه إلا بالشفافية لينتثر نهائياً تحت الثوب الموصل. هذه البدلات وهذه الوجوه الممتلئة، بشحوب وبأدب ووقار، تعلن عن بورجوازيين حقيقيين يعيشون بحكمة إسلامية، من غير حركة نافلة، في عتمة الأزقة والحواريات.

لم تكشف لنا المدينة المقدسة بعدُ عن نفسها، غير أننا بدأنا نحدس وجودها. ثمة مواكب الجمال، وفيالق العسكر، والتجار على بغالهم، والبدويون على حميرهم، والقطعان الطويلة الشاغية، كل هذه الحياة التي تتحرك نحو الوجهة نفسها على الدروب والمسالك المتوازية، كما لو كان الأمر يتعلق بالاقتراب من مرسى كبير، حين يكون البحر لا يزال أبعد من مدى العين، مليئاً بالسفن والقوارب التي تنحو بأشرعتها الصغيرة والكبيرة نحو نقطة الأفق نفسها.

لكن على طريق فاس، ليس هناك من مجموعة أجل من موكبنا ولا أكثر مرحاً منه. والقافلة التي سلتها في المدينة العجيبة وصلت قبلنا، بحمايتها من العسكر المغاربة والأتراك الجزائريين ذوي البرانس الزرقاء الفاتحة التي تزين أفراد المفوضية الفرنسية. انتظرناهم قليلاً، فقد أخطرناهم بواسطة «رقاص»^(١) مرّ من مكناس. ومع ذلك، أن نراهم يظهرون هناك في هذا المنبسط التي توقفتنا استكشافه، والذي بلغناه بعد عشرة أيام من السفر عبر الأمكنة الموحشة، وأن نتعرّف عليهم فجأة من بين هؤلاء الفرسان الذين يملأون الطرق وسط هذه الحركة التي أتت من عالم آخر وزمن آخر، أمرٌ بدا لنا غير محتمل. لفّتنا لحظة حمى العيون التي تبحث في البعيد، بين هذا العدد الهائل من البرانس، عن شخصين أوروبيين صديقين، ووجهين يتعميان إلينا، أحدهما شديد البياض مثل الآخر، غير أنه جالس جانباً على الفرس، كما لا يمكن لأي شبح عربي أن يجلس أبداً على مطيّة. وفي اللحظة التي أخطرتني حدسي، قبل أن أميز أي شيء محدد، قلت في نفسي: هذه المرة، أنا متيقن، ها هم أمامنا. عدوت نحوهما هما الحاضران هنا بمعجزة. وللتوّ غمرنا الفرّح، فرّح أن أرى في تلك القافلة البعيدة حركات متوافقة مع حركاتنا، إذ هما يأخذان الهيئة المتموجة والممتدة للسرعة، وهماي الوجوه تنكشف لي أخيراً، وتصلني الأصوات الأليفة، والتصفيقات واضحة أكثر فأكثر، مرسلّة

(١) هو الاسم الذي كان يطلق على الشخص الذي يكلف بالبريد.

بالحركة الفريعة لليد. وهو ما كان! ففي الإيقاع الصاحب والمتسارع للعدو، تجاوز موكبنا الآخر. كان علينا التحكّم في خيولنا الجموحة بأصواتنا وإرغامها على العودة إلى الوراء. بيد أنها في فورتها ظلت ترقص وتحفل مانعةً إيانا من السلام بالأيدي الممدودة. وحينها ففزنا أرضاً، وتركناها للفرسان الزُّرق الجزائريين، تحت حماية العسكر المغاربة الذين ظلّوا على مطاياهم قويمى الجلسة وصامتين، وبنادقهم الطويلة تظهر من خلف ظهورهم. ثم سرنا للجلوس وتبادل الحديث عن أشياء وطننا، على شطّ غدير بلّوري يسيل بمحاذاة العشب. إنه وادي فاس، حيث السلاحف الصغيرة تأتي عوماً للتحديق فينا مديرةً رؤوسها، بعيون بالغة اللطف وذات مُسحة بشرية...



ها هي فاس تظهر لنا.

كانت كُوم من الصخر تحجب عنا رؤيتها، في سفح الموجة الكبيرة من الأحجار التي تحمّر أكثر فأكثر في المساء. انعطفت الطريق الذي كنا نتبعه. وهذه الثنية في الأرض التي تتجه يساراً، كما قماش ديكور مسرحية، سارت لتمرّج بالجليل. حينها ظهر خطٌّ من الفتحات ذو طابع متوحش، تتباعد فيه الأبراج، ومن الورا قلاعٌ وصومعتان خضراوان بالفسيفساء. لكن شيئاً أثار دهشتنا، فكل هذا الذي يلمع بحدّة في شمس الأصيل يبدو من غير عمق. ثمة خطان أو ثلاثة للدفاع، ولا مدينة وراء ذلك، حتى الفاصل بين تَسَنّات الأسوار، والفراغات المخضرة للسماء (يبدو أن فاس تنتشر في حافة السهل، ومن الجانب الآخر، تنساب عبر الوادي في وادٍ عميقة لا نراها).

ها نحن حاذيناه، ذلك السور الغامق من الأجر والطين، وهو مشع في المساء أكثر من الأزرق الباهت للصوامع. والمراعي تصل حتى أعتابه الشريفة، بدائيةً كما هي عشرين فرسخاً أبعد من هنا، بادية من العشب كما هنالك في جانب المحيط الأطلسي حيث أرى أفقها يتمدّد، وحقول البحر تحت أسوار المرسى لا تبدو متوحشة إلى هذا الحدّ. وإليك ما هو الأكثر غرابة: هذه المدينة المغلفة بإحكام (بحيث لا نرى فيها أي باب)، هذا الشيء الهائل الملمّز والمحير بألوانه الخاصة، الذي يبدو كما لو أنه اتبنى هناك بنفسه، والذي نكتشفه في

الوحدة، يتابع حياته الصامتة العتيقة.

والآن، ها نحن نتجاوز الحاجز الكثيب الذي يواجه امتدادات الغرب. ظللنا نسير على الجهة الشمالية للأسوار، مع شريط الدواب والناس الذي كان عبارة عن صف ضامر وحي. ما الذي يوجد هنالك؟ ليس ثمة من ضجيج ولا من لغط في المدينة، ولا أثر للدخان، ودائماً لا وجود لمنفتح نلج إليها منه. انزحت شيئاً ما عن السور الداكن لأرى سورا آخر ينهض من الخلف بشكل مواز، مجهز بحصون مشابهة. إنها أسوار داخل الأسوار، وهي معا ذات لون وحيد بحيث إننا من دون الإحساس المجتم للبعد سنخال أن الواحد منها يترابط مع الآخر. وأبعد من ذلك هناك برجان أو ثلاثة أبراج صغيرة ومستطيلة. إنها المدينة السلطانية، وهي تبدو كأنها فقراء في النبط الفارغ، ومكونة بالأخص من الفضاءات الخالية، ومن أسوار فظة تتداخل، كما في قصور الخرافات العربية التي بناها الجن بشكل رائع بعيداً عن بني البشري يجلسوا فيها ابن هذا الملك أو ذاك. وفي وسط هذه الأسوار ينغلق السلطان. وأحياناً حين يكون الأصل جيلاً، يظهر شبح بشري صغير وحيداً، كامل البياض بين ظلال الخرف الإيطالي، هناك على سطحية أشار لي إليها مرافقائي؛ ومن يراه يعرف أنه هناك، وأنه هو الذي يحلم أمام المجد البعيد للمغرب بعد صلاة المغرب، هو السلطان الملقب، أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والشريف صاحب البركة...



بدأت حياة فاس تتبدى لنا. عدد كبير من الناس يتكئون على قدم السور في شكل خطوط شاحبة. أناس يتخذون كلهم الوضعة نفسها: الركبتان عند الذقن، والأعضاء مخفية تحت العباءات الداكنة، والأجسام منكشة على نفسها في أصفر فضاء ممكن. إنهم يلزمون الصمت، منهكين ومتحجرين كما لو بفعل سحر ساحر. ولا يد واحدة تمتد لطلب الصدقة. لكن أحياناً، طالما نحن نمر، يستدير وجه من الوجوه، ليرقب من تحت مرور الرومين على جيادهم، بمقلة ذابلة. أما الآخرون فلا يرفعون أبصارهم، وذلك عنوة كما قيل لي. وبما أنهم عاجزون عن منع وجودنا المكروه في المدينة المقدسة، فهم يرغبون على الأقل في تجاهله ويواجهونا بالامبالاة الصارمة. لكنهم هم أنفسهم يبدون كما لو أنهم يتجاهلون بعضهم

البعض... وحين أستدير نحو أولئك الذين تركناهم وراءنا، أقف على انعدام التأثير نفسه، والصمت الجماعي الفظ. هل يحدث لهم أن يحلموا؟ أتخيل أنهم ببساطة كائنون، وموجودون، فقط، ككائنات تتخلد للراحة، وسلوكها جميل ومُتشابه، باعتباره سلوك النوع البشري. وكل واحد منهم أيضاً، وبشكل غامض، يلتذ بسكنية الجبل والسهل، بسكنية الصمت، وعدم الحراك أمام منظر طبيعي خالد، عند قدم أسوار لا عمر لها، بين أشياء تتكلم بصمت عن اللانهاية الرتيب للزمن والأجيال التي تتشابه دوماً، وعن الموت حيث يتفكك كل شيء بسهولة ويصعدُ للأعلى غباراً بطيئاً تحت سماء تكون دوماً يافعة، وعن العودة المتكررة للربيع وللزهور في المراعي.

مررنا أمام ضريح ذي حيطان واطئة من الحجر. إنه طللٌ من أطلال القرون الماضية. وقرب تلك القبة البنية، توجد شجرة زيتون لا أوراق فيها سوى خرق وسخة علقها هناك زوار متعبون.

ثم ها هو «مغلّ الأموات»، وهو عبارة عن حوض كبير لصيق بالأسوار تدوّرت جنباًته من كثرة الاستعمال. هنا، ومنذ قرون لا يعرف أحد هنا عدّها، يؤتى بالأموات لنسلمهم قبل تكفينهم. وجثماناً بعد جثمان، نوات في هذا المغلّ أجيال أهل فاس، وسيمر بها بلا شك أولئك الذين أراهم هناك متكئين في وضعيتهم الفاترة، في هذه اللحظة، ويغفون من غير إغلاق أعينهم.

وفي اللحظة الذي ظهر لنا قوس باب السرّ، فإن هذا القبر العتيق، وهذا المغلّ الجنازي هي التفاصيل الوحيدة عند قدم الباب المعتم. كم هي متناغمة مع الحزن المخيم على هذا الشعب المرهق الذي يبدو وكأنه لا يحيا. موضوع الموت هو الذي يدقّ باب المدينة المقدسة، كي يتكرّر حوالها ويتشتر. والمرعى الرطيب يلفظ أنفاسه هنا. سرنا بمحاذاة أسوار مدينة السلطان كلها؛ وعند قدم تشنّات السور الجديدة التي تشتر أمام أعيننا، لا أرى غير الأحجار والغبار والعقم. والسور الحقيقي لمدينة فاس يصعدُ ويهبط ويضيع، ليستمر وحيداً في البعيد، بنياته وأبراجه المهترئة، عبر مستويات الجبر والأجواف والمنحدرات، وبين الانقراض والمقابر. يا له من مشهدٍ قاسٍ. إنه أكثر كآبة وأشدُّ قدما من نور الأصيل الذي لا يبدو أنه يأتي

من السماء وإنما يتدقق من العناصر الأرضية، ومن الأسوار والصخور، ومن العديد من الفضاءات التي تنتشر في المرتفعات. أثر الناس يغطي هذه المنحدرات، وأنا لا أعني الآثار الحاضرة (ليس ثمة من قاذورات، ولا أثر لنفايات الحياة المعاصرة واليومية)، وإنما أن هذه الأرض قد انهدت على ما يبدو. فعلى هذه الأرضية الصفراء المغبرة، ثمة طرق غير واضحة وعتيقة تقاطع في كل مكان، وفي كل مكان مظاهر الحريق، حتى في الربيع، بذلك اللون الموحش الذي هو لون السور العتيق أيضاً، ولون كل ما يستمر في الوجود منذ عصور سحيقة ولا يتشَبَّ من الداخل. إنها الكآبة الأكثر هدوءاً وإشعاعاً. وخارج تلك الأسوار حيث تنحس مائة ألف نسمة، فإن المساكن الإنسانية الوحيدة هي المقابر.

غير بعيد عنا، مع ذلك، عند أول منعطف في الجبل، يقطع الصخرَ خطٌّ باهرٌ ومستقيم للجير. إنه الشيء الوحيد هنا الذي قد يكون متمياً للماضي أو الحاضر، فهذا السور الصغير مكانٌ مقدسٌ، إنه مصلّى. في أيام الأعياد، يأتي السلطان هنا لتلقي بيعة شعبه. وفي المنظر الشاسع للسكنية والأطلال، فوق الأشياء الكثيرة التي تشرف على المنحدر، ينبثق شخصٌ صغيرٌ، ذو وقار لا ريب فيه، على السور الهائل في هيئة إمامٍ متوحدٍ وترتفع يده في حركة بُرارة.



توقّنا كي نشرب من هذه الأشياء التي كان معناها ينبثق منها في الأصل. وحين عاودنا المسير، كانت البادية خالية تماماً. لقد بدأ المتجولون والفرسان والقطعان الرجوع إلى المدينة كي يتكوّموا خلف الجدران، في مأمن من قطاع الطرق ومن كل ما هو مخيف في الليل. وفي اللحظة التي ولجنا فيها قوس «باب الساحة» وحين التفتُّ ورائي، لم أر في البعيد خلف خطّ تسنّات السور غير المدى المقفر حيث يرخي الليل سُدوله.

هنا نحن في فاس. في فاس لا في مدينة كالمدين الأخرى. ليس ثمة من بيت، فقط واجهات الحصون. واصطفاف ثقبها السوداء عبارة عن جيوب بحجم حذوة الحصان، وقيّها العميقة والمنعطفة، والأبراج العالية، والبعيدة منها، تلك التي لا نرى أساسها، عالية وهائلة كما الأجراف، جلييلة في شيخوختها، وملوّنة بذلك اللون الذهبي الغامق للحزاز الذي نخاله أثر الكل الشموس الغاربة التي تستنير جبهاتها بها. وأخيراً أراض خالية في أكثر منظر إقطاعي

حزنا وأنفةً في العالم. وأينما ولَّينا وجهنا، تبدو كل هذه الفضاءات مسوّرة. ونسيم المساء لم يتسلَّل لها بعد. تبعث حرارة غير متوقعة من شقوقها العمودية الحجرية؛ وغبار أشقر يطفو ويتشرب من روائح الحياة المغربية، ذلك أن أناسا كثيرين يملؤون هذه الساحات أو يحاذونها. وفي أولى تلك الساحات ما يشبه السوق بمحاذاة الأسوار. هنا تتمُّ المساومة في البضائع تحت الأفاريز؛ وعلى الأرض غير المستوية يجلس بدويّين كُوم العشب وحيرهم وجمالهم. وعبر هذا الزحام من الدواب، وجد عسكرنا صعوبة في أن يشقوا لنا الطريق، بالرغم من صراخهم المتكرر: «بالاك».

وفي الساحات الأخرى الشاسعة، حشدٌ من الناس جالسون القرفصاء، صفارا تحت سطوة الأسوار العالية، بحيث يمتزجون بها من فرط قاتمتهما ولونها الترابي. إنها تمتد في خطوط كبرى نخالها من بعيد منحدراتٍ من الغبار، والشكل الإنساني الذي تمنحه عباءاته القاتمة شكلا ضبابيا، ينتهي في المساء بالانمحاء في هذا الخليط العددي.



في أكثر هذه الباحات شساعة، يوجد المشور⁽¹⁾ الذي لا يزال يخدم أمجاد السلطان الخيالية؛ وتحت أسوار رائعة وقلاع مَرَّاصَة كان يُسمع عزف الموسيقى تتخلَّلها قرعات الطبلات البربرية الصاخبة. كانت تتوقَّف لتعاود نفسها بشكل بهلواني. بدا ذلك لعبا من غير جهد أو سبب، يتسلَّى به المتجولون، أصحاب الليل والأطلال الساكنة الذين جاؤوا هناك فقط للجلوس والتسلية بعض الوقت بآلات العود والدفوف. تماماً كما يتسلَّى آخرون بورود يستشقونها وينظرون لها، لأن الموسيقى أجمل في المساء، مثل الورود. خرج سرب جمال من تحت قوس واسع معتم، وعبر الساحة الكبيرة من محورها الأطول في موكب طويل، بالأبهة الوئيدة لأسطول يدخل المرسى، ثم انغمس في الطرف الآخر تحت خط من التسنُّات، بين قلاع هائلة في الفم الأسود لقوس آخر مواز للقوس الأول. مرَّ رجال مسلحون في مجموعات فبدوا صفارا أمام أسوار هذا الفضاء الهائل. وقد كنت رأيت في أمكنة أخرى كطنجة والعراش والقصر الكبير وفي أحواز فاس فرسانا بهذه الأبهة والجمال، وقوافل أطول وأكبر من الجمال، وسمعت موسيقى مغربية شبيهة. وهذه الصفوف البشرية المتكئة على

(1) قصر السلطان.

الأسوار كانت شبيهة بتلك التي رأيتها في القرى والمدن الأخرى. لكن وجود المآثر الهائلة يمنح لكل هذا الآن معنى وقيمة راعتين. كل هذا الذي لم أحسّ أمامه قبلاً سوى بغرائبية متنافرة، بدا لي الآن يرفل في وحدته العميقة القديمة والتاريخية. هذا الزحام الرمادي الفاتر بدا، بأسلوب هذا المعمار القديم الخفي نفسه، عبارةً عن هيكل عظمي لحياة بشرية انقرضت بغرناطة وطليلة. إنها الإنسية الإسلامية نفسها التي حملت بها البلاد المسيحية بكاملها، والتي انبثقت من إسبانيا الوثنية ودخلت فجأة فرنسا لتصعد حتى مدينة بواتي Poitiers. وحين اكتشفتُ هذا الحشد من الناس في مركزه الأصل، وفي إطار مآثره المورثة، قريباً من قصر سلطانه وقائده، أحسّت لأول مرة، منذ أن حطت قدماي بالمغرب، أنني أمام شعب: شعب حقيقي تطور بفعل نماء حضارته الخاصة، ووراء تاريخ شعب حق.

إنها قرون من تاريخ دائم التشابه، عدا الانحطاط التدريجي والجذب المتواتر للقوة والرغبة في الحياة. ففي هذه الباحة الشاسعة للـ «مشور» تدور مراسيم الأبهة والبذخ كما كانت في الأزمنة القديمة. والشخص المعاصر للمرينين، الذي يصير اليوم بالسلطان منطبقاً صهوة جواده، متشجاً بالأبيض ويتقدم خمس مائة برنس، يعبر هذه الباحات كي يتجه إلى الجبال لتلقي البيعة والطلق بالكلمات الشعائرية نفسها، هل يستطيع ذلك الشخص أن يدرك أن نصف ألفية قد مرَّ على عاتقه؟ لا شيء تغير إلا سلطة تلك الكلمات الشعائرية وعددُ القبائل المباشرة. وإذا كانت الانتصارات على المتمردين اليوم خيالية، فإن فيالق الجيش السلطاني تمرُّ في عودتها من تحت أقواس النصر الرائعة هذه. وعلى السطوح هناك دوماً القطعان المتزاحمة للنساء اللواتي يصفقن لمرورها ويطلقن الزغاريد الرقيقة المرتعشة نفسها. هم لم يعودوا اليوم ييرون وراءهم الغنائم والسبايا من الصبيان والصبايا للحريم. وإنما هم يحملون في قفف مليئة ما يعرفه الناس من حصاد الرؤوس المقطوعة التي ستعلقُ بشرفات «باب المحروق». كما لا زال يباع العبيد مرتين في الأسبوع في السوق الكبير. والحقيقة أن العصور الوسطى غدت خالدة هنا، وحين نقرأ على باب يكون حديثاً تاريخ 1321، المكتوب بالأرقام العربية التي أصبحت أرقاماً الحديثة، ننسى أن هذا التاريخ يحيل إلى التاريخ الهجري؛ فينتهي الوهم: إنه، ويا للمعجزة، تاريخ سنة من عصرنا لم تمرَّ من هنا أبداً، وفي فاس هذه التي نلج الآن، فإن القرن الرابع عشر الحالك بدأ منذ فترة فقط.

هل سأستطيع يوماً أن أحفظ الطريق عبر هذه المتاهة المأسورة التي تتبع هذا «المشور»؟ كيف لي أن أعثر على هذه الأبواب العالية المقوّسة وأتعرف عليها خلف الحامية؟ كم هم جيلون هؤلاء الفرسان حين ينغمسون في ليل قبة عربية من غير أن يتزاحموا في صفهم! ويا له من إطار للفرسان العرب هو هذا القوس الإسلامي في مدخل تلك القبة! إن منظره ينقطع بشساعة على الظل الداخلي، وبساطته القوية تعلوها في الأساس منحنيات حادة، كما لو كانت جوقة أبواق وطبول توقّع هناك بدقة ألحانها وإيقاعاتها. وحول ذلك، زخارف إكليلية على الحجر تطلق أشعة هادئة، وفيفساء زرقاء ولازوردية تلمع في شكل نصف نجمة، وتشابكات هندسية تغني موسيقاها الثورية. لكن فوق هذا الجمال الأسر ثمة قعم الحصون الإقطاعية الصارمة التي تهدّد السماء برؤوسها المنتصبة. إنه تباين غريب يترجم الروح المزوجة للأجداد، الذين كانوا فاتحين بحذ السيف وشعراء فطاحل في الآن نفسه.

نحن متأكدون أن هذه الأقواس قد شيدت لشعب من المحاربين الفرسان. فعلوها لم يُقس على قامة المشاة، وإنما على هذه الكوكبة من الفرسان أمامنا، يرانهم المنسدة، وبنادهم الموازية المتأرجحة على أكتافهم بحيث تتأطر داخلها بشكل رائع. وتحت القوس المعتم لكل قبو، تنزل حذوات الجياد على الحصى لتخلف رنباً كاسراً.

دائماً صفوف الفتحاح المتظمة في الأسوار ترتفع منها حصون مستطيلة كبيرة على مسافات متساوية كما لتحكم في تلك القوّهات. الحديثة البناء منها توجد قرب العتيقة، لكن على نمط واحد. نعم، إنها المخلوق نفسه الذي تتوالى حياته القديمة هناك، والبنية نفسها وما تأخذه من مواد لتعيد تركيبها وتنظيمها من جديد بإيقاعاتها الخاصة. كانت الأبراج والأسوار، سواء حديثة أو متهاكة وآيلة للسقوط، مبنية من الطين نفسه. فهي عبارة عن فرشاة من الحصى بين صفوف من الأجر تتناوب بشكل مائل، تماماً كما في غرناطة، مع الصفوف نفسها من القوب الصغيرة التي لا يعرف أحد في إسبانيا علّتها ومرماها، والتي علمت هنا مصدرها ووظيفتها، وأنا أتمنى اليوم في البنائين العرب يشتغلون كما كانوا يشتغلون في الماضي، صانعين الرؤوس المستنة نفسها للمنافذ التي تنبثق من كل مكان، مذكرة إيانا بالجيوش الإسلامية العريقة، والغابة النظامية للجِراب التي تشهرها فيالق الجيش فوق الأسوار.

ثم وصلنا عمراً ضيقاً من غير نهاية، بين منحدر وإحدى البوابات العسكرية التي لم أستطع التكهن بها يوجد وراءها. ثمة سور هائل يحُدُّ هذا الممر، وهو من العتاقة بحيث إن قمته كانت نصف خراب وتنثني كما قطعة من تَلٍّ نحو السهل. وثمة باب يخترقه، يبدو صغيراً، خلا من كل التزويق التي كانت تزينه، فلم يعد وقتها سوى ثقب قبيح في شق جرف.

وحينها انفتحت أمامنا فضاءات شاسعة خربة وكنية بحيث اعتقدت أنني أرى المنطقة الخارجية للمقبرة، وأنا خارج من فاس من غير أن أكتشف أثر البيوت الحقيقية وبسيطة بين هذه الأنقاض التي تنتمي لزمان آخر. كان ذلك أرضية عتيقة ومن دون خضرة، وأراضي خلاء تنشر فيها القبور، حيث ترتع الضباع؛ وكل ذلك هارب في البعيد في اختلاط شاحب نحو المنحدرات الصفراء والثالفة أيضاً.

وفي انفصال عن هذه العزلة بجرف بسيط، ثمة أناس ينسو المظهر يتهددون على ما يشبه الساحة ويستعدون لليل. سرنا بين المخيمات، والدوائر المتمدة للجبال، والأكواخ والدوائر الحقيقية المتكئة على الأسوار الهائلة اللانهائية. فمئذ دخلنا إلى فاس، قطعنا ما ينيف عن الكيلومتر، ولا شيء بعد يشبه المدينة.



ها هو أخيراً رواق مزين بالفسيساء النادرة؛ فبعد العديد من الأراضي الخلاء والمعمار الثقيل ها نحن أمام الأزقة المعتمة والمزدحمة لفاس الحقيقية، فاس البالي، أي القديم والبدائي، تلك المدينة التي شيدَها مولاي إدريس في وقت الكارولنجيين لدينا. وخلفنا تداخل للقصور والممرات المقوّسة والحصون بين الفضاءات الخلاء التي خرجنا لتوّنا منها. إنه فاس الجديد، المبني حديثاً، في القرن الرابع عشر، المعاصر لحرب المائة سنة لدينا. وهو يتصل بفاس البالي بالساحة والممر الطويل الذي أذهلنا قبل وقت. وقد وقفنا فيه على السكان نصف البدو الذين كانوا مخبئين في الساحات، أو متساكنين مع القبائل العسكرية للكيش في أحياء وضيقة تتلاصق أكوأخها كما تلتصق أعشاش الخطاطيف بالأسوار العالية. إنها مدينة أهل فاس الأفحاح، والمتاهة العميقة حيث تتراعى الأضرحة ذات الأثر القوي، وحيث يتابع الشعب المغربي حياته في شحوب نهار الأقباء الذي يسود في هذه الأزقة، الحياة نفسها التي

عشت أيام المرابطين^(١)، غير أنها حياة أكثر تركيزاً على نفسها، وأكثر بعداً، وأكثر عزلة من القرون المجيدة حيث كان المغرب وإسبانيا يشكلون إمبراطورية واحدة.

عندها تناثر فريقنا ليغدو صفاً طويلاً، وانغمسنا في السوق الواحد تلو الآخر، حيث الظل البخاري يتركز مع روائح الحوانيت في سقف مصنع من الضفائر. وفي تلك الأزقة حشرٌ من الناس ينبثق منه راكبين على فرساننا، ويتزاحم كي يتركنا نمرّ. وعلى يميننا وشمالنا، من تحت البرانس، تلمع بأنماطها المئات من النظرات لا توحى بالنباهة.

كان التجار داخل حوانيتهم الصغيرة الضيقة، فوق الزحام، يحدقون فينا في صمت. والذين منهم يهيمون بتناول شيء ما توقف حركتهم. وبمقدار ما تتقدّم في مسيرنا، تحدّق فينا كل هذه العيون من تحت، بحركة عدوانية من الحديقة وحدها، من غير أن يُرفع أي وجه منكس نحونا.

وأحياناً يظهر إفريز مسجد ويطفو بأعمدته وبزخارف خشبه المفتت التي فقدت ألوانها، كي يقطع صفوف هذه الصناديق التي تجلس فيها هذه الشخصيات القرفصاء. وبسرعة، بين دفتي باب المسجد الحديديتين بلونهما الأخضر المشوب بالرمادي، تبصر بالأعمدة البيضاء والمتبر والفوانيس المشتعلة حول نافورة ماء، وبأشخاص منحنيين للوضوء، فيما يسجد آخرون ويمسكون بجباههم الأرضية الرخامية أو الزرابي.

هل أنا في مغرب الإسلام الأقصى على بعد خمسة أو ستة فراسخ من دمشق أو البندقية؟ إنني أجد أجزاء منها هنا، خاصة في المنعطفات التي تستير بنهار أخضر تحت طبقة من الأوراق. هنا تسود التينة الشائخة الموجودة في البازارات التركية والشورية، باعتبارها رفيقة الناس الذين يتزاحمون في هذا الظل المخلق منذ قرون. إنها عبقرية الأمكنة الأليفة لدى الصبيان الذين يلعبون حولها، كما لدى الأجداد من قبلهم. وأمام سموق هذه التينة العتيقة، ينتح سقف الضفائر، ومن هناك وإلى هذا التفق المليء منذ زمان بالعفونة، يدخل الهواء النقي وبعض النور. يا له من وضوح ضبابي في هذا الوقت المتقدّم من المساء، غير أنه

(١) المرابطون هم الأمرة التي حكمت المغرب والأندلس بين ١٠٤٢ و ١١٤٧م. وهم قبائل بربرية تنحدر من الصحراء. عرف المغرب في عهدهم توسع حدوده شرقاً إلى الجزائر وجنوباً إلى غانا. عضدوا الحكم العربي بالأندلس بعد انتصار يوسف بن تاشفين على ألفونسو السادس في معركة الزلاقة (١٠٨٦م)

مضْمَخ بالزمرّد وبها فتحة الربيع في الأوراق الرطبة المتشرة هنا. وعند قدم الشجرة المتنفخ، على الحصة المساء المحيطة بها، يتحلّق المدخنون حول كؤوسهم. وهي كؤوس شاي لا كؤوس قهوة. ولا أرى أي فرق بينهم وبين زُبناء المقاهي الثورية.

ها هي دمشق مرة أخرى، بهذا الحى الخالي حيث قطعنا بعد ذلك تلك الأزقة الشاحبة والباردة بين حيطان من الطين. وخلف تلك الحيطان توجد في الخفاء حدائق أعلى من مستوى الزقاق تكون سببا في هذه الرطوبة التي تشبه حفرة القبر. هنا تصبح الخطوات والأصوات بهيمة. ومن بعيد تظهر امرأة، عبارة عن كومة مغلّفة تماماً بالصوف، فتلتصق بالحائط لتترك لنا الممر، ثم تدير رأسها شيئاً ما. يرتفع ساعدها ويحجب بشيء الشئ الأسود الذي تلمع فيه عيناها، فلا يظهر شيء مطلقاً من هذا الشكل الأدمي. لا شيء هنا جنب الجير البارد، وبشحوب يشبه شحوب الجير، إلا رزمة عجبية ذات طابع جنائزي غامض....

وفي قمة السور، خلال الحضرة الناعمة للمساء، تبرز أوراق شجرة برتقال مليئة بالأزهار يتدفق عطرها أمواجاً وفي هذه الحدائق المعلقة، عندما يغيب كل شيء في الغسق، يبدأ البلبل نشيده. إنه طائر الأصيل الربيعي البلوري. لقد كان يغرد أيضاً في البساتين المعلقة، حين دخلت لأول مرة إلى دمشق منذ عشر سنوات.

ولإنهاء الوهم، بلقنا صخب المياه الجارية متصاعداً قوياً ورجراجاً، وهو ما عشناه حول دمشق. تسلّقنا جسراً مقوّساً كظهر حمار، فأبصرت بزبدتها الثلجي، كان يتسارع في قناة من الحجر، ليختفي خلف بناية مطحنة عربية بدائية.

وها نحن نصل إلى «عقبة الفران» وهي زقاق مسدود تقطن فيه البعثة الفرنسية بشكل لائق. وفي وسط ساحة قد تكون ساحة مأوى إسباني، وسط البغال والجياد التي تصلح حذواتها، ترجلنا عن مطايانا. ظهر خدمٌ أدهشنا وجودهم في هذا المكان الخالي من كل بذخ وعظمة، بلباسهم الراقي وسحنة الأمراء التي تبدو عليهم. قاموا بالسلام علينا وقبّلوا أيديهم⁽¹⁾ وساروا أمامنا بشكل مفخّم حاملين الفوانيس، عبر سلم ثم ممراً. وفجأة قام صف من الجنود، ببدايتهم الخضراء وأقدامهم العارية المحتذية النعال، وقدموا لنا التحية

(1) كان السلام يتضمن فيما مضى تقبيل المسلّتين ليدبها. ونحن لا نزال نرى أثر هذه العادة بالبوادي المغربية.

العسكرية. كانوا أشبه بفرقة من القروء تؤدي تمرينا في سرك.

وها هو الجمال المرعي لدار مغربية أندلسية كبيرة يفتح أمامنا. ثمة أقواس عالية حول فضاء مرّيع فسيح، وفي الوسط نافورة ينبع منها الماء. وخلف الأعمدة تظهر أبواب كبرى من الصنوبر حيث تقاطع التواريخ العربية القديمة بمثلثاتها. غير أنها أبواب موصدة؛ ومن وراء إطار قوس مزدوج تبدو الحدائق؟ حدائق محاطة بأسوار ومسيجة بالأعمدة. إنها حدائق عربية حقة، وأعمدتها مغلقة بالفسيفساء المربع، بين كثافة أشجار البرتقال. وطوال الممرات، تلمع الفوانيس المثبتة في الأرض كما لو كانت مخصصة لحفل، بحيث تلمع معها الخضرة الغامقة المبرّقة. وتحتها فوانيس أخرى تحجبها جزئيا الأوراق، تمنح إيقاعا للأرض كما لو كانت دوداً بزاقا راميا بنوره وبشكل ضبابي على أسفل خيمة بابها مفتوحة. وفي الفضاء الهادئ للأقواس، على الممرات الضيقة المزينة بالزليج تتهاوى أشباح رائعة ذات عباءات رومانية خارجة لتوها من ألف ليلة وليلة. ويصل سمعي خرير الماء الجاري، بحيث أتكهّن ببريقه الشاحب الذي يخترق عتمة الرياض⁽¹⁾...

أما أزهار أشجار البرتقال، فهي هنا سيّدة الحضور. أصبح المكان معتما الآن. ولا نجمة من نجومها الخالصة تظهر للعين، غير أن رائحة عذبة وعطرة تطفو في الليل، محبوسة هي أيضاً بين الحيطان. بالكاد أحسست بالرياح في مدينة القصر الكبير، وفي الأودية والمنبسطات التي تنبت فيها شجرة، والتي عبرتها لمدة ثمانية أيام. إنه ربيع لا يدرك إلا في المراعي ذات الزرابي الذهبية والوردية بلا روائح. لكن في قلب هذه المدينة المغلقة بأكثر من حصن، وفي هذه الحدائق المسيجة بالأسوار حيث يوجد أكثر من مواطن الحريم، عرف العرب الشّهوانيون كيف يخفون أنفسهم ويركّزوا كل هذه اللذات.

(1) الرياض يطلق بالمغرب على الدور التقليدية الفاخرة التي تحتوي على حديقة وفناء به نافورة.

في ظل مدينة فاس

- ٦ -

18 أبريل/ نيسان. استطعت بالصدفة أن آوي نفسي في غرفة لم تخلُ إلا منذ يومين. وقد هتأي صحبي على ذلك، إذ كان علي، فيما يبدو، أن أتوقع لنفسي التخيم في الرياض في إحدى تلك المربعات المقررة التي تنبثق منها أشجار البرتقال، بين الشرائط المستطيلة للفسيفساء. وكنت سأحس بالفرحة أن أستطيع مرة أخرى أن أدق أوتاد خيمتي هناك. ليس هناك في فاس من فنادق ولو عربية. والرحالة الأوروبي، إذا لم يستصفه أصدقاؤه، ليس له من بديل غير التخيم في ساحة القوافل، بين البدو والبهلوانات والزنوج والأولياء والجمال والبعوض، على طرف الأراضي الخلاء الرائعة الهاربة تحت الشاشات المسننة السوداء.

لم تكن غرفتي بعيدة عن البعثة الفرنسية في زقاق «عقة الفران»، أي في الزقاق نفسه المليء بالحصى، في الطابق الأول لدار عتيقة مغربية طبعاً. وليس هناك غيرها بفاس، حتى دار القنصل الذي منحني ضيافته.

وللوصول إليها، على المرء، كما في جميع الدور المغربية، المرور من تحت قبة تكون ليلاً مأوى للحراس ذوي اللّحي الوقورة، الذي يسيطون هناك حصبرهم، وتكون في النهار مكاناً «لأناس المقعد»، من زبائن، وأصحاب الطلبات، والمرشّحين للحماية الفرنسية، الذين يبتغون أولاً حماية بوابي القنصلية وخدمها. وبعضهم يسرون بعيداً بحماسهم، بحيث نرى رجالاً من عليّة القوم، بحايكهم الرفيع الأبيض الناصع يتبع بفخر في الشارع كلب القنصل، كي يوهم الناس أنه من معارف دار القنصل وأن يد فرنسا قد امتدت إليه. وهذا لا يعني أنهم يحبوننا، ولكن أنهم يملكون بالانفلات من «المقدّم»^(١) الذي يبتزّ منهم تحت التهديد بالسجن «الدورويات» الحسنية، تلك الدورويات القضيّة الكبيرة التي تنبعث منها رائحة النحاس.

(١) مر مغل السلطة في الأحياء والقرى.

من هناك يتجول أيضاً رجال قافلتا. على محياهم علامات التعب والإنهاك. كانت عيون الجبلاي الرائع خافية، لا ينبعث منها أثر للضحك. كانوا كلهم يقضون اليوم في النوم قرب الباب، أو تحت أشجار البرتقال في الرياض. لا شك أن فاس، مدينة الم لذات، لا تعني شيئاً لهؤلاء العرب. فهم يملكون الكثير من المال. الجبلاي تسلّم العربون، وساسة البغال باعوا الطيور الصغيرة المغردة التي رافقتنا في الرحلة بثمانية وعشرة «دورو» للطائر الواحد. لم يتردّد الهادي خادمي في أن يستلف مني بعض «البيطات». وعند السادسة صباحاً هرع إلى سوق الصائغين وسامو في أحد الحوانيت بضاعة هامة: ثلاث أحزمة منسوجة بخيوط الذهب لعائلته في طنجة. فهو متزوج بامرأتين «الصغيرة والعجوز» (ولا هدية للعجوز) وله ولدان: «ياسيدي، ولد وبنت، صغيرة، صغيرة...»

وبعد أن سلمت على كل هاته الشخصيات، وصلت إلى مأواي عبر سلم حلزوني، أسود ومليء بالأسرار. وغالباً حين أصعده أسمع فوق رأسي عدواً سريعاً، وأبواباً ضخمة تُغلق بصوت مدوّ، وصرير متاريس. في الطابق القوي يبدو أن هناك البيت الشخصي لأحد الساسة، وفي السلم المشترك تكاد نساؤه في كل لحظة تصادفنا. وغداة وصولي، أخطأت باب غرفتي وفتحت غرفتي: يا له من موقفٍ محرج، فقد رفعت امرأة عجوز يديها وارتمت على العتبة. وبعد برهة أبصرت بصييتين، وبفستان من الحرير الأصفر هارب من أمامي، وبحركة يدين متشنّجتين تغطيان وجهها.

في غرفتي الواسعة تعمّ عتمة ذات طابع ديني، لأن النور يدخل هناك مغربلاً بالوان قانية وكستانية نابعة من النافذة الزجاجية الملوّنة. عمودان هائلان أبيضان تحاكما عمودي مسجد يسندان العارضات. لا أثر لمكتبة أو أثاثٍ يعكّر صفو البساطة الصارخة التي تسود المكان. ثمة فقط زربية كبيرة، و«أريكة» واطنة كبيرة تغمر أوصافها المتعددة الألوان الجنبات الثلاث للغرفة، وعليه حتى ثلثي الحائط زربيةً مغربيةً رقيقةً تكرر بتناوب الأصفر على الأحمر والأحمر على الأصفر، ثم حذوة الفرس التي توضع في كل البيوت المغربية درءاً للعين. وفي فرجة عميقة قوس النافذة الزجاجية، وفي الأعلى تحت خشبة السقف، صف من الكوّات لا يدخل منها أي شعاع شمس، وإنما فقط نور خافت باهت، يسيل برطوبة الماء ببطء على بياض الحائط. كل هذا يجعل من الغرفة خلوةً آمنةً مغربيةً جميلةً. الظل فيها وافر وعذب.

إنه عبارة عن شفاقة متوازنة، هي نفسها لا تتغير من الصباح إلى المساء، مثلها مثل الحرارة التي لا تتزايد إلا قليلاً في الوقت الذي تطفو فيه الشمس بغوران نورها على المدينة الرمادية الفاقدة لألوانها. في هذا النور الخافت الذي لا يتغير، يكون بياض الأعمدة والحيطان ناعماً وسماوياً؛ إنه عبارة عن ظل ناصع غير محسوس. وعلى هذا البياض الفارغ، تزهو الألوان الأولية الباذخة للزرايا؛ ويكون بريقها العميق أشبه بريق الجواهر المخفية. إنه ديكور صارم يعبر عن ثراء تجريدي، فليس ثمة من صورة للعالم تأتي لتمتزج به كي تفتن النفس. وفي قلب هذا البذخ الذي تشع به الألوان الخالصة التي تفتي بحرارة وتناغم في الظل، يظل الفكر في عطالة سهلة، من غير أن يأتي جهداً، بحيث تتبع العين تناوب الألوان الحمراء والصفراء لتلك الأقواس المتكررة التي ليست سوى إيقاع وموسيقى على الحيطان. تركت نفسي تتشرب بهذه التأثيرات؛ إنها تخدرني كما دخان الحشيش. فهؤلاء المغاربة يتعلمون في دورهم لذة السكوت عن الكلام المباح، وأمام برّاد الشاي والكؤوس، يتحولون إلى أشياء.

لكن لا أدري ما الذي يوجد في هذه الغرفة ويجعلها أشدّ غربة بحيث يتحلّل فيها واقعي العادي: إنه ليس فقط عطر خشب الأرز والصندل الذي تعبق به كل الدور المغربية، وإنما ربما أيضاً أثر بخور يأتيني مبهماً ويصعب عليّ تحديد منبعه، وذكرى بخور الألوة وصمغ جاوة. إنها ما يشبه روح المكان، روحها الخالدة التي لن تكفّ عن التبخر.

فتحتُ النافذة الزجاجية فوجدتها محروقة من الخارج. أدركت مصدر الرائحة الدفينة التي تعبق هنا. ربما كانت هذه الغرفة الكبيرة بيتاً للنساء؛ فهذه النافذة صنعت كي تستطيع امرأة مستلقية على الزريبة، ومن دون جهد، أن تضع يدها على المسند الحجري، وإدارة الرأس نحو أوراق الرياض، والتمتّع في راحة كاملة بالرطوبة الدائمة. ففي هذه الحلوات المعتمة، التي لا يصلها أي صوت، تكون النساء حبيسات الغرفة في أحسن حال، خاصة في أيام الحرارة المفرطة، للتمتّد على كنبات واطنة، والاكتماء بخضاب أنفسهن بالحناء، والتعطّر واللعب بالمشط والمرايا. ذراعان بضآن يرتفعان، واستنادٌ كسول على العمود، ويريّق المجوهرات، والنارُ المترافقة للثام والقفاطين، كم سيكون ذلك رائعا على خلفية الظلال البيضاء هذه، في الضوء الخافت العجيب الذي ينتزل من كُوات الحائط ليردّ وهو يتزلق على سرير الجبر من غير أن يترجّج أو يتغير! وما يتبقى من ذلك هو هذا العطر الخفيف الأبدي، وجاذبية فاتنة،

لا أدريها، للطمانينة والأمان العربي.

عند وقت القيلولة، وجهت نظري نحو منزله الحديقة الداخلي الجميل من خلال نقوش الحاجز. قبلها يوجد فناء أبيض تصمد منه شجرتا برتقال محمّلتان بشمرانها الذهبية؛ وجذعاهما يفرجان من دائرتين فارغتين في الأرضية. وفي الوسط، حنفية واسعة من المرمر يتصادى فيها خرير الماء الذي يفيض أبداً. هذا الفناء وهذه الحنفية، وتلك الأشجار النادرة المحبوسة في المرمر، وظلالها التي تنقطع بدقة جامدة، ذلكم هو الجمال العربي الخالص. إنه جمالٌ اتخذ للنور والماء والحضرة، ذو إيقاع دقيق، وتناظم صارم، نذوقه على الطريقة العربية بارتشاف بطيء، كما الألوان والروائح التي تنطلق من باقة، وكما زلال بارد، من غير أن نتحرك، وبإغماضة نصفية للعين.

وفي ما وراء هذا المنزه، هناك المستطيل الأخضر المزّين بالفوانيس في عمق الرياض. كانت كثافته الرطبة من الاندماج بحيث صار نظري، من هذه النافذة التي أطل منها، يضيئ فيها من غير أن يستطيع اختراقها. هناك في التّحت تسود عتمة خضراء، وما يشبه ليلاً رطباً تسوده خضرة النباتات، متشربّ بالحدّر شيئاً ما، بحيث لا أرى من الرياض سوى المدخل تحت شجرات البرتقال الأولى في جانب الساحة البيضاء. شرائط يعلوها الرخام، تمتد من رخام هذا المنزه لتفصل بين الأمكنة المقمرة التي تغرس الأشجار جذوعها في ترابها. وبالرغم من أن هذا الرياض لا يظهر عياناً إلا لساكنة الدار، فإن هذه الممرات أكثر سرّية تحت ذلك السقف من الأوراق المحنطة. يمكن للنساء أن تحتلين فيه، اتقاء لحر الشمس. إنه حريم ودبر راهبات؛ ففيه ينعم بالأمن والطمانينة، وبالسكون والرطوبة الأخاذة. وثمة سواقي من ماء ذي زبد يشبه الثلج الذائب لا تكف عن ريّ الأرض الكالحة في الأمكنة التي تبت فيها أشجار البرتقال.

كان ذلك هو العطر الذي يتسرّب إلي من النافذة، في الليلة الأولى التي قضيتها في هذه الغرفة. حبّثُ دهشتي حين رأيت الرياض، فغطاؤه الكثيف لم يكن غير نسج من الأوراق الفاتحة الصلبة وزهور بيضاء نجمية، وأوراق شجرة الليمون والبرتقال، ذات المنحنى الذي يشبه رأس رمح. وفي نكهته المرّة تتركّز طاقة الأرض والشمس. يا له من أريج فائض ورخو

ينبعث من هذه الزهور ويمتزج بها، كما يمتزج الحُمول العربي بصَبَوات الشوق العربي! من هذه النجوم الناعمة، ومن بياض لونها تنبعث الآثار العطرة لهذا لعالم الإسلامي، التي تهبُّ وتنهك. إن الأوروبي الذي زرعت فيه عشرون قرناً من المسيحية نوعاً من الزُّهد، يمنع نفسه من هذه التأثيرات، كما أترك أنا هذه العطور والزوانح، غير أن الروح العربية تنصاع لها من غير خرج. في أمكنة مغلقة وبيضاء تشبه الكنائس الصغيرة، تنصاع هذه النفس لكل أنواع الشُّبُّب التي يبيعها الدِّين. وهكذا فإن النساء العربيات لا يخشين أن يحملن في أجسادهن هذه الزهور التي لا نستطيع نحن استنشاقها طويلاً، وذلك في شكل إكليل...

لكن إرادة الربيع اليافع تضفُّ في هذه التموجات المحنطة. فعلى الخضرة الدائمة، تتعلق تَؤجيجات المِشمِش الوردية في شكل أسراب، وخلال اليوم بكامله يُسمع صفير الشَّحارير الضخمة التي يلعب سوادها كما الخضرة المعدنية للرياض. هذه الطيور تتعارك وتطرد الواحدة منها بشراسة الأخرى بضربات من المقار، عبر آلاف الفواكه الناضجة، في كثافة أوراق شجر أكثر نكهة ولعناً من أوراق الدُّفلى.

وأبعد من ذلك، نحو السور، ومن فوق السطوح المطلية بالجير، يصعد ستار ناصع من أشجار الصَّفصاف. كم هي خفيفة وهوائية خُضرتها التي لم تكتمل بعد، فوق النباتات التي لا تتغير! وكم نحس أن كل ذلك يجيا ويتنامى، وأنه لا يظهر إلا ليختفي في اللحظة نفسها! إنها شرارة خضراء أشعلت هناك من الباردة، وهي مادة روحانية تماماً وتشبه الشبَّع، وتذكرني بلحن لشومان عذب رقيق يسمى: «الأخضر الأول...». سرُّ ربيع الشمالِ القلبيِّ والتريُّع يوجد كله في هذا الصَّفصاف، الذي يحركه في المساء نسيم عليل، بحيث يهتز مُنسباً من فوق إلى تحت كما مياه جبلية على الحصى الناصع...

قرب هذه الحياة الهاربة يظهر جزء داكن من فاس العتيقة. إنه عبارة عن خليط من السطوح الجامدة، كما تراصف من شواهد القبور. ومن هذا الشحوب الترابي تنبعث كآبة يصعب الإفصاح عنها. ها هي المدينة الحزينة تمتد حتى جنبات الهضبة التي تبدو من هنا مليئة بالصخور، لكن الصخور التي تنتشر فيها هي، كما أعلم ذلك جيداً، قبور حقيقية قديمة. أميز هناك بعض الأضرحة المتهالكة، وقبب أولياء وعلماء كانوا مشهورين فيما مضى في جوامع

اشبيلية وقرطبة. كل ما يعود للعصور الوسطى أصبح خرباً، بلون الرماد والحجر المحروق، كما لو أن ناراً عاتية أتت على كل شيء هناك.

من الخلف هنالك البوادي القسيحة. وفي البدء منطقة من البساتين الرطبية، ثم تنحدر الأرض فجأة في انخفاض غريب وواضح ومعدني، حيث يلمع منعرج من منحرجات نهر سبو (الجارى في أراضٍ موحشة لا سبيل لها). وأبعد من ذلك، ثمة جبال من الصخر الأجرد، يخفف من عرائنها سحر المساء، بحيث تبدو كما لو أنها تحزرت من ماديتها، من فرط ملوستها وشفافيتها. إنها أشبه بجليد أزرق كما ذلك الذي كان الفنان ليوناردو دافنتشي يزرعه بشكل غريب في خلفية مناظره الطبيعية.

أما أسفل الساء في الغرب فهو ذو لون وردي أصبح بارداً، في اللحظة التي يعلن فيها المدفع من جهة فاس الجديد عن موعد صلاة المغرب، وتبدو الشمس وقد غربت في الأفق. ثم إن راية بيضاء ترفع في أعلى الصومعة الوحيدة المجاورة لباب الفتوح. إنها صومعة جامع الأندلس، المغلف تماماً بالجير البدائي، وهو أقدم مسجد في المدينة⁽¹⁾ بحيث يعود بناؤه إلى القرن التاسع الميلادي، في عهد الأدارسة. وبعدها تماماً تبدأ الإشارة بالفانوس نفسه ترفع في الوقت نفسه على الصوامع القرية. ورأيت المؤذن يخرج من جحره ويبدأ يدور رويداً حول الصومعة. وحينها، تعالت من هذه الصومعة، كما من صوامع أخرى مخفية، أصوات أذان جمهورية، لتتوالى وتتردد فوق سماء فاس، بأعلى ما يمكن من المدى، بحيث إن المؤذن يرفع رأسه ويضع على جنب فمه يده كي يبلغ صوته آذان السامعين، مردداً بين الفينة والأخرى: الله أكبر، الله أكبر.

ها هي المدينة العتيقة تطلق مرة أخرى شهادتها: الله أكبر، تحت سماء وردية وباردة هذا المساء، كما في كل المساءات منذ اثني عشر قرناً. المدينة العتيقة العصبية حيث لا يزال الماضي البعيد حياً، والتي لا تعرف عن تطورات البشرية شيئاً. الله أكبر. ببساطة، دائماً، في العزلة وأطلال اليوم، كما في زمن إمبراطورية الشباب السعيد.

وهذه الصرخات ذات النبرة الغريبة، التي تتقاطع لتتواصل، وتتمزج في نشاز ذي تلاوين

(1) الحقيقة أن أقدم مسجد في المدينة هو جامع القرويين.

متعددة. إنه الأمر الذي ينشئ خلال بضعة دقائق جوقة بدائية تغلف المدينة الكابية وتثير القشعريرة في الجسم، كما جوقة الثعالب الخفية في صولتها الفجائية عند هبوط الليل. ثم يعم سكون الموت، بحيث نرى الراية البيضاء للجامع الأندلس وقد اختفت. فتنكس الرايات الأخرى بدورها، ثم لا شيء، لا دخان يتحرك على سطح مدينة فاس.

19 أبريل/ نيسان. في الأيام الأولى عبرت المدينة في كل الاتجاهات؛ فانغمست في الأسواق المغلقة والضبابية التي تندافع فيها جمهرة بيضاء، في صف من النقط المتراخمة كما النمل في قرية. وتمت في أزقة شبه مغلقة من فوق، كالحة السواد وعميقة وميتة، بحيث نخالها محفورة تحت الأرض، ونسير فيها في مدينة غطتها القرون، تحت مستويات يتحرك فوقها الأحياء اليوم. قمت بدورة حول فاس بكاملها، عبر البساتين والجداول والصخور. لكن الحدائق والقبور والحوائث المترصة والحُفَر الخالية، أشياء كنت قد عرفتها؛ فقد أسرّت لي بروحها في كل المدن الإسلامية العتيقة المشهورة.

أما الشيء الذي لاشيه له، وما يستدعيني ويملك مني النفس يومًا عند غروب الشمس، فهو الفضاء الخارق الذي منه دخلتُ إلى مدينة فاس، أي متواليّة تلك المساحات الشاسعة المحصنة، والأطلال التي تنبثق وتهدّد المارّة، وتلك التعرجات من الممرات والأبواب بين أراضي المعسكرات والاستعراضات، التي عبرناها بسرعة في اليوم الأول لوصولنا. كل مساء أعود إليها كي أعيش الدهشة كل مرة بشكل متزايد. وأنا أرغب من ذلك أن أتعلّم التعرف على أمكنتها، فهي تظلّ مبهمّة وشاسعة وغير محدّدة. وعند عودتي إلى غرفتي، إذا ما أغلقت عيني فإنني أعيش هلوسة من تينات الأسوار و منافذها، وأسوار لا تنتهي تحاصر الفضاء من جميع الجهات، تملّك الأبصار، وخطوطها اللامتناهية المليئة بالأوتاد، كما لو كانت أمشاطا هائلة تسمّ بالسواد اللونَ الحديديّ لسماء الأصيل. ثم إن الصورة تتوضّع بفتة فأرى باحات فيسحة، كل واحدة مختلفة عن الأخرى بناسها وأسوارها وقلعها المتميزة. إنها تنويعات غير متوقعة على نمط مأساوي وخرافي. أستعيد صورة أبواب النصر المقوسة، بحواجزها وأبراجها ذات العين الوحيدة الآتية من زمن آخر، ومستطيلات المتعالية والمتداخلة، حيث يرسم تحت تشابك رقبتي من الفسيفساء القومُ الشبيه بحذوة الحصان في بهائه وسواده؛ وهو كامل السواد لأن الأمر يتعلق بقية تعطف مرتين في عمق السور. إنها قبة عالية كما قبة كنية، ومخرجها غير بادٍ للعيان. وأستعيد صورة دفني الباب العظيمتين

اللتين يعود خشبهما المزركش بالبرونز إلى عصر المرينيين⁽¹⁾، وفي العتمة الداخلية، تحت تقاطع الأفواس العالية، تراكبُ الأجر المتقاطع والحجر، حيث منذ ست مائة سنة، بنام العسكر، والقضاة يقيمون محاكمهم مقرّفين في ثيابهم الصوفية البيضاء في مصطبة محاطة بالمتشاكين المقرّفين بدورهم.

لكن ما أستعيده بالأخص هو هذه البشرية ذات المظهر الأبدى، المتناغمة مع المآثر، المتدثرة في عباءاتها بحيث تبدو غامضة، وحيث تفقدُ كل شخصية طابعها الفردي واللحظي لتصبح عمومية، كما هي هذه الأسوار بين يدي القرون المتلاحقة، لتغدو معاصرة لها. أستعيد الفقراء المعدمين والمسولين الذين، وهم في أسماهم، يحسون أنهم في كامل دورهم عند أسفل الممرات الرائعة. إنه شعب أت من الماضي وابن اليوم، متواضعٌ في حصي وغبار هذه الأرضية غير المستوية، لكنه أيضاً جميل وطبيعي في مكانه، بين المكونات الملحمية للمعمار، المؤثر مثله مثل الغبار والحصي المتفشي في هذه الأرض المقدسة التي تآكلت بفعل مرور الأجيال المتلاحقة. وهؤلاء العجزة العُميان الذين يقومون، متلفعين كملوك بالخرق والأسما، لهم هبة ووقار هذه الأسوار التي كانت قممها في الماضي مسننة غير أنها ذابت كما رأس صخرة تحت أثر العواصف والأمطار طيلة قرون لا تحصى.

يبد أن العلاقة الخفية التي نختمها بين هؤلاء الرجال والأشياء أشدَّ عمقاً من ذلك. في أوروبا، تكون البنية المادية لمدينة ما على مقاس الشعب الذي يقطنها؛ فبنائاتها هي عبارة عن أشخاص متمايزين. وكل واحد له عمره وأسلوبه ومظهره الجسماني الذي يجعله شخصاً متفرداً؛ والقديماء يختلفون عن المحدثين، كما يختلف الباريسي في القرن الخامس عشر بعقله وصورته وملابسه عن الباريسي اليوم. ونحن نتصوّر تنابعا متقطعاً من العصور كان لكل واحد مظاهره الخارجية وروحه. وإذا ما نحن تأملنا الأزقة الحديثة، فإن كل منزل يحمل مع تاريخ بنائه توقيع مهندس، ويسجل ذلك في المحافظة العقارية. وأجزاءه المختلفة صالحة لاستعمالات خاصة كنا نجهلها البارحة. وهي قابلة للتغيير، بحيث يمكن أن تكبر أو تفصل أجزاؤها. وخلف أبسط عمل من هذه الأعمال الإنسانية يحس المرء بإرادة متفردة، سواء تعلق

(1) المرينيون أسرة حكمت المغرب بعد الموحدين من 1244م إلى 1465م. وأصلهم أيضاً من قبائل زناتة البربرية. حاولوا تمصيد مملكة غرناطة غير أنهم فشلوا في ذلك. عرف عهدهم ببناء المدارس.

الأمر بالمالك أو بالباقي. بالمقابل فإن مدينة من مدن الإسلام تكون مجهولة المرجع وجماعية، بحيث إنها تجمع في غشاء وحيد بال حيث يتغلف في القشرة نفسها لا تعدداً أو متواليّة من الحيوّات الفردية، وإنها حياة واحدة. إن هذه الحياة تتابع من قرن لآخر، دائماً هي هي لا تتغير، تعبر عنها الحركة نفسها، وتسيرها التيارات نفسها، ولا تتغير إلا بالاندحار التدريجي للمبدأ الذي كان في أصل تطورها. إن ذلك الغشاء يمتد في الزمن بشكل سكوني، من غير أن يسعى أي مبدأ فعال ونشط أن يجعله يتكيف مع وظائف جديدة. إنه يتغير، لكن بذاته، من فرط الديمومة، عبر الفعل الخفي للقوى المحلّلة، بحيث تبدو كأحجار تنفّست، وتناكل من فرط الحُزاز، وواجهات الأسوار التي تنفّل، وشقوقها التي يتعلق فيها العشب، وأساسها الذي يندس في الأرض شيئاً فشيئاً. إنها مظاهر مؤثرة للمنجزات الإنسانية التي ينمحي منها تدريجياً أثر الإرادة الإنسانية، بمقدار ما تستعيد الطبيعة إلى مجاها الخالد. حينها، فإن الشكل المرتني للمدينة يكون للشعب بمثابة وجود أزلي كما هو وجود الجبال المحيطة، مقبول سلفاً كما هو حال هذا المنظر الطبيعي الذي يتلقّى، عبر كل جيل يولد فيه وينفرد فيه، طابعه وشخصيته من ذلك الشكل المادي كما من الأشكال غير المرئية للديانة، ليتركها للجيل اللاحق كما تلقاها.

ذلك هو ما طرق ذهني من لحظة في هذه المساحات الفسيحة والخربة لفاس الجديد، التي تحيط بالمشور السلطاني... ثمة خطاطيف سكرى بالحياة والربيع، تحوم زاعقة بين الأسوار المرهقة للقلعة. وفي الطرف الآخر من ساحة شاسعة، أبراج متوازية تدعّم بروعة أجنحة هذا القوس الهائل الذي مررت به، وفيها وراء ذلك ثمة أبراج أخرى أكثر علوّاً هذه المرة، ترتفع ويعلوها الحُزاز بحيث تعرّف عليها بلا تردّد باعتبارها شاهداً على الماضي الأكثر رفعة وقدماً، المرابطي أو الموحدي.

لكن على الأرض ثمة جمهرة من الناس لا حراك لها، منهم المعجّز والشباب. وهؤلاء يشدون عباءاتهم حولهم، وكما المعجّز هم ليسوا أقلّ بؤساً ولا كآبة وصمتاً. وخول هذا الحشد كان خمول الشيخوخة التي تتجمّد فيما بعد في الراحة الأبدية بعد قضاء كل مهام الحياة، والتي لا تطمح سوى للالتكأ على سور من الأسوار في الشمس والنظر بمقلة غائمة في الوقت يمرّ مروراً. إنها ليست شيخوخة الأفراد وإنما شيخوخة العرق، لا شيخوخة

الحيات الخاصة، وإنما شيخوخة تلك الحياة الطويلة الكلية التي تعيش مداها منذ قرون عديدة بين تلك الأسوار.



عدت إلى فاس البالي عبر عمر «أبي الجنود» والساحة التي تحاذي الأرض الخلاء. أفق كل مساء هناك طويلاً، وإذا كان علي ألا أحمل معي هنا سوى صورة واحدة، فتكون صورة هذا المكان هي التي سأختار. إنها عظمة كثية، واقتراحات صامتة من الماضي الخرافي وخراب، فكل ما بهم روح فاس يوجد هنا بمظاهر مؤثرة وعامة. لا شيء جميل هنا، ولا شيء مغربي خصوصي كما في ساحات الاستعراض الرائعة. ليس ثمة غير الخراب البشري، وعمل السنين كما في مصر، في طيبة حيث الأحجار والغبار والأنقاض والمنبسطات الساكنة، وأطلال الحياة التي لا يمكن للحياة أن تنبت فيها.

كل هذا يبدو هاربا بحرية تحت تعرجات الأسوار المسننة، وتغدو شاشات غامقة تغيب ثناياها في غبار القرون وتدفع وجوهها المتوالية في شكل تنوءات لا تلبث أن تغيب في الأرض. من هذه الجهة، ليس هناك من حد آخر كما يبدو سوى الجبل البعيد؛ لكن بعد مسافة لا تُعد، ينتهي المرء إلى التعرف، بمحاذاة الأرض، على خط طويل ذي أستان مصفرة ينبثق من حفرة. إنه سور المدينة الذي يحكم إغلاقه عليّ فيما وراء هذا الخراب وبالرغم من الأماكن المسورة الكثيرة التي قطعُ.

كيف لي أن أشبع من هذه الحقول الساكنة والمهجورة، حيث التفاصيل الوحيدة التي تظهر في البعيد عبارة عن قبور وخطوط تقطعها تستنات السور؟... الشيخوخة ليست هنا كل شيء، إنه الموت نفسه، بهدوئه وسكونه، وبقاياها المتجففة المطروحة فوق الغبار، والذي يخلط به غباره الخاص. لقد قامت القرون الطويلة بعملها: فالطلل الأخير قد انمحي مما كان لحما وما فوق العظام الهائلة. وما تبقى هو رماذ مدينة في هيكل عظمي هائل عبارة عن أسوار تكاد تُندثر. وإذا ما نحن استطعنا أن نعرث فيها على بقايا الحياة، فإنها لا تقوم سوى بتعصيد انطباع الموت هذا. مدينة واهنة ومشتتة بحيث نحس أنها طارئة وغريبة، وأنها حُطت هناك كما جنة كبيرة، متحركة ببطء حلزون، أو ساكنة سكونا لا ينبي عن وجودها: أشباح بدو

منكفئين على الأرض، بقعٌ شاحبة هي خيامهم الوضيعة في الظلمة، وكلاّب تنصّور جوعاً، وقطعانٌ حائرة من الجبال قاعية هناك، غريبة وتبدو خرافية، لها صفرة الأرض التي تتمدد فيها أعناقها ورؤوسها الجافة. وهؤلاء الأحياء لا يحتلون غير الأماكن الأولى خلف الجرف غير المتحدّد الذي يوجد في طرف الساحة الأهلة التي توقفت فيها. وفيما وراء ذلك كل شيء فارغ وجامد؛ لا شيء غير صومعة وبعض القباب المتأكلة، ونخلة نصف ميتة. ثم في البعيد تحت الجبل، مزيجٌ شاحبٌ نتعرف فيه على حُفَر منجم للحجر وأجراف، وقلعة وبقايا الأقواس في الأعلى.

لكن في كل مكان من هذه الفضاءات تتمدد الحواجز المساوية. ونحن نكتشف أخرى منها دائماً، من غير أن ندرك تنظيم وعلة هذه الخطوط كلها التي يبدو أنها لا توجد هنا إلا لتشهد على العصر الوسيط العظيم، ولكي تعمّق من أثرها الكثيب. والقرية منها ترفع مقابل الشمس، وفوق الخيام الوضيعة، ثنياتها الأربعة السوداء والشائكة، بحيث نخالها فيالو جيش قديم تتحرك الواحد خلف الآخر، تحت رؤوس رماحها، فبقيت هناك واقفة لحراسة هؤلاء الناس الذين يتفرقون في صمت.

يا له من اقتراح للأمان في الموت! وخدر كدخان الكيف. وكم هي عميقة هذه التأثيرات، بحيث تصوغ وجود من يولدون هنا ويتدثرون بها إلى الأبد. روح الإسلام بكاملها تطفو على هذا المدى الجميل الذي يشبه مقبرة. وهو يريد أن يفصح لنا عن سذاجة العمل، وكرامة عدم الفعل، والرتابة الأسيرة للزمن حيث يتحلل كل شيء في صمت وتؤدة وجمال، وأخيراً نشوة تلك الساعات التي تمر فارغة تماماً، مكونة من تتابعها ومن فراغها وجود هذا الشعب من حولنا، هذا الشعب الذي يختفي وراء حجبه كي يصمت ويلتذّبها.

كم هم عديدون الناس الذين يشكّلون هذا الحشد في الساحة الكبرى لأبي الجنود (بوجلود)، التي نعبرها ببطء على حافة الأجراف التي يبدأ منها منبسط حزين! إن أغلبهم من البدو والرعاة الذين يعودون كل مساء للمخيم الموجود جنب الأسوار، ويظلون متجمّدين في وضعتهم المصرية حاملين صامتين. وبين خيامهم الصغيرة وأكوامهم المصنوعة من البرسيم البري، وهي نفسها التي رأيناها في دواوير البادية، يفرشون الأرض أو يجلسون

في صفوف كامدة وواطئة يرقبون المارة، أو يتقّبون عن قملهم، متكئين على السور الأعمى الطويل الذي يطل علينا من اليمن. والعديد منهم يسرون ويجيؤون بلا هدف، ويتبادلون الدردشات في حركات تيين عن العطالة.

ثمة حلقات من الفضوليين تحيط بيهلوانيين سودٍ عراة. وآخرون بالملثات عند قدم أحد الحكاة، رافعين نظرهم نحو عينيه الملهّمتين، وحركاته المسرحية التي تحاكي بحرارة حكايات الجن والعفاريت والأمراء والدواب المجنّحة. هناك متسوّلون يذكّرون بيعقوب وعازر، ورجال جاوزوا الثمانين عاماً يقفون وعيونهم مطفأة، وأسألمهم مثقوبة كما الأسوار الشائخة. وهناك زنوج ضخام من الحدود السنغالية تبدو وجوههم أكثر وحشية مقارنة مع دقة ملامح العرب والحسن الواضح للبربر. كما هناك مشعوذون وسحرة من بلاد السودان، شبه عراة تحت قلنسواتهم وأكاليلهم المخارية. إنهم قارعو طبول وطبليات، يترجعجون بتقطعية كبيرة وحركات قروود. وهناك «أولياء الله» والمجاذيب، يختالون في برانس غريبة وجلاليب خضراء فاتحة، والناس تقبل أكتافهم أو أياديهم السوداء المسكة بالشُّبحات، وهم يمنحونهم البركة. بل إنهم حدّثونا عن امرأة ولى من أولياء الله، مختلّة في هذه الأوقات في كوخ من القصب، تعيش (كما في الزهد الهندي) عارية وتظهر مجرّدة من الثياب كل يوم أمام الجماهير الخاشعة.

وكل هذا الشعب يعسكر تقريباً هنا، مثل رُحل يستقرون لعدة أسابيع وسط فاس الجديد، جماعة متآزرين، بمأواهم المصنوع من القماش أو الصوف أو القصب، فيشكلون قرى وضبعة عند قدم الأسوار العالية. ثمة العديد من النساء والأطفال، ونحن نراهم تحت الركن المرفوع من الخيمة إما مقرّصين أو يتلمّسون طريقهم في الظل الداخلي، على زراي رباطية وضبعة، بين الطناجر والبراريد حيث يغلي الشاي بالنعناع.

لكن علينا أن نتابع الطريق. فنحن نخشى المكوث هنا أكثر، أو التزجّل عن أفراسنا والضياع في هذا الزحام. ووجوه هؤلاء النساء البدويات، الباسات أحياناً واللواتي يدين جيالات، تجعل قلبنا ينقبض بعض الشيء حين يتجمّدن عند التقاء عيونهن بعيوننا.

قمنا بجولات طويلة في المدينة على الخيل أو البغال، خلف الفارس الذي يحمينا حضوره معنا. لم يكن الانطباع بهيجاً، فباطن المدينة الأهل حزينٌ مثله مثل خارجها الجامد. إنه بارد، وصارم ورتيب، وهي تذكّرنا بالدير، هذه المدينة المقدّسة التي يتدثر أهلها بالأبيض، ويظلّ نساؤها متلفعات بشكل حدادي كما الراهبات الكرمليات⁽¹⁾، carmélites، والرجال بأعابهم، محمّلين بذلك الصوف الشاحب نفسه ذي الثّيات الثابتة، كما لو كانوا يُخضعون لقوانين لباسية صارمة، بحيث لا تبدو منها غير وجوههم المشابهة، ولحى متناظرة وبسيطة مخلوقة حسب العادة. إنه صمّت مذهلٌ ومزعجٌ وكاسعٌ. أصواتٌ خفيفةٌ وحركاتٌ وإشاراتٌ محروسةٌ، وعبوّنٌ منكّسةٌ أرضاً، ودائماً الشحوب نفسه الذي يشبه شحوب أناس معزولين في قبر.

إنّه الشرق الأكثر قتامةً الذي أتيح لي أن أراه. هو المغرب القاتم كما قال بيير لوتي⁽²⁾ Pierre Loti عن هذا العالم حيث الناس كلهم بيضٌ. وكم هو كامدٌ وحزينٌ هذا البياض! فهو بياضٌ مؤثّرٌ كما بياض الكفن. والشكل البشري الحي يكاد يختفي فيه. إن رداء كهذا، خاصة رداء النساء، هو إكراه مفروض على الحياة؛ فدفتان تنطفئ فيه، ونزوات الفريجة والانطلاق تحبو. نمة قرار مسبق للبطء، والحشمة والسرّ يتأكد في هذا اللباس كما في هذه الدور المبيضة بالجبر التي تدير الظهر للشارع، وفي تلك المآوي العمياء حيث تنعزل الحياة حذرة كي تلزم الصمت وتتوارى. ويكفي أن نرى ما صار إليه الأبيض لنندرك جيداً كونه يعني الحداد في بعض البلدان. إنه في كل مكان لون ديني صارم وصوفي بامتياز، لون الكتان الخالص حول مذبح الكنيسة.

في القدس، كنت أعتقد أنّي رأيت أكثر المدن شراسة وكآبة من بين مدن بلاد الإسلام، بين

(1) المتنيات للطائفة الكاثوليكية الكرملية. والراهبات الكرمليات معروفات بانغلاقهن في الدير ونكريس حياتهن للصلاة والعبادة.

(2) بيير لوتي (1850-1923) أديب ومستشرق فرنسي، ورحالة زار العديد من بلدان الشرق. وكانت زيارته للمغرب سنة 1889، حيث خلّدها في كتاب شهير بعنوان: «المغرب»، صار مرجعاً في هذا المضمار.

أطلال قلعة وجدران أديرة، أمام منظر من الحجر، وبين سكان منقسمين إلى طوائف متعصبة متأججة حقدا. لكن بدوا أحرارا كانوا يسرون فيها جماعات، بوجوه حاسرة ووضعايات متظلمة وقوية وقوية. يمكننا أن نخمن أجساما شابة ورشيقة تحت الثوب الأزرق، المبيض من كثرة الاستعمال، الذي تسدل ثنباته بكثرة كما لو كان غطاء مبللا. كانت هناك أيضاً جماعات التجار وبائعو العقاقير السوريون، المذاحون والمجاملون وأصدقاء الغرباء. أما هنا، فعدا الملاح⁽¹⁾، كل شيء ينغلق ويكبت ويتنصاع للصمت. لا ساعد عارياً يظهر محاطا بالخواتم، كي يمسك من فوق زحام السوق بنحاس لامع فوق الرأس. ولا قوام فتاة حسناء يتخائل بإيقاع تحت عبة جرة ملىة. فمنايع الماء وحلقات النساء تكون في الشرق دائماً مسرحاً للدرّشات المرحية والإشارات المليحة. وفي فاس، وللقيام بهذا العمل النسوي، تظل كل امرأة مضطهدة تحت الإزار الثقيل الشاحب الذي لا حياة في انسداله، حيث تغدو الحركات عسيرة. وسواء كانت المرأة شابة أو عجوزاً فلا أحد يعرف ذلك. وبما أن الجرة لا توضع لا على الرأس ولا على الكتف، فإننا لا نرى الركبة تنثني، والجسم يستقيم بحركات الخصر، والساعد يرمي بالحمولة إلى فوق، وعند المشية تكون الرضعة مستقيمة كل الاستقامة، وحركات الخصر متهادية، دائماً في رشاقة ونخوة. هنا تحمل الحمولة الدافقة على الظهر، مدعومة بحبل يوضع على الجبين كما لو كان طقم ثور. وقرب السقايات العتيقة الفيسفائية عند زوايا الأزقة، تحت الخليط الشرقي المتشابك من الأفاريز، تروح الأشكال الشاحبة ونحى، مشية، مهانة في هذه الوضعية الشبيهة بوضعية الدواب التي تجر وتكُد.

لكن هؤلاء النساء على الأقل يعملن. إنهن لسن بسرّ مخيف. فما بالك بكل أولئك اللواتي نصادفهن في النور المسائي للقب، متكئات على أبواب مسطرة، عبارة عن رزم غامضة متطاوله مغلقة بشكل جنازتي، بحيث لا ينكشف شيء حي منها إلا العينان من خلال فتحة سوداء، كما الماء السري لبثر؟ وما القول في هذه الآلاف من المخلوقات، وفي هذا الشعب المتدثر بالأبيض، الذي يتحرك بوضعايات منحنية في قعر هذه الأقباء، والذي لا يعرف عند المساء سوى الذهاب للجلوس على القبور وتأمل الأطلال في صمت؟

في القلب المعتم للمدينة، في أسواق التجارة العتيقة الفاسية، ثمة ممرات مزدحمة تتوجه

(1) الحى اليهودي.

شبكاتها بشكل غامض نحو الأضرحة الكبرى في المركز. وفي هذه العتمة الكثيفة والمليئة بالناس، ثمة وضعات تدهش أكثر، فالتجار العرب يصطفون بالآلاف، وكل واحد منزول في حانوته الضيق. أمرٌ أمام هذه الصُفوف، وأنفُخص كل فرد في هذه المجموعة الخارقة، وأندesh للمرات العديدة التي يتكرّر فيها نمط النموذج والبصمة المزدوجة للعرق والبيئة. إنها وجوه حضرية، ذات بشرة شفاقة ناصعة البياض، وملامح صارمة تشي في ثباتها بالشرف والتبالة. ولهم زينة خاصة رفيعة الأنافة: اللحية مقصوصة بعناية تحيط بالوجه الشاحب كالعقد؛ والشارب مقصوص عند الشفة التي ترسم فيها الحمرة الشقية؛ والرجلان عاريتان، تشوبهما بعض الحمرة الوردية، تخرجان من ثوب شفاف؛ والصفاء الفخم لتلك الأحجة، والحرير أو الصوف الراقي للحايك الذي يغلف الرأس والعنق، الملفوف على الجسم فوق الجلباب، والرمي بشكل رائع على الكتف بحيث يثنى ثنيات حادة ودقيقة. والطرارة الشاحبة للدين، وحركتها الرشقة من غير أن يتحرك تحت الحجاب الساعد أو المعصم، والستابة منفصلة بعض الشيء كي يتبدّى الخاتم الفضي الوحيد الذي يبيحه الدين باعتبار أن الذهب محرم على الرجال. يالها من وضعيات جامدة جميلة وصامتة. إنها تذكرني ببراهمة الهند، وبصفوفهم المتراسة وهم مقرفصون على الخط الأخير للغات على شط نهر الغانج. لكن أناس فاس لا ينحنون من فرط التعبد والتأمل. فهناك ليس ثمة من حلم يضع فيه النظر، ولا من تعبير مركّز يفصح عن النور الذي يغزو الفكرة الثابتة. إننا لا نحس بوفرة الفكر والحلم في هذه الكيانات المغلفة والمتشابهة، بحيث لم أقرأ فيها في البدء سوى فراغ الذهن، والراحة الخدرة التي تقارب السبات، كما السلوقي الذي ينبطح أرضاً، رافعاً رأسه ومطلقاً ذيله بحيث لا يكون جميلاً إلا في هذه الوضعية الشبيهة بوضعية أبي الهول. إنه كائن محير لأن لا شيء يحدث في حجمته الضيقة. لكن الطابع السري لهؤلاء التجار الذين يجلس كل واحد منهم في حانوته الضيق المعتم، وقارهم الذي لا يتحلل أبداً في بسمة، والذي لا ينقطع أبداً بحركة حيوية، هذا هو ما يفصح لي عن شيء آخر. إنني أحس بفعل قوة ما، وينمط اجتماعي نابع من التربة، وبالسلطة التي تبسطها على شعب ما بعض الأفكار البسيطة والحاسمة، وهي أفكار ذات مصدر ديني، تقرّر ما يليق وما لا يليق. لقد صاغ هذا الشعب نموذجاً في المسجد. وفي هذه المرات المعتم والمعطّرة يطفو جوٌ روحاني، والصمت الهامس

لحشودهم هو صمت أماكن الصلوات والدعوات.

ليس من قبيل الصدفة أن يكون الضريحان الأعظمان لفاس محبوسين في عمق هذه المتانة. إنها يتلاهما معها بحيث يتحدان بها. وحولهما ينطلق إشعاع قداستهما في هذه الشبكة التي تتداخل وتغلّفهما كما لو كانا فرعاً منها ناجماً عنها. ها هو المركز الروحي العجيب لهذه المدينة الإسلامية، المحلّ بالحياة الدينية التي تتحول ببطء وتتدفق لتغدو هي الحياة اليومية العادية. بعض هذه الأسواق ذات طابع مقدس (حرم)، فهي ممنوعة على الدواب كما على النصارى، وأكثرها حرمة محمداً عارضة. وعند المرور هناك، أبصرت بطرف ناظري تلك الأنفاق التي لا أستطيع ولوجها، أهلةً بالناس وذات طابع تجاري كما باقي الأسواق، وفي عمق عنمتها البخارية توجد روائح غامضة، من سقايات ومقصورات بقبب زرقاء، وأفاريز مليئة بالزخارف، وباحات معمّدة وأعمدة سامقة. إنه الأسلوب المعاري لقصر الحمراء وهو يعجّد ضريح مولاي إدريس. مولاي إدريس مؤسس المدينة، الولي الصالح المتبصر، الشريف ذو الفضائل الخالدة، ذلك أن بركته وكراماته التي تتجاوز باقي الأولياء تتدفق من ضريحه باستمرار. إنه الحاكم الخفي للمدينة، الذي يُذكر اسمه ويُتبرك به على الدوام، ويملك عقول الفاسيين كما يملك «شيفا» الهندوسيين. مولاي إدريس! كم من مليون مرة مُمس هذا الاسم خلال القرون الماضية في هذا الفضاء السامي الذي يوجد في قعر هذه الأروقة؟ إن اسمه يتردّد فيها على الدوام ويسكنها، ومن هناك يتشر في زحام الأسواق، وعبر الأحياء التي تنصورها خالية غير أنها مليئة بالمنازل المأهولة التي تدير الظهر للمهارة، عبر الساحات الكبرى للمعسكر والأسواق، حيث أتعرف عند مروري على الدعاء الأبدي الذي ينبثق من الصمت أو من الثرثرة المغربية. مولاي إدريس! جملة يردها المتسول الجالس أرضاً، رافعاً يديه البيتين. مولاي إدريس! يردها الصبيان الذين يلعبون لعبة الاستغماية. مولاي إدريس! ينطقها المسافر الذي يرى من فوق الأسوار المسنّنة التي تمتد على السهل المحيط، المثلث الأخضر الذي يعلن من بين خمسين صومعة عن مكان الضريح. حول هذا الضريح، في جامع القرويين (المسجد القريب منه وذو الأثر الكبير أيضاً) تتركز القوة الجبارة اللامرية التي تلتحم في حياة الشعب وتمنحه إيقاعه، وتوحده ديناً وتحدّد له حركاته وحالاته التسمية، من غصن البصر وزم الشفاء إلا للهمسات الخفيفة التي تعبرها بعذوبة

أسماء الله الحسنى، وأسماء النبي ومؤسس المدينة والشرفاء والصلحاء، والتبركات والكلام المأثور والذكر... وكل ما يصاحب حبات السبحة، من بسملة وتأمين وحمدلة وحوقلة... أي تلك الجمل التي ينهي بها الوزراء أيضاً حديثهم مع الأوروبيين.

هذه المدينة تبدو عبارة عن زاوية من الزوايا الصوفية، فهي الأكثر صلاحاً والأكثر مناعة في بلاد الإسلام الإفريقية. إنها زاوية بزنجياتها وأسواق نخاستها، المخصصة للمذات الفرج التي تمارس بشكل شرعي في غرف بيضاء تشبه المزار. والمسافر سواء كان بدوياً أو تاجراً، يتخضع قبل ولوجها. وأنا أرى بين فرقة خدمنا كيف أن الصمت والورع الذي يسود لدى السكان هنا يستشريان بينهم. إنهم يحاولون التأقلم مع هذه المعاملات الحكيمة، ويسجدون في الحديقة للصلاة. ها هي صرخاتهم تتمد، بحيث لا يتكلمون إلا بأصوات خفيفة. والمذات التي يعرفون كيف يتشبعون منها في الليل، والتي تمنحهم لهم مدينة فاس بوفرة، تصفهم بشحوب رائق وحزن خجول، وتعدُّ من حركاتهم الطائشة، وتطفئ بريق أعينهم محيطاً إياها بهالات ازرقاق. تكفيهم بعض السنوات من هذه الحياة المستقرة حيث تتناوب المذات مع العبادات، ومن خدر تدخين الكيف في عمق الحدائق المسورة والأزقة العطنة، وإذا ما هم تلقَّعوا بحلل من الصوف الأبيض، فإن الملامح الأساس للنموذج الفاسي ستظهر على محياهم.

إنها المظاهر التي يفترضها السلفيون في السلطان. وهو إنسان غامض أكثر من رعاياه المحبوسين، ملتحف دائماً ببراءة زنبقية رامزة لورعه الخالص، بحيث لا يتفوه إلا بالكلام الفقهي، ولا يخرج من الأسوار الثلاثة حيث توجد ألفا امرأة محبوسة إلا لتقديم بركته الشريفة بحركة وحيدة ومحسوبة، وليترأس أمام القبلة، جامداً في بياضه، تجمعات رعاياه. لم يثر السلطان حفيظة الشعب لأنه أحاط نفسه بالأوروبيين⁽¹⁾؛ بل لأنه سعى إلى التنصّل من النظام السلطاني الصارم، ومن ثم إلى الانزياح عن النموذج الذي عليه أن يكون تجسيده الأسمى. كل هذه الألعاب في الهواء الطلق التي تعلمها من الإنجليز، والتي من

(1) يتعلق الأمر هنا بالسلطان مولاي عبد العزيز الذي سوف يلتقي المؤلف في نهاية مقامه بفاس. وقد عرف هذا السلطان بولعه بالعلوم الغربية وبالتقنيات الحديثة. وتعلم ركوب الدراجة الهوائية والنارية والسيارة. كما تعلم التصوير الفوتوغرافي والسينمائي. وسعى إلى فرض إصلاحات ضريبية. وهو ما ألب عليه الشعب والفقهاء والعلماء فعزلوه وولَّوا مكانه أخاه عبد الحفيظ الذي سوف تعقد معاهدة الحماية الفرنسية في عهده سنة 1912.

أجل ممارستها كان يقوم خلف الأسوار وفي باحاته الخصوصية، بنزع البرنس والجلباب، كانت تصدم الآخرين باعتبارها حاقات لا تليق بسلطان، كما في مقلب حين يرمي المسؤول بملابسه وطربوشه كي يذهب للتجول على الدراجة الهوائية، متصنعا الاستقلال والصيانة. بيد أن انتصارات الروكي بوحارة⁽¹⁾ اضطرت السلطان لأن يحسب ألف حساب لفضب شعبه. وبمقدار ما كثر أتباع الطامع في العرش، كان السلطان عبد العزيز يتعل بلخته، ويرتدي قفطانه ورزته ويتدثر ببرنسه، ويعدّل من ثيابه بدقة؛ وهكذا يعود لبصير الشريف، سبط النبي وراعي شعبه، الرجل الغامض الرابط الجأش، الذي يتلقى البيعة بنظرة لا تحيد، والتاسك الذي لا يتغني من منع الدنيا شيئاً إلا مع حريمه.

واليوم عادت الرتبة الكنيية للأيام الخوالي. وكل شيء يصمت ويتجمّد في أدب ولباقة جنائزين. ومدينة الأحياء تناغمت كما يليق مع مدينة الأطلال والقبور. ولا شيء نشاز غير وجودنا نحن الأوروبيين الذين نصدم الآخرين ببيتنا المتحررة. ها هنا لا يمكننا أن نتغافل عن ذلك، فالمخزن قد أحطرنا بالأمر: لقد رأنا الناس تنهذى بخيولنا أو نعدو بها في الفضاءات الخالية للساحات، كما أننا تحدّثنا بصخب زائد في الأسواق. ولنحذر، فعلينا التجول أقل، ذلك أن التجوال الكثير من غير سبب يثير حفيظة الناس ويزعجهم. إنها لمخالفاتٌ جمّة قمنا بها لتعاليم الفقهاء الذين يوجهون هذا البلد وشعبه؛ ولأنها عتيقة فإنها تحدد الحركات والسكنات بشكل صارم. وهو أمر نحس به بحدسنا أيضاً، فبيتنا وبين هذه الكائنات المتصنعة المراتية، لا يمكن للعلاقات الإنسانية البسيطة أن توجد. ومسبقات هذه الحضارة الصارمة في كل شيء تجعل من تلك العلاقات شيئاً فريداً. وأنا لا أرى من الجانب الإنساني الحق هنا غير الأطفال، فمعهم يمكن للمرء أن يتسم ويدردش ويتفاهم بحركة لا غير. إنهم ليسوا بعد لا مغاربة ولا فاسيين. إنهم فقط صبيان يجعل منهم لعهم ونظرتهم الحيوية المباشرة وحماهم فقط «أناسا صغاراً». هنالك اثنان منهم أو ثلاثة يعرفوننا جيداً، لأنهم «غافروشات»⁽²⁾ Gavroches صغار ذوو حركات رشيقة ونظرات معبرة، لم يتعلموا

(1) يشير المؤلف هنا إلى الجبلالي الزرهوني الملقب بالروكي بوحارة. كان الرجل في الأصل كاتباً في بلاط مولاي عبد العزيز؛ وقد قاد ثورة عارمة على السلطان وهزم جيوشه سنة 1902، ونعّب نفسه سلطاناً على البلاد. لكن تحالف المخزن مع القادة المحليين أدى إلى اعتقاله والتشنج به في مدينة فاس.

(2) جمع لـ «جافروش» وهو بطل رواية البؤساء لفكتور هوجو، ونموذج الطفل الباريسي الهامشي بل الطفل عموماً.

الإفقاء بعد جنب السور. وما أن يرونا من بعيد حتى يهرعوا إلينا متجارين، ويريدوا أن يترعوا عنا الركاب. ثم هنالك البسات وسبولة الكلام والإيهامات الدافئة، ليعبروا عن فرحتهم أملا في الحصول على قطعة نقدية. وأحدهم، وهو موسيقي لا يتجول إلا بصحبة نايه يتعقّبنا في الأزقة الخالية كي يحتفي بنا هناك بلحن من ألحانه، بعيداً عن أسماع الفضوليين. وآخر من بينهم يبدو يثيماً، يظل دائماً لوحده على هواه بين زحام المدينة. ونحن نصادفه كل مرة هكذا في كل الأحياء. إنه قط صغير من غير متبد ولا مأوى، وشغله الشاغل يتمثل في التسكع هائماً بلا وجهة بحثاً عن رزقه اليومي، بحيث لا يعتمد سوى على الحيلة والصيد والمصادفات. إنها لرجولة مبكرة هذه التي يمتلكها هذا الصبي، الذي نذر حياته لكل مقالب الفاسيين. فهو ذو حركات رشيقة، ومُدهن حتى العظم، بعيني شيطان صغير، وكلامه الواضح المبطن، وملاحه ذات المسحة الأرستقراطية، والإشراقة المفاجئة لابتناسمه، بحيث نكاد لا نعرف فيه على عرق هؤلاء الفاسيين المتدينين الذين يتعي إليهم. بل إن هذا المتسول الصغير يزعم أنه من سلالة الأعيان، إذ هو يعتبر نفسه شريفاً وسبطاً للنبي، وأحد أبناء عمومة شريف وزان المشهور⁽¹⁾ وإن كان فقيراً، ولا يني يردّد ذلك.

يا لهم من صبيان! من خلاهم نعرف أن إنسانية مدينة فاس لا تختلف في الجوهر عن إنسانية المدن الأخرى، وأن الأمزجة المغالية التي نندش لها فيها ليست من طبيعتها وإنما من ثقافتها، كما هي في العمق كل الأمزجة التي تميز مختلف المجتمعات البيضاء. الأمر يتعلق هنا بثقافة عربية من الناحية التاريخية، بحيث إن آثارها التي غدت وراثية، والتي تمثلتها الطبيعة بفعل التكرار، صارت أشبه بالأمور التي تبدو طبيعية وتلقائية وفطرية لدى الفرد. بيد أنها ثقافة حديثة إذا ما هي قورنت بما عاشه الحيوان الإنساني من قرون. لهذا فإن إنسان فاس، كما كل إنسان من حضارة أصيلة، لا يطور نموذج⁽²⁾ type إلا في وقت متأخر بعد فترة الطفولة، في نهاية نموه، بعد أن يكون قد مرّ من كل مراحل النوع الإنساني العامة والعتيقة.

(1) المقصود شيخ الطريقة الوزانية المعروفة في شمال المغرب، وهي ذات منحى شاذلي.

(2) لا يخفى أن الأنثروبولوجيا أو علم الأعراق كان يتم كثيراً بالنموذج العرقي. وقد كانت الصور الغنوغرافية واللوحات الشخصية تسعى لضبط هذا النموذج.

ولكي تبلغ الأسواق التي تزدهم فيها الحياة حول الأضرحة الرئيسية والسُرِّيَّة بالمدينة، تركنا حينئذٍ المضيء المليء بالحدائق والـ«رياضات» الفسيحة في ضاحية المدينة، وانغمسنا في مركز المدينة المعتم عبر أزقة غريبة، الأكثر مَوَاتَا التي عرفتها في بلاد من البلدان العربية. ما الذي يفتننا هكذا في كل ما يحمل هنا أثر الموت؟ هل هي الباحات الفسيحة الموحشة، أم الأسوار المسنَّنة حول المقابر، أم هذه الأزقة التي لا تعرف الثور ولا الحياة؟ لماذا نتأثر كثيراً بهذه الأماكن البنية أكثر من تأثرنا بخضرة الأوراق، وأشجار الرمان المزهرة، وهذا الربيع الرائع الرائق الذي ينعكس خضرة في مياه باب الجديد الزرقاء؟

كم هو بهاء كل هذا! ونحن نقطع هذه الأخاديد المفعمة بالصمت والظل العتيق، نحس أنفسنا وكأننا ننحدر في أعماق الماضي، في سلام ماضٍ غفا هنا في سُبات عميق. نعم، لعل ذلك هو ما يأخذ منا الحواس أخذاً. ففي قعر هذه الممرات العميقة، يبدو الوقت كما لو أنه توقف عن السريان. فيها تحيِّم سكون عميقة، تبشر بالأبدية كما في قبو لا يدخله ضوء النهار إلا في شكل خيط من الشَّار الأزرق.

وكم نحس في كل هذا بالحصار والانحباس! تكاد حيطان الجصّ المشقق أن تتلامس فَوْقَ رؤوسنا، كما لو أن الأمر عبارة عن شَرَك تكون بابه أصيق من قعره، بحيث يغلق تماماً حين يمتد الطابق العلوي لدار ما أو لسلسلة من الدَّور ليغطي الزقاق بأعمدته فيملؤه عتمة. إنها جدران عمياء، إلا من بعيد لأبعد، وبمستويات متباينة حيث تظهر ثغرة مظلمة ومربعة تحرم الوصول إليها قضبان حديدية تتدلَّى منها كما من نافذة كوم رمادية من شبكات العناكب. وأحياناً، حين أمرُّ على ظهر بغلتي على مقربة من بعض تلك النوافذ الضيقة، أحاول أن أسبر غورها بصصري، غير أنني لا أبصر شيئاً سوى الظلمة، أي ما يشبه داخل قبو. ولا أحد يمكن أن يتخيل أن هذه الجدران يمكنها أن تخفي شيئاً غير الليل المدلهم، والرطوبة المتراكمة، والعدم المطلق لقبر صار كفته غباراً منذ زمن طويل.

لكن في الأسفل، ثمة أبواب مصفَّحة بالحديد والمسامير الهائلة، بحيث نخمن سمكها وصلابتها، وممرات كالأقباء يتعقَّن فيها الخشب سريعاً بفعل الرطوبة القائمة. والبعض من تلك الأبواب منفرجة، بحيث يمكنني أن أتميز من خلال الفرجة قبة من الجير الشاحب،

وعتمة أصيل ترفرف على المكان وتصبح كثيفة في البعيد، وأحياناً كتلة شاحبة تتحرك ببطء، قاتل، وكأنها شبح شائع.

وحده الفنان الهولندي رامبرانت Rembrandt أفصح عن هذه الأسرار كلها. يا لها من لوحات حفزية كان سيأتي بها من مملكة الظل هذه! الظل يسكن هنا في كل درجات العتمة الممكنة، التي تكون عادة كثيفة، ذلك أن هذه الدور عالية كي تعتبر منازل عربية، وفي هذا الركام المتراس من البنايات الذي هو المدينة، تشكل هذه الأزقة التي نسير فيها شقوقها وتصدعاتها العميقة. ولا يمكن لأحد أن يرتاب في وجودها حين يطل من أحد السطوح على مدينة فاس التي تمتد أمام ناظريه كما لو كانت حقلاً متصلاً من الكلس. وفي أكثر هذه المعمرات نوراً، لا يكاد شعاع الشمس يلامس عالية الحائط. وعلى المار أن يرفع رأسه ليرى الشريط المتكرر الرقيق لنورها الساطع. وفي الأسفل، في الأخدود الذي لا تصله أشعتها، يرفرف النور الباهت المليء بالظلال التي تهازج وتلاعب لتغدو أشبه بالضباب الساخن الذي يتخذ ألواناً عجيبة تكاد تكون ذهبية، تبعاً لطلاء الحيطان وقدمه.

لكن، في الغالب، يكون الظل أكثر تهاكاً ومن غير دذبات، كالعنق الرطب والمزيد لشيء قابع في قعر قبر. بعض القباب واطئة حين تمتد بعد الدور من طرف زقاق لآخر، بحيث يكون علينا كي نتجنب الاصطدام بها برؤوسنا من التمدد على عنق الدابة التي نمتطي. وهكذا نجد أنفسنا في أنفاق ممتدة يفضي الواحد منها للآخر في تشابك واضح. ومن حين لآخر تظهر بعض الفجوات التي تشبه المداخل العصرية، ومنها تنحدر وضاحة النهار ذات اللون المخضر التي تغطي لتتبدد في هذه الآبار. وكل هذه الأماكن قفراء إلا من بعض أشباح النساء. ولا نرى للرجل هنا أثراً، سوى هذه الأشكال الكثيرة التي تدير وجوهها للعناط عند مرورنا وتغلق في عباها الباهتة التي تجعل منهن كيانات ضبابية. إنها أشباح نادرة في يوم مثل هذا، خاضعات مرعوبات وصامتات يسعين إلى الاختباء من عيوننا كما العناكب، التي تكون الوحيدة المصاحبة لمن في كل مكان من هذه العتمة حيث تنسج شبكاتها.

يا لها من شبكة معقدة من غيران الناس التي تشبه غيران الأراب! لو كنت لوحدي لما استطعت أن أغامر فيها بحياتي. فالمرء يمكنه أن يضيع فيها لوقت طويل قبل أن يخرج

بنفسه لأشعة الشمس. لا وجود هنا لنقط استدلال، إذ كل ثقب من هذه الثقوب لا يضيء إلا إلى ثقب مشابه له. وحدها الإنارة تختلف، بهذا القدر أو ذاك من الشحوب، معتمة أو ضبابية، حسب أن يتزل نور النهار من فوق أو يتسلل إليها من الجانب، وتبعاً لعمق الأخاديد وطول الأقباء.

لكن مرةً عثرت بالصدفة على حيٍّ مخالف لكل الأحياء الأخرى، وهو الأجلُّ من بينها، غير أنني لن أستطيع أبداً العودة إليه وتحديد مكانه. إنه حي لا اسم له ولم أتمكن من تحديده للعسكري دليلاً. كان عبارة عن عمرات عالية، بين حيطان من الصخر لا من الجصّ المتفتت. وفي حيطانه أقواس وفي جوانبه أبواب تبدو أكثر صلابة من الأبواب التي عرفنا في غير هذا المكان. إنها أشبه بالبوابات. وفيه تطفو الرائحة الروحية نفسها التي أصادفها بفاس في الأسواق وقرب الأضرحة الكبرى، وفي الغرف المشبعة بلبان جاوة، حيث الشموع تحترق على الأرض بين الصخور البيضاء.

إنها انطباعات معبد ديني. كل شيء يذكّرني بمحراب مسجد، بحيث يحس المرء بنفسه محرجاً بالولوج فجأة إلى هناك على بغلة تدق الأرض بحوافرها المصفّحة تحت القب. ثمة في البداية تلك المنظورات حيث يطفو الظل ويشعُّ في العتمة، ليبدى بارقةً هناك في الأبعد تحت ثغرة نافذة، وتارة يتكثّف ليغفو مثل بخار أسود في عمق الأزقة الضيقة. إنه المرور المتواتر للشعاع المحبوس في قلب الليل. عادة ما يكون النهار ساخناً تحت الزجاج الوسخ، ثم يظهر الغبار المزرق الآتي من الأقباء. وهذه الظلال المتباينة، بحيث تحترق البصر من بعيد، وفي كل زقاق يتوالى تتابعها اللانهائي. ثمة عمارات مقببة وأخرى مفتوحة، بحيث نراها وهي تطيع الواحد في الآخر، في تقوسات مشبعة بالسواد والضبّاب الملون، حيث تنغمس الأشياء بأشكال مختلفة، من غير تحديد ولا سَنَد مرئي، كما لو أنها في لحظة الولادة أو التحلل، كما تغيب تماماً هناك في البعيد.

وهذا المشهد شبيه بالمعبد أيضاً. تلك البوابات الضخمة التي تنتمي لزمان آخر، المزوقة بالحديد المزخرف في شكل تواريق هائلة، وتلك المصاريع الثقيلة الفارغة أفواؤها في عتبة سلم مظلم وغامض، كذلك الذي يصعد لدينا إلى محل ناقوس الكنيسة. وأحياناً، ولكي

أكمل حالة الاستيهام هذه، تجدي أسمع موسيقى روحية غريبة في أذني. هل ثمة خلف هذه الأبواب وهذه الحيطان أماكن مقدسة، أو زوايا وأضرحة صلحاء؟ أم أن الأمر يتعلق فقط بوقت الصلاة في هذه الأمكنة المحرمة. حينها أسمع غمغمة دعوات، وأورادا وأذكاراً متصاعدة.

وأخيراً هؤلاء النساء الشاحبات اللواتي يرسمن عند مدخل القُبب، مثقلات بالحجب مثل راهباتنا. النور المتناثر بين الحيطان يبدو كما لو كان يتجمع على الصوف الذي يغلف أجسامهن كي يخفت أكثر فأكثر. ليس ثمة من انعكاس أو ظل لامع، ولا من ملمح من الملامح الغامضة، كما تلك التي نجدها على البارود أو رطوبة الصخور المحيطة بنا. إنه لأمر مؤثر مثل حلم يتكون وينشق ببطء من الليل. إنها ضربٌ من الواقع المنصهر المتبدد مثل شيء أبيض في قعر الماء، لا يبدو إلا في حال شاحب يتحلل تدريجياً في العمق الشفاف الغامق للماء، فيتصل من ثقله بحيث لا ينتمي إلى المواد الصلبة. وهو عالم خاص متفرد لا تنبعث منه غير تأثيرات نافذة. أسرار عجيبة تأتي المرء منه، فتلقاها النفس برهة وفي صمت يتروّحان شيئاً فشيئاً، حين نلاحظ أن تلك الأشكال، التي لا لون لها، والتي تعمر هذه الأقباء المترجعة، ذات طابع جنازتي. إنهن نساء متلفعات بصرامة، لا يظهر منهن أي عضو ولا أي شبر من المفاصل التي تتحرك بها تلك المخلوقات وتنتهي. وهي كؤم تضيق من فوق مثل التابوت، كما الميت الملفوف في كفته. وعلى المرء أن يستجد بقوة بخياله كي يتذكر أن هذا الكفن في قعر هذه الخلوات التي لا يصلها ضجيج الحياة، قد يخفي فستاناً وحلياً وأرجلاً رشيقة الرقص، وجسد فتاة متقنة لكل مُداعبات الجماع. تلكم هي المفارقة بين عالم المسلم وروحه؛ إنها في الظلال والخراب والموت والشهوات الساخنة التي تستوعب كل طاقات الحياة.

لكن، من دون شك أن هذا الموت وأطلاله ورائحته تعتبر لذة لدى هؤلاء المغاربة. إنهم يستلذون فيها بالسلم والطمأنينة، على امتداد القرون، بحيث لا شيء يكدر صفو سكبتهم. ثمة بهاء مخدّر ينبعث من هذه الأزقة التي لا تعرف أشعة الشمس. ونحن بدورنا تعلمنا جاذبيتها الفريدة بحيث ظللنا نعود لزيارتها باستمرار، كما يجب أهل فاس زيارة تلك المقابر الرائعة القديمة والجلوس على مقابرها في الأصل وبأيديهم باقات الورد...

من الطبيعي أن يحب هذا الشعب الموت، وأن يتطلع إلى سباته. وهو يتطلع إليه كما بعض العجزة، بحيث يملكه تملكاً ويثلج مفاصله. فمبدأ الحياة الذي يكون وراء مجتمع ما ووراء حياته قد انسلخ عنه. وبما أني قد زرت البلاد العثمانية، فقد كنت أعرف جيداً ما يعنيه شعب مريض. وهنا يبدو لي حقاً أن الموت قد بدأ يدب في أطراف البلاد. لقد حل مكان القوة الموحدة البانية القوى المفسدة والقروح نفشت في كل مكان. وأنا لا أتحدث هنا عن الحال السياسية للبلاد، وحال التسيب والفوضى التي تعرفها القبائل، ولا عن هذا «المخزن» الذي تنحصر وظيفته في حملات عسكرية من وقت لآخر، أكثر فأكثر خفوتا، وأقرب فأقرب من معقله، لجباية الضرائب كي يتقاسم حصيلتها الوزراء والسلاطان، ولا عن نفوذه الذي لا يتعدى الأسوار المتعرجة لهذه المدن. أنا أتحدث عن كل ما يمكن أن تلاحظه العين المجردة، عما نرى ونسمع ونلمس حالماً نحط الأقدام في هذا البلد. والواضح أننا لا نتعرف فيه على العنصر الحيوبي الذي يتوَقَّر عليه كل مجتمع المتمثل في الجهد والعزيمة. إن جمود الأجسام هذه التي تسير مواكب متلفعة في برانسها، لتقرفص أسفل الأسوار العسكرية الداكنة العتيقة، يقابله خمول النفوس. ليس ثمة من محاولة نابعة من الإرادة الإنسانية كي تفرض نفسها على الأشياء وتنظّمها، وتدافع عن مآثرها القديمة ضد خراب الزمن، وتمنع نفايات الموت والغبار الرتيب للقرون من أن يغزو كل شيء.

إنه لأمرٌ يلزم الأخذ به حريفاً. لقد كان الدرب البشيس الذي اتبعناه من طنجة إلى فاس قد رسم نفسه بنفسه في الأرض، تحت وقع حوافر الدواب. وكل دابة ماتت في الطريق تُركت هناك تتعفن في المكان الذي سقطت فيه. وهو ما يرسم خطاً متقطعاً من المياكل العظمية تغدو أكثر اتصالاً كلما اقتربنا من فاس. وفي اليوم الأخير نخال أنفسنا نتقنى آثار جيش مهزوم تتابعه نيران الأعداء.

المشهد نفسه نعاينُه في المدينة الروحية؛ فالصاحبة اليهودية يحيط بها كالأسوار ركام الأثرية والدواب الميتة المتعفنة بالآلاف. بل حتى داخل الأسوار يبدو أن تجاور الناس والقاذورات

لا يزجج أحدا. وراء باب الجديد، في زقاقٍ يقضي إلى حدائق بديعة لا يضاهي جمالها، وقرب المياه الجارية وأشجار الرمان المزهرة، استنطعت متابعة مراحل تحلل جثة حصان من بداية انتفاخ بطنه حتى ظهور هيكله العظمي. ونحن كنا نرغب في الوصول إلى باب الجديد ذلك، كانت الروائح العطنة تقودنا إليه عبر التشابك المعقد للأزقة. كنا نسير على هدى العطانة كما الراعي على هدى النجوم. وفي ملتقى الأزقة أخذت الممر الذي تأتيني منه نفحة أكثر تنانة. وكلما اتسع الزقاق كلما قلّ بلاطه الحجري البئيس، فانبثقت خلف السور شجرات نخيل باسقة، لأعلم حينها أن المكان قد غدا قريباً جداً فحبستُ نَفْسي قبل أن تغزو أنفي أكثر الروائح إزعاجاً. أسرع بحصاني لأمرق به بسرعة بحيث أبصرت فقط بالركام المسودّ الذي كانت تظهر منه تدريجياً العظام البيضاء. خلال خمسة عشر يوماً لم يعد هناك غير هيكل عظمي ناصع البياض، ومن الروائح غير روائح الخضرة الياقة والأرض البليلة والنعناع وأشجار البرتقال المزهرة، ولا شيء غير جمال الربيع الأشدّ طراوة.

وعدا بعض الأكمام البرية، فإن هذه الغابة وهذه البساتين بفاس هي الأولى التي رأينا منذ القصر الكبير (على بعد مائة وعشرين كلمتراً في الشمال)، ففي هذا البلد الرطب ذي الخضرة البانعة على سواحل المحيط الأطلسي، يكنفي هؤلاء المسلمين، المهتمّين بالتنازل، فقط زرع الأشجار لتعويض تلك التي قطعها الأجداد في كل مكان. بيد أن الإهمال متفاحش. مرة واحدة فقط أشار لي دليلي إلى مزرعة زيتون صغيرة حول إحدى القرى في الجبل. وبعد ثمانية أيام من السير وسط الهضاب، ألحت علينا الرغبة في الانعطاف قليلاً والمروء بها. إن هذه الغابة الصغيرة المزروعة كانت علامة على صنعة الإنسان، كما في إسبانيا حين يقطعها المراء من الجنوب نحو الشمال، فيرى المصانع ومداخنها ببرشلونة. بإمكان القرى الأخرى كلها أن تكون لها غاباتها الشبيهة بهذه، وزرع أشجار الزيتون وتشذيبها وجني غلتها من الزيتون، لكن لم كل هذا العناية حين يكون بالإمكان فقط رمي بعض حبات القمح على هوى الريح ليحني المراء ما يمكنه به أن يطهو الكسكس بحليب المواشي التي ترعى كلاً المراعي التي وهبتها لها الطبيعة.

في البوادي ثمة على الأقل الونبات اللامتوقّعة للحياة البدائية، وفورات الحروب بين القرى، بحيث يقال هنا إن دَوَّاراً يأكل دَوَّار آخر، ويتم إطلاق النار على القوَّاد الذين

يغامرون بجاية الضرائب. لكن في فاس، في مدينة الحضارة المغربية القديمة، لا شيء يكدّر صفو الخمول الدائم المعتاد. وعدا الأذكار الدينية والعبادات المكرورة، فإن بعض ضروب السلوك التي تفرضها تلك الحضارة على النفوس كما على الأجسام، والحال المعتاد للنفوس كما الأجسام، تنبع من الانصياع لقوى الجمود وممارسة الاسترخاء. في هذا المجتمع المتفكك، لا يعرف الإنسان فقط كيف يفرض على نفسه العناء الجسماني والذهني، بل هو غير قادر على الأشكال الأولية والفطرية للملاحظة واليقظة. وفي مقلته الغائمتين، للأشياء أن تنعكس أو لا تنعكس، سيان؛ فلا إرادة للتعلم أو التذكر توجه نظره وتجعله محدقاً في الأشياء. الفاسي يكاد يكتشف بعناء خلال حياته النقط الاستدلالية لمدينته، الوحيدة التي يعرفها مع مكانس. وإذا ما حلّ الليل، وإذا ما نحن لتيّنا دعوة أحد الأصدقاء الذي يقطن بعدوة الأندلس، فإن المخزنين (العسكر) الذين يرافقوننا سيضلون لا محالة طريق العودة. هاهم يتوقّفون ويتناقشون فيما بينهم، وفي كل باب من أبواب الأحياء التي نمرّ بها يسألون عن الطريق ويطلبون من أحد العسس مرافقتنا للباب الموالي. وكل سؤال عن البلد نظرحه لأبناء المدينة يُقابل بإشارة من اليد تعني الاستسلام والعجز، للذين يميزان سمت المغربي ومعه الجهل الإنساني: «لا أدري!». ودليلنا، الذي يأتي لفاس خمس أو ست مرات في السنة، وسائسو بغالنا الفاسيين، لا يتعرّفون، من بين كل الصوامع التي تزين الصفحة الداكنة لفاس حين نرقبها من مقبرة باب الفتوح، سوى على صومعتي مسجد القرويين ومولاي إدريس. وحين يطرحون السؤال على المتسكعين الذين يغزون عند الأصيل المقابر وصخور الهضبة، فإنهم لا يجيبون جواباً. وبعد يومين من وصولي إلى فاس، صرت أنا الذي يعين لهم القبة الجبرية لجامع الأندلس، والذي يعلمهم أسماء الأبواب الشرقية للمدينة كباب الحديد وباب عجبة. والحال نفسه على الطريق، فلا الرجال ولا الدليل، الذين قاموا بهذه الرحلة أكثر من مرة، بإمكانهم أن يقدّروا بالتقريب مدّة كل مرحلة على حدة ولو بفارق ساعتين. تلكم هي العلامات الصغيرة التي يسجلها الواحد منا مباشرة، وهي ليست بأقلّ دلالة من الوقائع المدهشة التي تفصح عن نفسها لنا شيئاً فشيئاً. مثلاً، ما يتعلق منها بجغرافية المغرب؛ ذلك أن الوزراء يستقون معلوماتهم عنها لدى البعثة الفرنسية. والروميون أيضاً هم الذين يتم الرجوع إليهم بخصوص العدد المحتمل لأفراد قبيلة متمردة لا تبعد عن مدينة فاس سوى

بعشرين كلومترا. بل إن الناس هنا يجهلون عدد سكان فاس: هل يبلغون مائة ألف نسمة أم ثلاث مائة ألف؟ لقد صُرح لي بالرقمين، إذ لا وجود لإحصاء أو كنانيش للحالة المدنية. «لا ندري»، هكذا يجيب المخزن عن هذه القضايا التي تعتبر اليوم جوهرية له. يولد الناس ويموتون في أزقة المدينة القديمة من غير أن توليهم السلطات أي اهتمام يذكر، ومن غير أن يعرف المجتمع بوثيقة محررة رسميا دخول أحدهم لمدينة أو رحيله عنها. وبالشكل نفسه، لا وجود ثمة لسجل المحافظة العقارية، ولا لسجل تقويم الضرائب؛ فالضريبة تجبى من قبل فلاحين ينهبون من كل حي ما استطاعوا، مرة كثيرا ومرة قليلا. أما صرف المياه فيوجد هكذا من غير خطة وتبعاً للحاجة الملحة وبمساعدة الكلاب ونظام للميازيب والبالوعات يعود لتأسيس المدينة، ومن غير أن يعرف أحد كيف يشتغل على وجه التقريب. وهكذا، فإن الإدارة بكاملها أكثر عتافة وترهلاً من تلك الميازيب، وليست بأقل قدرة نظرا لتعاطيها للفساد والرشوة. لم أكن مخطئا حين رأيت للمرة الأولى أسوار فاس قبالة المراعي، أحسنت هنالك بشيء طبيعي عتيق، يرغمي في السهل البري الموحش، في شكل قشرة أرض تآكلت مع الزمن، باعتبارها نتاجا عفويا للحياة صارت مُتداعية، من غير أن تسعى أي إرادة بقفلة اليوم ومن الداخل إلى العمل على عودتها الحتمية إلى الطبيعة. في قلب هذه القشرة القديمة المتصدعة، لا تزال أوصال الحياة سارية إلى اليوم بإيقاع متسارع البطء والوتيرة. لكن ليس هناك من نظام يحكم الأشكال أو الحركات، ويتحكم في الولادات؛ والوفيات لا أحد يهتم بها أي اهتمام.

يكفي النظر إلى هذه الوجوه والأجسام التي تتحرك فيها بالكاد لكي يدرك المرء منا إلى أي حد تفقرت هذه المدينة وقرغت من قوتها الحيوية. وأنا أنفهم هذه الجمهرات من الناس الخاملين في أسماهم في جذر الأسوار الحصينة المتداعية. إنها تتلغغ بالصمت، وتجلس في جمود بليد لا يكف عن إدهاشنا. قد يقول قائل إن ذلك يعتبر أيضاً شغلا من الأشغال بحيث يلتقي الناس ليجلسوا بلا حراك، ويستلموا للأحلام والغفوات مع إخوانهم. ويتحرك سيل من الناس بشكل غامض من هذا الطرف لذاك من السور الذي يغلف وجودهم ويدفنه ويبهجه. في هذه الوضعيات السكنوية ثمة شيء يتحرك مع الغرائز ويجمع الناس في علاقات اجتماعية. كما أني أنفهم أيضاً حال الشيوخ والعجزة والعرجان الذين نصادفهم كل يوم في

زاوية الزقاق. وهم يسطون يدهم بشكل آلي من غير توقّف، وشفاهم تغمغهم رغبا عنهم اسم مولاي إدريس. إنهم أشبه بالموتى، ولا يخصصهم غير السكينة وشيء من الظل والشمس. لكن ما خطب هؤلاء البرجوازيين الشباب الذين يأتون ليقرفصوا في الممرّ الباهت الهادئ لحيناً؟ في الرابعة مساءً، ألاقي أحدهم هنا أو هناك يمشي محاذيا للسور بخطى وثيدة. وهو يكون ذا هيئة حسنة، بحايكه ذي الثنايا المترتبة بشكل منظم، والأصفر الفاقع لخدائه يلمع بطراوة. إنه يملك لحية هيئة قاض. وها هو يتوقّف هنا، عند أول مكان ملائم أو مكان ظليل، أمام شجرة برتقال مزهرة تتجاوز رأس السور. ثم يضع أرضاً بساط الجلدة الأحمر الذي لم ينس حله تحت إبطه، وينزل أرضاً بعد قرصة رجله. وحين عدنا في السادسة كان لا يزال هناك، وحيداً دائماً في الزقاق الخالي من المارة، أو أنه تحرك، لكن فقط لمتابعة انزياح الظل. ما الذي يستطيع أن يجعل فاسيا وشاباً من أعيان البلد وفي صحّة جيدة يتجمّد هنا في هذا الممرّ الكتيب كما لو كان في حبس؟ وجاءني الإجابة من رجل من مدينة تلمسان الجزائرية، فهذا الحي من الأحياء الراقية للمدينة التي تقطنها بورجوازية المخزن الكبرى التي اغتنت كثيراً بفضل الإدارة. وهؤلاء البرجوازيون، يعرفون أكثر من العامة تذوق طعم العقالة.

في الصباح، أفاق الكل متأخرين. وخلال ساعة، جالساً على أعقابهم، ظل يرتشف الشاي بالنعناع أو الحامض بتأنٍ وتؤدة قرب آنية الشاي التي يبيتها بنفسه. ربما كان قد راح للسوق لتقصي الأخبار، المعجزة الأخيرة لأحد الطامعين في العرش (بوحارة)، واغتيال أحد التجار على يد البدو. وغالباً ما بقي في بيته مستمعاً في خشوع للسفوفية الأبدية لانبجاس مياه النافورة، أو إحدى الزنجيات وهي توقع نغماتها على قيثارها الثاني الوتر في الرياض. وفي نهاية العشيّ جاءت الرغبة في القيام بشيء ما. حينها تأبط مربعه الجلدي، وبخطوات وثيدة سار لاختيار مكان في الظل في الزقاق الموالي وصار يتأمل غدو وزواح المارة والرومين الممتطين صهوات جيادهم مصحوبين بمساكرهم العائدين للمفوضية الفرنسية. وفي المساء، تناول عشاءه جالساً على الأرض فوق زريبة رباطية. وفي الأفران يحترق خشب الصنوبر مطلقاً لهيباً مزرقا. خدم شابات يأتين ويرحن ملامسات وجوه الضيوف، مثيرات في نفوسهم فكرة الليلة الساخنة التي سيقضونها معهن، ليلة عشق فاسية شبيهة بتلك التي تنتهي بها

مآذب السبياد⁽¹⁾ Alcibiade في جمهورية أفلاطون. وعلى حوض من النحاس تمتد الأصابع الجميلة وتحنى لتتغمس في المرق. الناس يكادون لا يتحدثون، ما هم أن يقولوا؟ فبعد لحظة سوف تظهر الغانيات الزنجيات من جديد ومعهن آلاتهن الموسيقية. وتسنم السهرة الصامتة إلا من توقيعات القيثارة، ثم تمتد إذا ما ظل هناك ضيوف حتى الساعات الأولى من الفجر، التي تفتح فيها الأبواب الست عشرة للحى، كي يتمكنوا من العودة لبيوتهم. هذا حين لا يتلقى الواحد منهم أو الآخر ملذات الليل التي تهدّ كيانهم وتجعلهم أكثر شحوباً، والتي يسهرون على أن تملأ الفراغ القاتل لحياتهم.

لقد أتبع لي أن أطلع على شيء ما من هذه الأماكن الداخلية وهذه الحيات. الطنافس والمجالس، وتلك الوضعيات المتكئة، وتلك الأرجل العارية التي تتشابك فوق الزرية الصوفية، في تموجات القماش الموصلي، والتي لم تحتد أبداً غير النعال الرقيقة، وذلك الدخان المنفوث ببطء كما لو كان نقت سحر، وتلك الموسيقى الفاترة والرتيبة التي تبيج الأعصاب في المكان نفسه: يا لها من دعوة للخدر والتوم المغناطيسي، ويا له من حمام تصاب فيه الإرادة بالبله. بيد أنهم لا يصابون أبداً بالممل، وهذا أخطر ما في الأمر. لو تعلق الأمر بأوروبي لكان أحس سريعا بالنخمة من هذا الحمول. إن ثمة غريزة زهد وبطولة حية ستجعل أحس واحد من بيننا يحس بوخز الضمير إذا ما هو انصاع لهذه الرخاوة الفاترة. في يوم ما قد يتكر لنفسه شغلا يشغل به يديه وباله، وسوف يجد فيه حافزا طيبا للقيام بمجهود ما. إن له احتراماً لكل ما هو حيوي وشخصي في ذاته، أعني قوته الإرادية، وتحكمه في الكائنات والأشياء. ثمة يكمن الاختلاف الجوهرى بين إنسيتنا وهذه الإنسية. وفي متم النهار، في الوقت الذي يقومون فيه بالترهة على ضفاف مجاري المياه محملين بطناجرهم، يهارس الأوروبيون ركوب الخيل في الفلاة، ولا شيء يبدو مبها لأهل فاس هؤلاء أكثر من هذا اللعب الذي لا طائل من ورائه. وإذا كان من بيننا من يكرهون الحركة ولا يرغبون، كما المغاربة، في المشي إلا بخطوات وثيدة تشبه خطوات البغال النائمة، فهم الأوروبيون المقيمون هنا من أمد بعيد ويلبسون البرنس والجلباب، والذين تأثروا عميقا بعوائد الأهالي.

ومع ذلك فإن هؤلاء يحافظون على العناية الذهني، وهم يقرؤون ويكتبون، ويظل

(1) أحد مشاهير الأرستقراطية الأتينية. عرف بجماله وفصاحته في مرحلة الشباب. ثم صار تلميذاً وصديقاً لسقراط.

فكرهم على علاقة مع أوروبا من خلال المجلات والكتب. أما فكر الفاسي فإنه ينحصر بين حيطان فاس، في المدينة البالية التي لا تتواصل مع العالم لا عبر طرق برية لا تقطعها غير الدواب. وحتى الثقافة العربية القديمة التي كانت فاس المدينة الوحيدة الحافظة لها بعد سقوط غرناطة، انتهت إلى الموت من فرط الفتور. يتحدثني بعض المسلمين عن القرويين، وعن جامعتها وعلماؤها وفقهائها وطلبتها، لكن إذا كان ثمة من علم واحد من ذلك لا يزال حيا، فهم لا يستطيعون تحديد ما هو. كل شيء يختزل في القرآن والتفاسير والبيان والشرعة، أي القرآن مرة أخرى، وفتاوى الفقهاء الشهيرين، ودراسة الآيات التي تستعمل خلال النزاعات. وثمة مهمة خطيرة يقوم بها العلماء تتصل بالفتوى التي يطلبها المؤمنون للنظر فيها إذا كان اللجوء للأطباء الأوروبيين مباحا: فبأمر من السلطان، قام العلماء بالبرهنة على أن كرامات الروكي بوحارة ضربت من الشعوذة، ونظموا القصائد في هجائه، وبحثوا في القرآن عن الآيات التي تنكر السحر. أما الطلبة، فأنا أعرف كيف يتسلون، وهو أمر كاف كي أستنبط منه كيف يشغلون. كانوا البارحة يسرحون ويمرحون في الأسواق، في مواكب صغيرة تتبع جوقة موسيقية ركيكة وهم يطلبون الصدقة في طست. لقد بدأ حفلهم السنوي⁽¹⁾، وهم يعكرون خارج الأسوار حول سلطانهم الكرنتالي. ذهبت لأراهم فلم أعاين شيئا أكثر كآبة من حفلهم. كانوا على شط وادي فاس، يجلسون جماعات جماعات، بعضهم يقلي الإسفنج، وآخرون اللحم من غير كلام، والآخرون كانوا منكشئين على أنفسهم يتأملون المرعى.

الكل الكوني يؤدي إلى اللأمانة الكوني. إن حال هذا المجتمع يشبه حال بعض المرضى الذين يفقدون أخلاقهم بمقدار ما يصيبهم الوهن. لهذا فإن الإنسان المنهك حتى النخاع يكتسز قوته على حساب واجبه الأخلاقي. ولأنه في فقر مذقع، فإنه لا يبذل جهداً، ومن انحسار ذاته هذا لا تبقى غير الغريزة الأنانية باعتبارها أكثر جهورية للحياة من الغريزة الاجتماعية. وفي الآن نفسه تنفصل التركيات الأخلاقية عن الإرادة التي تقوم بدور المقاومة والتسيق، فيقط ضحية الأمزجة والأهواء ويبدأ في تحسيد مبدأ الفوضى الذي سيعدي به مجموعته الاجتماعية. على المرء أن يأتي إلى هنا ليتأمل عميقا في المثل التي نادى بها كارلايل

(1) يشير شوفريون هنا إلى ما عرف بالمغرب بحفل «سلطان الطلبة»، الذي كان ينظم كل ربيع لمدة أسبوع. وهو عبارة عن كرنفال يتحول فيه طالب متحجب إلى سلطان، ويحتفل فيه الطلبة بعيدهم السنوي. وقد حظّر هذا الحفل سنة

Carlyle وروسكن^(١) Ruskin للمجتمعات الأنجلوساكسونية. وحين نرى نقيض تلك المثل متحققة في أرض الواقع، فإننا ندرك أن خيرات شعب ما الوحيدة تتمثل في كمية حياته المنظمة المطبقة على الغايات العامة بحيث يكون كل فرد مسرورا بدفق طاقته، متلقيا من العائلة والمدرسة والمهنة والدين الأنظمة والآداب المكتملة التي تساهم في تناسق المجموعة التي ينتمي إليها، وتتحكم في استعمال تلك الطاقة وتسمى بها إلى القيام التام والحميم بالواجب. إن الانطلاق العفوي للإنسان نحو المهارات المعتادة، التي يحبها ويحترمها لذاتها، وإلى المهمة اليومية التي تسمه بطابع اجتماعي معين، والتي تكون وراء جماله وكرامته، هو العنصر الحيوي لشعب ما. وإذا كان روسكن يضيف لموعظة كارلايل نصيحة الراحة واللهو، فذلك حتى تتراكم من جديد قوى العمل والاهتمام. في المجتمعات الأكثر خمولا يتبقى دوماً شيء من قبيل ما يسمى الخير الاجتماعي، أعني مثلاً عمالاً يهتمون بالصالح العام، وجنوداً متفانين في خدمتهم، لكن خمول المجتمع وقصوره في المغرب وصل إلى حدّه. لتفحص هذا العالم الذي يبدو جوده الغريب جيلاً بحيث تقارنه بالعمل الذي لا روح فيه، وبهيجان جماهيرنا في الغرب، وستتعرف حينها على الرائحة المنبعثة منه. إن له جلالة الجثمان، والفنان منا لا يرى أولاً سوى تلك الجلالة. قبل أن تتعرف على هذا البلد، كنا نرغب بحماس في ألا يأتي رجال الصناعات والقاطرات كي يكسروا هذا السكون وهذا الجمود العتيق، وألا تغدو فاس ما هي عليه مدينة طنجة اليوم، بخليطها من الإسبان واليهود والمارسييليين، وإعلاناتها الصارخة وكل هذه الغوغاء التي لا يُعرف مصدرها، والتي يتفادها المسلمون بالانزواء في ذكريات العصور القديمة واليباض الأبي لقصباتهم^(٢). لقد تمكنت، في هذا القبح المظرد للعالم الذي تمارسه الحضارة الصناعية التي نسميها الحضارة، أن يظل هذا البلد بعيداً عن آثارها، وأن يستمر هنا إلى الأبد العصر الوسيط الإسلامي بعقيده وأشكاله الأصلية، والحلم الخاص لجهايمره، وهو حلم حرّ لن تحد من مداه أي هيمنة أجنبية. لكنني انتهيت إلى أن أدرك أن كل شيء أفضل من هذا الجمود والتحجر الراهنيين. فهذا المجتمع قد يستعيد

(١) طوماس كارلايل (١٧٩٥-١٨٨١) كاتب سجنالي ومؤرخ إنجليزي كانت لمؤلفاته آثار عميقة خلال المرحلة الفكتورية. وجون روسكين (١٨١٩-١٩٠٠) كاتب وشاعر ورسام وناقد فني إنجليزي. وكان شوفر يون متأثراً بهما وبأنكارهما، كما بأسلوبهما في النظر للحياة.

(٢) الفصبة عبارة عن حصن أو قلعة تخصص لإيواء الجنود. وهي في فاس توجد قرب أبواب المدينة.

رعشته وحيوته بالتهام مع الحياة الأجنبية. وعلى كل حال فإنه لن يخسر شيئاً لأن الموت هو الحال الذي لا يمكن أن يتزايد خطره. وما هو عليه حال المغرب اليوم، لا تكفي النظرة السريعة لمعرفته، ذلك أن شكله لا يزال هو شكل الكائن الإنساني الحي. علينا أن نتوصل إلى معرفة باطنه؛ أن نعرف كل شيء عما يقوم به الوزراء والعمال والخلفاء والمحاسبون من سلب ونهب من أموال الضرائب التي يمتثلونها، أو يجبرونها على هوائهم، بحيث يعملون الفقراء من الناس يدفعونها في الأول نقداً ثم ثانية عينا، وذلك قهراً بالعصا والسجن. أن نعرف أن من نتيجة ذلك البغاء العام، الذي تشجعه السلطات لأنه يدرُّ عليها أرباحاً من شهوات الرجال. وعلاماته ظاهرة في فساد هذه الأجسام التي لا تبدو جميلة إلا لأنها مكسوة، وكذا في حال الرعب الذي يعيشه من فترة لأخرى الناس الحضريون خلف أسوارهم المتهاكمة، كما في عجز الجيش والغرضى المزمعة التي يوجد عليها. الضباط يسرقون قوت جنودهم، والجنود يبيعون للمتمردين خراطيشهم وينادقهم، ويفرون من الجيش متى شاؤوا. وعلى المرء لتفحص هذا الفساد والانحلال أن يستشير، كما فعلت ذلك، الأوروبيين المولودين في البلاد أو المقيمين بها من مدة، والتجار ورجال السلطة الفرنسية، والضباط الفرنسيين والأطباء، لكن أيضاً المسلمين الجزائريين المقيمين بطنجة والقصر الكبير أو فاس، الذين لا يتحدثون إلا عما يرون بسخرية ومقت.

وإذا ما اقتصرْتُ على ما صادفته عينا في خلال بضعة أسابيع، فإنني أسجل الوقائع التالية. في ليلة وصولنا، أعلنت مصلحة البريد أن بريد طنجة قد تعرض للثلب في الجبل الأحمر. وهو ما يحدث هذه الأيام مرة كل أربع رحلات. وبعد بضعة أيام أبلغ المخزن الأوروبيين أن حياتهم معرضة للخطر مهما كانت الحراسة المحكمة حولهم إذا هم جاوزوا الأسوار بعد السادسة والنصف. ويومين بعد ذلك، على الدرب المحاذي للوادي قرب باب «سيدي بوجيدة» قُتل أربعة أشخاص في وقت المغرب، أي في الأصيل الرائع وقت بداية الإظلام ذي المسحة الذهبية في بلاد المغرب. إنه وقت الخوف أيضاً. وبما أن البادية تكون خلاة فإن قطاع الطرق والسارقين الذين يدورون على مبعده من طرائدهم، يتقدمون منها بمجموعات صغيرة كني آوى الذين يختفون نهاراً، ويباغتون الدواب والناس، أي كل من لم يحتم بعد نفسه داخل الأسوار. وهم يتجاسرون منذ السادسة قرب وادي فاس، ويتقدمون وهم يتوارون

خلف الصخور واليساتين ومرتفعات النهر، مترصدين المارة، مراقبين طرائدهم في خفاء. لذلك فخرسنا يعلمنا كيف نتعرّف عليهم، ويصفون لنا هيئاتهم والحركات والإشارات التي تحون مقاصدهم. نحين نبصر بمجموعة مشبوهة من الفرسان علينا ألا نتركهم «يقطعون» بيننا وبين المدينة، وأن نتفادى المرور على يسارهم، أي من الجانب الذي يمكنهم منه لكي يطلقوا النار من غير أن يتحركوا من على صهواتهم فقط أن يصوبوا وجهتنا فؤاهات بنادقهم. وإذا ما نحن تسلحنا بهذه التكتيكات المتنوعة يمكننا التجوّل بأمان. نحن في الحقيقة أقل تعرّضا للخطر من بورجوازي فاس؛ فقطاع الطرق البربر هؤلاء ليسوا أناساً متعصبين، وهم لا يمقتون الرومي، وليس لهم على أي حال ما يسلبونه منه. ما الذي سيفعلون بسرجه الذي لا يتوفر على متكأ وبركابه الأوروبي؟ إن طريدهم الأساس هي فاس، فاس المحتضرة التي يمنعونها من التواصل مع الجنوب، ومع مدينة مكناس القريبة جداً منها، والتي تحتم علينا التخلي عن زيارتها. وفي العديد من المرات استطاعوا تجاوز الأبواب الكبرى، والمرور تحت قوس وقب باب المحروق، التي لا نفزعهم الرؤوس المعلقة فوقها من زمن. وفي الحال يتم إغلاق الأبواب الكبرى التي تعزل الأحياء الستة عشر للمدينة، لكن الأسواق الأولى تظل تحت رحمتهم.

قبل ستين، ظن أهل فاس أن ساعتهم حانت. فقد عرفت فاس رجّة حول يهودي تجوّل في فاس على ظهر جواده، وهو مطية ممنوعة على اليهود من أمثاله. وفي الساحة الكبرى لـ«بوجلود»، الفاصة بالناس على عاداتها وبالمسكرات والمتجولين، نفّر الجواد وصدّم أحد الصلحاء المتسولين الذين كانت الناس تهرع لتقبيل يده عند مروره. انتزع اليهودي حينها من على مطيئته، وضرب ضرباً مبرحاً ثم اقتيد إلى حظيرة مليئة بالتبن ورش بالغاز وأضمرت النار فيه حياً. بعدها، بدأ اقتناص اليهود الذين تحفّضوا بالملاح. وساعتين بعد ذلك وصلت جحافل البربر قرب السور، فقد بلغهم أن الملاح سيتعرض للنهب. وكما السماء التي غمّلت بالطيور الجارحة عقب معركة قاتلة، والتي لا يعرف المرء من أين هي آتية، بدأ هؤلاء البربر عملية النهب من غير أن يعرف أحد من أين وصلهم الخبر.

هنا نعيش ذروة الأمر، قبل غبار التحلّل الاجتماعي ورماده. بيد أن كل بلد من البلدان الإسلامية يعرف مشاهد من قبيل هذه: الجمود الكبير الذي لا تكسر رتبته سوى النشاطات

التي تمنح الموت. ونحن نخال أن العقيدة هنا، بعد أن كانت وراء مجتمعات ذات نمط معين، أصبحت خيرة خففت طاقتها. وبما أن ذروة التطور قد بلغت، فإن التغير لا يتم إلا نحو الانحطاط، ولا شيء يبقى إلا بقوة الجمود المهيمن، ليأكل بأثر الأفعال الخارجية، ويتفجر بالمسمى الداخلي للتفكك. وفي المدن كما البوادي، كل شيء يحمل السمة المادية للموت: الخراب والتآكل والأراضي القفراء، والأسوار المتداعية، والدور العتيقة التي تنهار، والخراب الذي يختلط بالصخور، والمقابر الرائعة المهملّة تحيط بها يعيش ذروة الانحطاط. وليس ثمة من قوة تشكيلية لممارسة البناء وتنظيم المادة الميتة انطلاقاً من المادة الجديدة. في المجتمع كما في كل نفس، حين يكون كل شيء قد تكوّن وتبلور سلفاً تبعاً لقانون معين، فإن كل إمكانية لتشكيل جديد تغدو أمراً متكرراً، وكل سعي نحوه يصبح أمراً غير مقبول. لبست فقط فكرة الشكل الجديد هي التي لا يمكن تصوّرها، بل إن إيصار شكل أجنبي لا يثير غير رد الفعل العدائي. إن النموذج الأوربي ليس له من سطوة على عقول من قبيل هذه. فهي لن تعمل على الشمو إلى الرّفعة المعترف بها، سواء بشكل متهوّر كما هو حال البنغاليين، أو بشكل ناجح كما هو حال اليابانيين. وحال هذا العالم هو حال الأنواع الحيوانية التي بلغت، بتلمّس الأشياء وبالابتكارات المتتالية، إلى أنظمة من الغرائز الثابتة. وهذه المخلوقات لا تعترف بتردد الإرادة التي تكون أمام الاختيار، غير أنها مثلها تلاءم بصعوبة مع المحيط. وإذا كان لتلك الكائنات أن تصوغ أخلاقاً ما، فإن ضروراتها الفتوية ستترجم سلوكها الآلي.

إنه حال العالم الإسلامي حرفياً. ثمة شيء وحيد يمتّعه هو التغير. ومن ثم، ومن ثم فقط رفضه قبول أدوات حضارتنا. لا يتعلق الأمر، كما يمكن أن نعتقد، بنتائج السكة الحديدية التي يرمونها، ولكن بالسكة الحديدية التي لا يرغبون فيها. إنها ابتكار لم يأت ذكرها في القرآن. وهي لا تشكل جزءاً من المجال أو الكون الإسلامي، فهذا الكون خلقه الله مرة إلى الأبد، وهو يوجد في الزمن في شكله ذاك، وإذا ما كانت تظهر عليه هنا وهناك علامات التلّف، فلا ضرورة لتجديده بالاختراعات. المسلم كائن لا يتصوّر أن الاختراع أمر ممكن. وقد صادفت على ظهر إحدى البواخر السورية شيخ إحدى القبائل البدوية، استجاب لأول مرة للدعوات المتكررة لسلطان إسطنبول، فقرر باحتراس شديد أن يسير إليه لمبايعته. إنه رجل لم يغادر أبداً صحراءه التي تمتد من الشرق إلى دمشق. والمدن الكبيرة التي توفقنا بها

كبيروت، تركته في حال من الحلم الروحاني. كنا نراه يغمغم: «يا لعدد الآبار. الله أكبر». وقد اعتقدنا أننا سندعشه حين أريناه آلات الباخرة: فلا شيء يمنحنا فكرة رقيقة عن القوة المنظمة أكثر من الدوران الهادئ والمنظم لهذه القطع المائلة من الحديد. لقد أصيب بالدهشة لكنها ليست مختلفة عن الدهشة التي اعترته أمام البحر أو أمام الآبار المتعددة في بيروت. سألنا الشيخ إن كان هذا الشيء العظيم من مخلوقات الله، أو أن الأسلاف قد وجدوا وصفا له في القرآن. هي ذي وجهة نظر المسلم التي تنكر من إنسان اليوم أن يقدم الإضافة للعالم المعروف من إنسان الأمس. وطبعاً لا شيء يصرّح به بدقة: فلا يقال مثلاً إن الآلات الإنسانية هي من عمل الله أو من وحيه. فسواء تعلق الأمر بدولاب الغزل أو بحذاء أو بسور مسنّن، فكل ذلك ذو مصدر غيبي لا يصله فضول الإنسان، أي أنه ذو مصدر إلهي في نهاية المطاف، كما الزهرة والطائر اليوم، اللذين يتعلقان باشتغال الزمن في سيرورته. كل هذا يؤلف نظاماً قائماً حيث كل جيل من الأحياء يأخذ دوره في الحياة. أما أن يتفكك هذا النظام، فذلك أمر يخص الخالق الذي يبيحه. وما الذي يستطيعه الأحياء غير الاستسلام والإيمان به أكثر فأكثر؟ إن هذا تصوّر الروحي الإسلامي متأصل جداً بحيث أعثر عليه فجأة حتى لدى المسلم الأكثر تأثراً بأوروبا، كذلك الموظف الجزائري في بعثة لفاس، وهو أحد أبنائنا المرئيين بالإشارة والحركة بحيث لا يبدو شخصاً متميّزاً.

لكن أحياناً يتبدّى لنا العمق الغني. لقد سمعنا موسيقى مغربية رائعة وقديمة، فسالنا إن كان الموسيقيون لا يزالون ينظمون الشعر. أجابنا أحدهم: «بالأكيد». وأضفت: «ويؤلفون الموسيقى والألحان والمقاطع؟». فعبّر عن اندهاشه: «تأليف الموسيقى؟ لكن لماذا؟ الموسيقى المغربية والأندلسية موجودة وأنا أحفظها كاملة في كتاب. وهي تتكون من خمس وخمسين مقطوعة، وكل واحدة تدوم ساعتين مع تنوعاتها. وأحياناً، في بعض الحفلات، نعرفها كلها لمدة أيام، لكن ذلك يأخذ وقتاً طويلاً، فالموسيقى الأندلسية تدوم مائة واثنين ساعة...».

بما أن أول وصيّة أخلاقية تتمثل في عدم التغيّر، يدافع هذا المجتمع عن عيوبه ونقائصه باسم الأخلاق. وقد حكى لي الكولونيل الإيطالي الذي يشرف هنا على مصنع السلاح الحكاية التالية: لقد رفض محاولة من النحاس تحمل أكثر من ثلاثين بالمائة من الأوساخ، فجاءه وزير الحربية مستفسراً عن السبب، فأجابه الأوروبي: «إنها لسرقة، لا يمكن أن يتجاوز

ذلك حدّ ستة بالمائة». فأجابه الوزير: «آه، إن ذلك قاعدة أوروبية، لا قاعدتنا؛ ففي المغرب يحقُّ لنا أن نتَّبِعَ قواعد المغرب!». ذلكم هو الرأي المبتسر الناجم عن الجمود. كان من شأن نشاط الجهاد في الماضي بناء المجتمع الإسلامي. وبعد بنائه، أصبح المهمُّ الأساس متمثلاً في أن يظلَّ إسلامياً. إنها أخلاق ذات طابع شرعي حصراً، تنكح بكاملها على الشعائر والأذكار، مثيلة لما صار عليه مجتمع إسبانيا لو أن محاكم التفتيش هيمنت عليه، وعوّضت أحكام الرب بالأحكام الوحيدة للكنيسة. أما في المجتمع الإسباني فإن الجهاد كان مُهيمنًا. لقد حوكم ابن رشد وتوفي في المنفى، واضطهد الفكر المستقل، ودُمِّرت المكتبات التي كانت تحوي الإرث العلمي والفلسفي لبلاد اليونان ونصوص الإسكندرية، ومعها الترجمات والشروح التي سوف تخلخل بعض الصفحات منها التي نسخها اليهود وتأملوها في البلاد المسيحية، كي تمنح لفكرها فتوة دائمة. لقد أحرق علماء قرطبة أكثر من خمسمائة ألف مخطوط أمام جامع قرطبة، فانتصر الجامع ولا أحد صار يناقشه في السيطرة على النفوس. وهكذا صارت الأجيال المتوالية متشابهة في سلوكها ومباحثها وعلومها الجامدة، مجترّةً لصورة لا تتغير. وصار الخير محصوراً في تلاوة الشهادتين، وفي عمارة الشعائر وتكرارها، تلك الشعائر التي تميز المسلم عن غيره. هذه الأخلاقيات هي ما نجده في مدينة فاس.

حين ضُبط أحدهم متلبساً بممارسة الجنس الخسيس، اتسم له صحبه، بل حيّوه على فحولته ونكثوا عليه. ولو ضُبط وهو يدخن علناً في الشارع العام في يوم من أيام رمضان لتعرّض للشق. الآن أدرك أفضل هذه الهيات الجنائزية، وهذا الشحوب الشبيه بفقر الدم، وتلك النظرات الغامضة والحائرة، التي يمكنها أن تصير فجأة نظرات عدا. وهي تصير كذلك حين يُمس في النفس الخيط الوحيد الذي يجمع نواة الحياة. فعل عكس البدو، الذين يختلط لديهم الإسلام بعبادات بدائية، والذين لن يهاجروا الرومي إلا لكي يسلبوا منه أتاوة ما، يبدو أن الفاسي يغدو خطيراً على الأوروبي بتعصبه الديني. لا يتظرّن أحد منكم أن يتلفى منه السباب والشائم، ولا الحركات العنيفة، لكن احذروا هدوء هذا الشعب. حين يتجول أحد النصاري كثيراً حول ضريح مولاي إدريس، أو يمر عاذياً لمجموعة من الأشباح الباهتة المتحلقة حول عالم من العلماء تسمع لمواعظه، سوف لن يتبه لخنجر موجه له خارج الغمد، من غير أن يكرس ذلك حال الصمت والسكينة في المكان...

ومن بين الأسباب الخفية إلى هذا الحد أو ذلك، التي أوقفت فجأة مسير تطور هذا العالم، ثمة واحد يبدو بديها هنا، وهو مبدأ إجهاض تحمله المجتمعات الإسلامية في باطنها منذ تكوّنهما. وأنا أتحدث هنا عن الأخلاقيات الجنسية للإسلام، الذي لا يرى في الحب غير وظيفته التوالدية والمتعة الجسدية، ولا يضبط المرء ويوجهه بل يدفعه إلى المتع المباشرة والبسيطة. وعن ذلك تنجّم العديد من الآثار والتأثير. وهكذا فإن الغريزة الفطرية حين يتم تشجيعها تقف عند حدودها كغريزة. ليس ثمة من تعاليم تعوقه وتضطرّه من ثمّ إلى التحول إلى فكر وإرادة. فمتى ما ظهرت الحاجة الجنسية يتم إشباعها. وهو أمر عقيم من الناحية الروحية لأنه لا ينتج إلا إشباعاً جسدياً يتم تدريسه منذ البلوغ المبكر. ومن هذا الهدف المركزي للحياة، لا شيء هنا يتم إلا من خلال الجسدي. والخيانة الزوجية بفاس أندر فيها من الخيانة التي تروها الروايات الباريسية، لكن ليس ثمة من «جسيم العواطف المزروجة»، وليس فيها من «متانة تعقّد عواطف القلب». وقد فتر لي أحد المسلمين كيف تتم تلك الحبكات العاشقة التي لا يمكن أن تُتصور بدايتها في بلاد تعيش فيه النساء معزولات ومحجبات من الرأس حتى أخمص القدمين. لا شيء أسهل من تلك المغامرات. فحين تحتاج امرأة للمال، أو أنها تضيق ذرعاً بمللها، فإنها تحلم بالمتعة. وهكذا تُسرّ بذلك لمزيّنتها، أو لبائعة المجوهرات التي ترتادها، أو لأي امرأة لها التجربة المطلوبة. وأغلب النساء العواجز بفاس يشتغلن بهذه الأمور. وفي إحدى الليالي، وفي الموعد المحدد، يقطع أحد الذين أغروها الزقاق، بعد أن وصل إليه قافزاً من سطح بيت إلى آخر، ويستقرّ في سطح بيتها، كقط يشبع رغبته بشكل سريع وأولي. أما أرباب البيوت، الرجال من الأعيان الموسرين، ذوو الحايك الكبير الذي يلفّ جيّداً أجسامهم، الذين يكرهون الليل كما ضربات العصا، فالأمور أسهل لديهم. إنهم يروحون بشكل محترم لفندق العبيد كي يختاروا واحدة من بين الزنجيات الأماط المكتنزات ممن يرغبون فيها، باعتبار أن أهل فاس معجبون بهن أياً إعجاب. ويضمير لا يتحرك، يتحنّسون اللحم الغامق ويؤامون في الثمن، ويضعون أصابعهم في أفواههن للتأكد من صحة أسنانهن. وتبعاً لحجم ثروتهن، فهم عادةً يسمون إلى تجديد عائلتهن النسوية بهذه الطريقة، بشكل إنساني وأبوي، لأنهم لا يعيدون من ذاقوا عسيلتها أبداً إلى السوق، بل تظل تعيش بين ظهرانيهم، خادמות للزوجة الجديدة يُساعدنها في أشغال البيت.

هؤلاء يقدمون المثال في الفضائل البورجوازية وفي ضرورة عتق الرقاب وتحرير العبيد الذي نادى به الإسلام. إنهم أغنياء لأنهم مؤمنون متعبدون عليهم نعمة الله وبركاته. وقطف ثمار الشهوات هو جزاء المصلين وأصحاب الشُّبُحات والشرفاء أي أولئك الذين يبارك الله نفوسهم. وذلك الذي يخرج من بين أذرع الزنجية يمكنه بعد الوضوء والتلفُّع بالبرنس الأبيض أن يحمّد الله على نِعَمه. لا مُتْع إلا مُتْع الفرج والبطن، ومن بين مُتْع الدنيا التي خلقها الله لتجميل حياة الإنسان وإضفاء الخير عليها، فإن تلك هي الأكثر عمقاً. يا لها من مسافة تفصل بين أخلاق من قبيل هذه ونصوراتنا الأوروبية. ويمكننا أن نحكم على ذلك بهذه القصة التي عثرت عليها مكتوبة عن أحد أولياء القصر الكبير. كان سيدي فَضُول⁽¹⁾ خديباً ومريداً لسيدي الحاج العربي شريف وزان منذ ثلاثين سنة. وحين كان الشريف يوماً في مدينة تطوان، حيث يعيش حياة البذخ والترف، وبعد أن نفذ ما كان يملكه من مال، أبصر في سوق النخاسة زنجية أعجب بمنظرها وتاقَت نفسه إليها فرغب في شرائها. فأسرَّ لخدمته فَضُول بحرجه فأجابه هذا الأخير: «بِعني أنا إذن». وبعد تردّد وحيرة، أجابه الشريف إلى طلبه، وبيع المريد فَضُول بمقدار هام مكن الشريف من الحصول على الزنجية. إن هذا التقديس الكبير للولي الصالح، وهذا الاهتمام الصادق بهموم بدنه، هي فضائل تجعل المريد ندّاً للولي. لهذا نعت الناس فَضُول بـ«المربوط»، وصار الناس يلتصقون بركته في الأزقة والشوارع. إنها علامة يتعذّر تفنيدها للتوحد بالخالق، وبامتلاك قدرات خارقة تمكّنه من ارتياد جنان الله مع الصالحين. فصار الرجل مجنوناً، وجثمانه لا يزال لحْدَ اليوم مرتعاً للكرامات في القبة البيضاء لضريحه بالقصر الكبير، التي يسهر أهلها بتفانٍ على تقديسه وصيانه.

إن حب الزنوجة هذا يفتح للفكر آفاق جديدة. وبما أني رغبت في أن أستكنه منه المعنى والنفسية، فقد تحدّثت في ذلك الأمر مع أحد أهل فاس، الذي أجابني: «وما الذي تراه غريباً في ذلك؟ كان الشيخ ولياً صالحاً، غير أنه كان كائنًا بشرياً، وربما كان زاهداً في أمور البدن لمدة طويلة. وبما أن الشهوة طاولته وألحت عليه، فلم يعد بإمكانه التفرغ للصلاة. فوقع بصره على تلك الزنجية وتملّكها، فدخلت السكنية إلى قلبه، وصار قادراً على القيام بواجباته وتلاوة الأذكار، والقيام بالمواعظ والخطب، فصارت حماته أكثر ذلك اليوم لأنه أضاف لها حمده لله

(1) المعنى هنا هو سيدي فضول المساري الكتوني.

وشكره له، لأن الله لا يحمل عبده ويمجري الماء في الصحراء ليروي عبده منه.

ما الجواب على هذه التصورات العقلانية للإكراهات البدنية؟ ليس على المرء سوى الصمت والتمنع بأن يرى في وضوح هذا المثال علّة. وهي من بين تلك العلل التي كبحت التطور الاجتماعي منذ زمن. إننا هنا أمام ديانة صارت اليوم مجردة من عناصرها القديمة التّسكية، التي تبلور بشكل لاواع عمق مثلنا وتوجه حياتنا نحو شيء آخر غير اللذة. بل إننا أمام أخلاق لا تدفع الإنسان إلى تجاوز ذاته، وتتركه كما الأشياء ضحية قوى الجمود، ولا تعود إرادته سوى على الحركة في المسارات المشقة.

لنصف أخيراً الآثار المباشرة والأكثر بداهة، كانحراف الطاقات الحية لصالح وظيفة واحدة. من المحتمل أن قوى الأمل والفرح، والنجاح المستمر لشعب ما يكمن في زهده عن ملذات البدن. وهنا بالضبط يكمن «تفوّق الأنجلوساكسونيين». فلدى هؤلاء، فضلاً عن اللعب في الهواء الطلق، ثمة قانون أخلاقي صارم، ورأي عام حازم، وكلها عناصر تفرض على من يتخلّى عنها أن يتوارى عن الأنظار وأن يقاوم الحرج والإكراهات بالنفاق. لكن في فاس البشعة هذه، في مدينة الظل المتلفعة بالتقوى والورع والمنصاعة للجمود والانجاس، يحتفل الناس هنا بعيد ميلاد ابنهم الثاني عشر، بأن يشتروا له أمةً سودانية. وهذه الزنوجية تكون هي علاقته الجنسية الأولى، كالساعة الفضية التي تُمنح في فرنسا للطفل عند تناوله القربان لأول مرة. وحين يُدرّك مبدأ الحياة على هذه الشاكلة فإنه يغدو مبدأ للموت، ينضاف للمبادئ الأخرى ليحول هذا الشعب إلى مومياء رسمية هي التي نرى بأم أعيننا.

عادة ما يحدث أن أخرج من باب الجديد، كي أسير بتؤدة بجانب الأسوار الأكثر قدما للمدينة، نحو الهضبة المحروقة بالصخور والقبور التي نراها في الشرق من سطح دارنا، والتي تنتهي معها المدينة هناك.

ومن زقاق «عقبة الفران» تتبع منحدرات تجعل السير صعبا، بحيث تنزلق قوائم الفرس وتندق بنرفزة الحصى في الطرق مكشّرة الصمت الجنازري. ودائماً ذلك الانطباع الروحي الذي لا يمكن أن نتخلص منه في فاس. لم يكن المخزن بحاجة لإنذارنا، فالأشياء تتكلم، وهي تكثر علينا ضرورة الحيلة والتحفظ وأنه علينا عدم التجول هنا بتروق وتهوّر. في المدينة التي لا يكف حصارها عن جرح أرجلنا يضطر حرسنا إلى حملنا كما البورجوازيين الفاسيين على البغال. إنها دواب خدومة ذات مشية وهينة تأملية كما أهل فاس. ونحن لا نمطى الأحصنة إلا للعدو في البادية. وهذه الأزقة التي نعبها خالية بحيث لا يمكن أن تقع فيها الفضائح. أحيانا فقط نصادف رجلاً حالماً متكئا على الحائط. وهو يخرج رأسه من البرنس ويرفع نحونا وجهه الشاحب لكي ينظر إلينا بعينين خافتين لا أثر فيها للتفكير أو الإرادة. كان أحد فرسان السلطان يقودني في التشابك المتعرج للأزقة. يسير أمامي بتؤدة ومرونة فوق صهوة جواده. ظللنا نسير في هذه الأقبية الباردة من غير أن تبادل الكلام، دائماً على المسافة نفسها التي تفصل بيننا. لا يستدير أبداً نحوي، لكن حين يدخل في منعطف يميناً أو شمالاً أبصره جانبياً. إنه شاب ذو نخوة وكبرياء ونظرات نارية، وشفاه منشبتان على مينا أسنانه. الجيد والوجه المتهاusk ذو الطابع المصري (كما هو الحال لدى البربر) قمحي وسط البياض الخشن للبرنس والرّزة. والرجلان تُني منهما السروال حتى تدخلنا بحذائهما البالي في الركاب الواسع البدائي. كانت بندقيته موضوعة مقلوبة أمامه على السرج، وهو يتماوج ببطء على سرجه المائل على إيقاع خطو فرسه ساكناً لا يتحرك، رافعاً الرأس، مترصدا كتمر على أهبة الانقضاض على طريدته. يا له من حيوان صيد رائع! إنه أحد عساكر «الجيش» (من قبائل الشراقة أو الشراودة) الذين لم يروّضوا بها فيه الكفاية، بحيث قد يديرون الظهر في أول فرصة

تتاح لهم لأسوار فاس وأبراجها، من غير أن يجسر السلطان على متابعتهم، كي يمنح دَوَّاره البندقية التي ستصلح لهم في غارات النهب والسلب.

منحدرٌ أخيرٌ وها هو الزَّبيع بلهيه الأخضر ينبع في كل مكان من أشجار الصفصاف. وعلى مقربة من هنا، أكملت جثة الفرس تعفُّنها بحيث لم يعد ذلك الهيكل العظمي ذو الطراوة العجيبة نشازاً في هذه الطبيعة التي استعادت عفوانها. لم نخرج بعد من أسوار المدينة ومع ذلك يخال المرء منا أنه على جنب غابة، وبخاصة التواريق الواضحة لأشجار الصفصاف المائي المتهاوجة والمنبتقة في لون أخضر عمر بين أشجار الصفصاف والثَّم. أما الأزهار، فمنها الرؤوس القرمزية لأشجار الرمان، والدَّودية البيضاء كما الفراشات في وسط أكمام القصب وعلى الحواجز. في كل مكان ثمة العطور التي تحمي العظام وهي رميم، المنبثة من الأرض المبتلة ومن العشب الصغير ومن إزهار النباتات. إنه الربيع المبكر لأفريقيا الذي يسبق ربيع فرنسا بشهر كامل، أعني ربيعنا في شهر مايو/ أيار الذي يكون قوياً ومنطلقاً نحو الصيف، ووافر العشب بعد التردُّد الأولي، والرعشات الباهتة لشهر أبريل/ نيسان.

ماء جارٍ زلال يتوارى وراء أكمام أشجار الرمان وتواريق القصب. والدرب الذي نسير فيه ينتهي إلى ضفَّته. يبدو نهراً من أنهار ضواحي باريس، نخاله نهر اللوينغ⁽¹⁾ Loing في أيام عفوانه، يصطبغ بشكل عجيب بكل ما يتعكس عليه، منغمس خفية في كثافة رخوة من النباتات والأعشاب والأحراش، في الضباب المنتشر والمعلق الذي تشكله أشجار الصفصاف المائي. لكن هذا النهر الذي نعاين طافح بالشباب والقوة والغورة، بحيث يطلق صوت السيول الجارفة، بزيْد متناثر أبيض وانحدارات نحو الحصى، وهنا وهناك، فضاءات هادئة هدوءاً مطلقاً، تتحوّل إلى مرايا خالصة، أكثر عمقاً وشفافية وغموضاً، بحيث يخترق الربيع هذه الصورة طويلاً وعرضاً. ويمتزج بهذا الوهم الرائع زهور النيلوفر والسُّوسن الصفراء، بحيث تبدو الوحيدة التي تنتمي للواقع.

ها هي أسوار فاس المسنَّنة تترامى عبر هذه البادية، وها هو باب الجديد، باب الجنوب، عبارة عن قبة غائرة العمق، شبيهة شبيهاً تماماً بتلك التي كانت تنتظر بفرنانطة رجوع الأندلسيين في الغابة المقدَّسة للحمرء. بيد أن هذه القبة ليست مهملةً منذ أربعة قرون. ثمة

(1) أحد روافد نهر السين الذي يجتريق بنريس.

عساكر مغاربة يجرسونها (وهم غافون)، ممددين على طولهم على مقاعد حجرية طويلة.

ومن الجهة الأخرى كانت المفاجأة الأكثر رومسية، إذ وجدت نفسي أما فضاء استيهامي شكسبري. ففي المكان الذي ينهمر فيه ماء الوادي بين الصخور ويدور فيه بتقلبات شديدة، يقطع سور المدينة مجراه العميق في شكل قوس طويل جداً تنظم قمته تسننات خطية رائعة. ومن هناك تتساقط كوم من اللباب لا بد أنها تعمر مئات السنوات، بالنظر إلى ضخامتها وثقلها وطولها بحيث تلامس سيل النهر. بيد أن هذا السار من اللباب ينزاح في الجانب ليظهر القوس الذي لا يوطر غير الخضرة والانعكاسات على الماء. وهناك تتقاطع أسراب طيور المازور بمنافرها التي يمتزج فيها لون اللازورد بلون الزمرد على صفحة الماء، ومعها اليراعات بخفتها الفاتكة ولونها الزمردى، بما تحمله في أجنحتها من نور مرتعش...

إنها لوحدة كاملة بين هذه الطبيعة والعمل الإنساني القديم. فالطبيعة تنكئ على هذا القوس نصف المهترئ كما لو كانت تنكئ على صخرة من صخورها. وهي تعلق عليه ورقاتها الربيعية، وتغرّ مياهها متلاعبة تحتها، ودواماتها وتعرّجاتها متحت منه مُنحنياتها، بحيث نخال هذا القوس أقدم من النهر. ومن هذه المياه وهذه الأشياء الخضراء اليوم، ومن هذه الحياة المتجددة مرة أخرى، تنبت التينات والأبراج القديمة للتور، غامقة كما ماضيها الغامض.

وبعيداً يفتق سحرٌ وفتنةً أخرى. إننا نكاد نرى الطراوة الصائتة لمرعى نرويجي في وقت ذوبان الثلوج. في اليمين واليسار تنبت شلالات صغيرة من المرتفعات، بمياهها المزبدة. ومن بياضها المتبخر المتناسق يولد غدير يجري محاذياً للعشب. ومن كل جانب ذلك الماء الزلال الرقراق الذي يشكل هنا ماء الحياة والذي يذكرنا هنا، قرب فاس المسلمة الميتة، بالبحوريات الإغريقية.

وفوق، على طرف الغابة الصغيرة، أبصرت بأشخاص أقل حياة من الأشياء. وعباءاتهم العربية تثير الدهشة. ففي هذا المنظر الطبيعي الشمالي البهي الشديد الخضرة نسباً كل ما يحيط بنا. إنهم الصبتانون. وهم يدعون بأرجلهم العارية وبإيقاع لامبال الأثواب المطروحة في الماء الرقراق الذي يمتد فوق الشلالات الصغيرة. وعوض أن يقوموا بجهد ما يبدون كأنهم يقومون برقصة في عيد من الأعياد...

قمنا بخطوات قليلة وانعطف الدرب. ووجدنا نفسنا فجأة خارج الفضاء الربيعي، ومن جديد في الأرض الإفريقية المصفرة، حيث يدفع النهر برعشاته المائية السريعة الرقاقة بين الأحجار، قبل أن يدخل في البساتين. ثمّة دائماً قطعان كبيرة من البقر يُأتى بها للارتواء، فتمكث هناك وقتاً وقواتهما في الماء، بين الشطين المليئين بالحصى. ثم مررنا على جسر عتيق يشبه ظهر الحمار.

بعده ظهر لنا تلٌّ لا تنبت فيه غير النباتات ذات اللون الرمادي المائل للبياض، من زيتون والوة، ثم طريق غير متحدّد، تقاطع فيه مسالك ضيقة، يصعد سفح الجبل بين منحدرين مليئين بأشجار الزيتون. إنها أشجار حازمة ورفيعة تبدو وُريقاتها المرسومة بدقة وكأنها لا تتأثر بحركة الحياة، يخرج خشبها الكثيف من الأرض الحجرية في شكل عقد متكوّمة. إنها أشجار نتكهن بأن نموها بطيء وتبدو غريبة بعد الرطوبة وانبثاق الخضرة الهاربة. يا لشحوب لونها. وحتى في الشمس الحارقة تبدو أشجار الأصيل وغروب الشمس لأن النور يتأخّر عنها ويخفت. ونحن نخالها أيضاً قمراً يبدأ في إبراز لونه الفضي في المساء على هوى مداعبات أشعته. إنها مقطع من الجنان المقدسة بحيث يمكن للظلال أن تخلق فيها وتظل هائمة بين السماء والأرض...

لا غرابة في أن القبور محاذية كلها لها. ونحن ندخل شيئاً فشيئاً، كما هو الأمر دائماً في ضواحي فاس، في المجال الأكبر للموت. ها هو منظر القبور والموت يعاود الظهور. وفي طرف الدرب القديم الذي يرتفع في فراغ السماء مع التلّة، ينبثق جزء من سور المدينة غامقاً منقوشاً بلون فضي، وتبدأ من هذا الجانب أيضاً الأراضي المقدسة التي دفن فيها الصلحاء والشرفاء وأعلام الفقه والعلم في فاس القديمة. هنا حقاً تنطبع أشجار الزيتون بطابع روحاني وديني. وفي هذا المنحدر الذي تتناثر فيه القبور التي فقدت طلاءها والقبب المزينة بالزليج، يحرم علينا أن نطأ هذا التراب، لأنها أمكنة حُرّم ممنوعة على غير المسلمين، كما هي الأسواق في مداخل الجوامع والأضرحة الكبرى لمولاي إدريس والقرويين وسيدي أحمد التيجاني في قلب المدينة القديمة.

سرنا ببطء في عز الوحدة محاذين للأسوار الشاهقة القديمة التي تنعطف نحو باب الفتوح.

إنه دائماً سور المدينة الحصين، وأنا أراه ينعرج هنالك في البعيد. لكنه، من هذه الجهة الجنوبية من فاس، لا يَحْصُنْ أي شيء غير الصخور والوهاد والحصي. السور يظل حول هذا الموت واقفاً، كما الأحجار الخارجية لبيت احترق داخله. ومن هذه الأبراج المترصّفة على مسافات منتظمة، تراه يقيس المدى الذي كان في الماضي مليئاً بالتطوح المترصّة والصوامع، في الزمن الذي كانت فيه فاس أكثر شساعة، وعاصمة لإمبراطورية حقيقية. إنها اليوم أسوار عبارة عن قوقعة أفرغت من محتواها، فغدّت متصدّعة ومتأكلة ومتداعية وقائمة بفعل وطأة القرون.

كان أحد الرعاة يوجّه أمامنا قطيعاً من الماعز (إذ يبدو أن من هذه الأسوار العتيقة تبعث تأثيرات غريبة للموت، فما يحيط بها من ظلالٍ موحشٍ وبانسٍ مثلها). سرنا بجوار السور البالي الذي ينحدر أحياناً نحو الوهاد، كاشفاً لنا من فوق تسنّناته المناطق المحروقة التي يحويها، ثم يصعد صعوداً حتى يغطي علينا نصف السماء. إنها أبراج الموحدين⁽¹⁾ وقد تآكلت من فوق كما نصل سكين، وهي تمثل الجزء الأقدم من أسوار فاس بكاملها. يبدو أن شيخوختها المأساوية قد عرفت العديد من الكوارث. والكثير من هذه الأبراج تبدو كما لو أنها نُصِفَت بالمدفعية، فهي انخرمت حتى الأسفل بشقٍّ واحد، وصارت فاعرة فاهاً في الأعلى، بحيث صارت آيلة للانهار في أي لحظة. جوانب أخرى من الأبراج تبدو منبعجة، فلم يبق من أسوارها الأربعة سوى اثنين يرتفع من هيكلا رأس متصدع كما كتلة جليد متشققة. كما انمحت أيضاً خطوط كاملة من التسنّنات تاركة قمة سور محدودة.

إنه منظر مسكّن للأعصاب... ففي اليمين تراكب القبور القديمة والجديدة، بشواهدا غير المكتوبة، بحيث نخالها صحوراً طبيعية تنشق من الأرض، بما أن الحياة في بلاد الإسلام هذه تعود بشكل مطّوع وبسيط لعدم المادة. لكن، هنا وهناك على إحدى القبب لا تزال تنهادى الزرقة اللطيفة، الزُرقة الشاحبة للزليج القديم. يا له من لمعان وقور في النور المائل للمساء، المنبعث من تلك المنحدرات الصفراء التي تحترقها شبكة من المسالك. وحول ذلك غابة الزيتون المقدسة تلتقي في صمت هذا النور الهادئ. وفي الأفق الواضح بغفولون

(1) الموحّدون هم الأسرة التي حكمت المغرب والأندلس من 1147 إلى 1269 م. وهم ينحدرون من حركة دينية ذات أصول بربرية. وقد عمّ نفوذهم شمال إفريقيا وغربها. وعرف المعمران في عصرهم تطوراً ملحوظاً بحيث شيّدوا جامع الخيرة بالدة باشبيلية، والكنية مراكش وحسان بالرباط.

أوراقها الفضي. وفي الجانب الآخر، تبدو الأسوار الموحدة بجلالتها الشاهقة. أراها تنعطف في البعيد لتُظهر من ثم وجهها الداخلي، بقتامته المأساوية في الشمس، وبلون الوحل الجاف، ويشاينا من الظل الأسود.

جاوزنا باب الفتوح خلف القطيع الرائع لحظيرته، ومن جديد ولجنا مدينة فاس. نعم، إنها تسمى فاس، لكن هنا، كما في التَّلّة خارج الأسوار، لم يكن ثمة غير القبور، وقبب الأضرحة، ثم مقبرة أخرى، هي مقبرة اللاجئيين الأندلسيين الأوائل، وهي بذلك مقبرة قديمة لها أكثر من سبعة قرون، غير أنها تبدو حديثة إذا ما نظرنا إلى البيوت والمساجد، والحلي الناشط الذي كان هنا فيما قبل.

وصل من طنجة البارحة رجل فرنسي، صاحب في الطريق السي⁽¹⁾ محمد المقرّي أحد معارف السلطان ووزير في القصر، الذي كانت تتبعه سبع نساء متحجّبات بشكل أثقل من العادة. ومحمد المقرّي هذا كان قد غادر فاس من شهرين في مهمة غاية في السّرية بحيث أثارت فضول الدبلوماسيين ومراسلي الصحف في طنجة. وفي أوروبا، قامت الصحف بافتراضات: هل سافرت هذه الشخصية إلى برلين؟ هل تحدث مع السيد ديلكاسي⁽²⁾ Delcassé؟ أي مؤامرة جديدة تسعى لحكها السياسة المغربية؟

وإذا كانت مهمته غير حاسمة في مصر أوروبا وإفريقيا، فهي كانت مهمة شريفة لأنها تشهد على ثقة السلطان فيه. فيها أن أموال البنوك المقرضة من فرنسا قد جاءت لنفخ خزينة السلطان، فقد أمر هذا الأخير، الذي يجب فيه الرقة والحزم، بالتوجه إلى بلاد الشراكة ليصرف فيها ما يمكنه من تشييب حريمه. وقد كان المقرّي ماهرا في المفاوضات، وعرف كيف يكتشف في بلد الجمال هذا شخصية محكّة عرضت عليه زهورا شابة رائعة.

لهذا ساوم هذا الرجل العارف وقارن، ليعود مرفوقا بست حسناوات تتبعهنّ حاميتهن. فقد جرت العادة، لمصاحبة الفتيات اللواتي يزحّلن نحو المجهول ومراقبتهنّ وتشجيعهن، أن تصحبهن المرأة التي توسّطت في الصفقة. سارت المجموعة أولا حتى إسطنبول حيث تم الانتقال إلى مرسليليا، لكن قبل ذلك، وحتى لا تثار الشكوك حول الموكب في السفن الأوروبية، من اللازم إضفاء الطابع الشرعي على الصفقة، وذلك لدى عدل مآذون بحيث يتم احترام كل الطقوس الدينية وتغدو المرأة الوسيط الزوجة الرفيعة. ومن ذلك الوقت يكون رب عائلة هو الذي يسافر بمعية حرمه وبناته ووصيفاتهن. هن كن مكوّمات في عبااتهن، لا يبدین من الشقّ الأسود سوى عن عيونهن، وهو بوقاره ولحيته المبيضة يبدو زاهدا في ردائه الأبيض، ولا يتحدث إلا في النادر، ولا يتحرك إلا ليمنع بركته ويدعو الله.

(1) نسيط لكلمة «السيد».

(2) ثيوفيل دوكلامي (1852-1923)، وزير الخارجية الفرنسي آنذاك.

وفي مرسيليا، حيث هؤلاء المبعوثين اتصالات، قام المقرري بطلب مراجعـة لـجميعـة الحريم. وأحياناً، تأتي إحداهن، مرسلـة من قبل عمـون ما، تكون مسيحية أنهكها المغامرات والمقاهي الغنائية الأوروبية، وفتتها فكرة الحلوة الحـزة بقرب رجل كريم ومختلف عن الأوروبيين، فتتضاف إلى المجموعة الغريبة. ومن طنجة إلى فاس لا يتوقف الجمع عن المسير حتى يصل الموكب في أقرب وقت ممكن، ويكون السيد منذ الوهلة الأولى راضياً.

في المدينة، عبرت الحسناوات الحواجز والأسوار الهائلة العديدة للقصر، ليس من غير إحساس بالرعب. وتبيان لتلقي الأفضال الجزائية للشريف (السلطان) الذي أصبح سيدهن. بيد أن راعية القطيع سوف تستقر لدى ذلك الذي تعتبره منذ إسطنبول زوجها. لقد أخذ مأخذ الجد هذا الالتزام الشرعي ولا ينبغي لذلك تطبيقها؛ ففي دواخله العربي قام بحساب عميق. إنه يعلم أن الحبيسات الجددات، اللواتي سيعشن السأم ولا يعرفن أي امرء في فاس، لن يلبثن أن ينادين على صديقتهن القديمة كل يوم. لذا، ومهما كان الأمر (والمؤامرات كما نعلم لا تنفك تحيط بالمقرّبين من السلطان)، فالمقرري يعول عليها كي تظل في علاقة طيبة بالحريم. لقد أصبح يتوقّر على أفضل ترياق ضد سمّ الدسيسة والإقالة: فتنة الحسن والجمال، على الأقل طالما ظلت أولئك اللواتي كنّ بناته بين إسطنبول وطنجة بالقرب من السلطان. والحال أن هذا الأخير شخص مزاجي، وقد يسأم من رفيقاته أولئك، بحيث يمنحهن أزواجاً لبعض حاشيته.

22 أبريل/ نيسان. رحنا اليوم لزيارة السيد بُلبل، وهو رجل من أعيان التجار اليهود استضافنا للاحتفال بعيد الفصح مع أسرته الكبيرة في بيته بالملاح.

وللذهاب إلى الملاح خارج المدينة القديمة، فإن أقرب المسالك هو الطريق خارج الأسوار. علينا الخروج من المدينة عبر «باب الحديد»، والدخول للملاح عبر «باب سيدي نافع». وبين هذين البابين، تمتد البادية الربيعية التي تسيل فيها بصخب مياه الجدول التي رأينا كيف تتجمع في الأسفل لتدخل فاس من جهة «باب الجديد». إنه أشبه بقطعة من منطقة «أنجو» Anjou الفرنسية في نهاية شهر مايو/ أيار، لكن بكل هذه الخضرة الناصعة لأشجار الصنصاف والسُوحِر والدَّرْدَار، وهذه الأحراش التي تشبه أحراش فرنسا، يمتزج بها من جانبي المرء الصبار ذو التعاريج البارزة والداكثة التي تشعل فيها الأزهار شرارات رائعة صغيرة، ونسيم رائحة أزهار البرتقال. تنساب بهجة الماء، ومن كل مكان يرتفع خريره السائل الرطب. إنها مياه لا تنضب مع الصيف، مياه ذات لون أبيض نحسّ ببرودتها تواء، تنزل من حقل لآخر عبر درجات صغيرة غطاء يحث يعلوها الزبد الأبيض. وكما في صباحات غاباتنا الفرنسية، ثمة الشَّقَشَقَةُ الدائمة للعصافير. كم نحن بعيدون عن فاس وعن مقابرها الشاسعة في فورة الربيع هذه. ولا أثر لكآبة المدينة ولا لأسوارها.

لكن بعد نصف ساعة من الفتنة والسحر، ها هو منعرج يدي لنا تلك الأسوار. ها هي ترتفع فوق ركام أخير أخضر، وهي نفسها تشرف عليها القلعة العتيقة التي تحمي الملاح، أو بالأحرى التي تهدده. وهكذا انتهت البادية بحيويتها، فلا أثر للماء المتدفق ولا للعشب. فقط منحدرات من الحجر والتراب تترامى، وأجراف شبه مهذمة بجوارها تسكع أشكال بطيئة من العجزة اليهود والمسلمين. إنه منظرٌ خربٌ يتضح مرآة الجنائزي، حين ندرك الطبيعة الحقيقية لتلك الرُّبَى والأجراف. ليس ثمة غير عظام الحيوانات تتأكل هناك منذ سنين، وفوقها الجثث الحديثة تستكمل جفافها وتحللها تحت الشمس، وخاصة سيقان عديدة للحمير والحياد، لا تزال مغطاة بشعرها، كما تلك التي رأيناها على طرق البادية والتي كانت

تعلن لنا عن قرب مدينة فاس. شققنا طريقنا وسط الجثث والصور الرهيب الذي سيُج به
الأسياء المسلمون الملاح، غير أنها لا تحزن أحدا هنا. كل هذا العفن الجنائزي! إنها النفايات
اليومية العادية لمدينة مغربية كبيرة، وهي فتاضة لأن هذا البلد الأكثر تخلفاً من فرنسا في عصر
الكارولنجيين لا يتوفر على العربات والطرق المعبدة. لهذا، فالسبيل الوحيد لتنقل الناس
والأشياء هو ظهور الدواب. وفي الأعالي، فيما وراء الأسوار التي تصنعها الهياكل العظمية
للبيغال والحيمر، أبصرتُ بدواب حبة. إنها تسير بخطى وثيدة في مجموعات، كما هو الحال
دوماً عند قدم أسوار المدن العربي، رازحة تحت قفص مليئة، أو تحمل الأحجار المربوطة
فوق ظهرها بالثلاث أو الأربع. وقرب الدواب الهادئة الشغالة، تبدو مجامع العظام طبيعية،
كما تبدو طبيعية في فرنسا قشورُ الجزر والكرب قرب حفل الحُضر. بلغنا الباب الجنوب
الغربي، «باب سيدي بونافع» الذي يقود إلى فاس، بتفقه المقوس المعتم، لأنه يتعرج بزاوية
مستقيمة، بحيث لا نرى مدخله حين يظهر مخرجه. إنها مأثرةٌ رسميةٌ حقيقيةٌ بحيث يبدو من
الداخل أشبه بكيسة. وبه نور ضبابي كما في الكنائس أيضاً، بحيث يدخله النور من تحت عبر
الأقواس غير المرتفعة كثيراً كما القبة الداخلية التي تتقاطع امتداداتها. في هذه العتمة الخفيفة
ينكشف لنا أشخاص ضبابيون ملتصقون بأسفل الحائط؛ إنهم الحاملون والمدخنون وشاربو
الشاي. حلاقٌ يخلق شعر زبون يسلّم له رأسه. وآخر يجزّ شاة سوداء. جملٌ عالٍ يمرّ مقدّماً
عقه ككائن مفارق وخيالي في هذا المبني المغلق تقريباً الذي نخاله سفينة قوطية.

حينها ظهر لنا طرفٌ من حيّ مسلم، في أقصى فاس الجديد حيث تعيش مع عائلات
«الجيش» قبائل نصف بدوية. كل الناس منهمكون بشكل كبير في الزقاق في مشاغلهم في حركة
دائبة. على الأرض تباع حزم النعناع الأخضر مع البيض والحلزون. وحول هذه الأسواق
القروية، يتسارع المئات من الأشخاص الشمّر، منحني الظهر بفعل النظر للشمس الحارقة؛
أرجلهم حافية، وعباءاتهم متربلة داكنة ومرقّ. ياله من اختلاف بالغ مع بورجوازيي فاس
البالي، ذوي اللون الوردي أحياناً، الذين يقيسون حركاتهم وإشاراتهم، والذين يمنحون
لأنفسهم وقاراً كبيراً بسبحاتهم في البد، والذين بسلامتهم الجميلة الرمية على ظهورهم
يمشون بخطى عضور روماني في مجلس الشيوخ. لكن هنا، كما في فاس البالي، تظل النساء دائماً
عبارة عن أهرامات شاحبة متحركة، يفتح في قمته شقٌ عرضي لامع السواد. وكل هؤلاء

الناس ما أن يصادفونا حتى يغرقوا في صمتهم ويدبرون وجوههم عنا.

لكن ها هو مدخل عالم آخر. لقد جاوزنا ثَوْنًا باب الملاح بين مصراعيه اهانلين المرتئين بالبرونز، اللذين يدفعان لِيُغلقا كل مساء، كي يكون هذا «الغيتو» كل ليلة محكم الإغلاق، ويكون يهود فاس بأكملهم محبوسين هناك وراء المزلاج الحديدي البدائي. نعم، إنه مدخل عالم آخر وحقة أخرى. أي مسافة تفصلنا فجأة عن المدينة المغربية الكثيبة، وعن شعبها الخامل وعن دورها و«رياضاتها» المتروكة في السر وراء أسوارها الشاحبة، ونسائها تحت أكفانهم الصوفية الثقيلة!

بالها من حركة دائبة وفائضة في هذا الغيتو! الحياة تظهر فيه وتنشط بحرية، كما في المساء في مدينة أوروبية جنوبية. وأنا مندهش لأنني لا أتمشى في ممرٍ كتيب مطلي بالجير، منغمسا في الكآبة والسكون بين واجهات ممتة. وهذه النوافذ المتزاحمة من دون مصاريع في الطبقات الثلاث أو الأربع من البيوت، تذكرني بالأحياء الأهله بالسكان بمدينة نابولي أو اشيلية. ومنها تطل العديد من الوجوه لتراقبنا ونحن نمرّ، فتنادى الواحدة الأخرى. هذه الدور عبارة عن خلايا نحل مليئة وصاخبة، بحيث نخمّن ذلك في كل زاوية من زواياها. أسرٌ كثيرة تنقسم بيوتها، وفي الغالب غرفها الضيقة. عشرة آلاف يهودي يعيشون في هذا الملاح، الذي يمكن أن تنجوّل فيه بكامله في ربع ساعة.

ومع ذلك فالحياة هنا ليست شقيّة أو محبطة، كما في الأحياء الغاضّة بالسكان في مدننا العمالية. ووجوه نساء المطلات من تلك النوافذ شاحبة، غير أنها مفعمة بالحياة والفضول، تحت وشاحاتها المتعددة الألوان كما رؤوس البيغاوات! وحين أرفع رأسي عالياً، تبدو لي السطوح أهلة بالوجوه الذابلة، تلك التي تطل وسط لمعان ذهب الحلي والحرير المخطّط.

لكن ها نحن محاطون بحشد من الصبيان يتبعوننا، والصغار منهم يرسلون لنا القبلات. أما الكبار فيصرخون فينا ب«البونجور» (صباح الخير بالفرنسية). هؤلاء المرشّحون للحضارة يحفّفون بالأوروبيين الذين يتعلمون لغتهم في مدارس الرابطة الإسرائيلية. وكل هذا يبدو لنا ممتعا بعد عدة أسابيع من إكراهات فاس الغريبة والمتخلّقة عن قصد مسبق.

أحسننا أن بيننا هؤلاء الناس يمر تيار الألفة وتقوم علاقة التعاطف الإنساني بسرعة، وأنه بإمكاننا إقامة علاقات تشاركية. ومهما كانت حياتهم مخالفة لحياتنا، فلا شيء يقرُّ ذلك إلى الأبد خلاف فروقنا مع الحياة الإسلامية. إنهم مثل إخوتهم بطنجة، قابلون بطواعية لأن يتلقوا امتيازات أوروبا وتأثيرها. فالأيادي ترفع لتحيّتنا، وعيونهم تحدّثنا ونحن نجيبهم، وأي متعة أيضاً أن نرى الوجوه النسوية أخيراً سافرة وواثقة من نفسها! هؤلاء النساء لسن فقط من غير نقاب، بل من سواعدهن وأعناقهن ومن بدنهن الدافئ الكامد يظهر شيء، بين اللون الذهب والأحمر للحلي. كانت تلك الوجوه بالغة التعبير، مليحة التقاسيم، تشبه الوجوه الإيطالية، غير أنها أكثر رقة ولم تلتفحها الشمس، وذات عيون حوراء واسعة. لكن روعة ملابس العيد أمر يتّبع إلى الشرق، لا إلى إفريقيا وإنما لآسيا. إنها ألوان أولية أخاذة تظهر بجرأة في شمس هذا المغرب كما في شمس الهند، وفساتين خضراء مرسوم عليها نبات الخشخاش، وأوشحة مزخرفة. والصغار في عيد الفصح هذا يلبسون قفاطين من القטיפه وقمصانا من الحرير الذهبي، تبدو كما لو كانت قطعة من الشمس سقطت في هذا الزقاق القديم القدر للعصور الوسطى.

وبمقدار ما كنا نتقدم في الحى، كان زحام اليهود يزداد كثافة. هناك بالأخص النساء والشبان والصبيان. كل هذه الأجسام الفاتحة البياض تتحرك من حولي. هل بإمكانى أن أجد لها نموذجاً عرقياً؟ وهذا النموذج، هل هو الذي ننسب لبني إسرائيل؟ تفحصتهم بسرعة؛ وخلال دقائق معدودة بحثت عن نسبة الملامح التي تخصهم. كم هي ضعيفة تلك النسب! عددت ثلاثين وجهاً، وتفحصت في منحى الأنف فلم أعرّ على المعقوف منه إلا خمس مرات. الشعر بكل التلاوين، من الأبيض الأملق albinos الذي يبدو هنا استثنائياً، حتى الأسود الكحيل المتجعد للنموذج العربي. ثمة الكثير من الشعر الأشقر، ومُقلّ ذات زرقة شفافه. لكن هذه العيون سواء كانت سوداء أو زرقاء فإنها خفيفة، لأنها بليلة ويبدو لونها كأنه يذوب. لا شيء فيها من البريق الشامى الحقيقي. إنها عيون واسعة جداً، بحيث نخالها زهوراً ذابلة في الظل. لكن عيون الشقر فيها شيء ما من الحدة في شحوبها المتورّد. إنها عيون ابن مِرْص، أظرفها حمراء بأهداب بيضاء ترفرف لنور النهار الذي يؤلمها. ويا لها من أبدان ذابلة، شفافه ومفتقرة للدم. ثمة لون وردي خافت يضمخ أحياناً الوجنتين. والصبيان بوجوههم الملساء

الهادة. إنه فعلاً عرق حضري، فملايح هؤلاء الصبيان والصبايا وألوانهم رقيقة ذابلة كما ألوان الأطفال الذين يولدون قبل الوقت، ولذيذة وفيها شيء من البلاء، كما الأطفال الذين يلهون في الحدائق العمومية بباريس. أما الشباب، بقفاطيتهم الرمادية والزرقاء والحُجازية، المتلفعون بمعطف أسود يرمون بطرف منه على أكتافهم اليسرى، فهم في وضعتهم الشاردة يذكرونني بالطلبة الإيطاليين في القرن الخامس عشر. كما أنهم يجعلونني أستحضر جدارية من جداريات بوتشيلي Botticelli. إنها مظاهر يهودية طبعاً، لكن إذا لم تكن ملائمتهم كذلك عند التحليل، فثمة شيء من الوهن والانحلال والنقص في الأنفة، لكن دائماً ثمة ذلك التعبير الذكي الفطن والمتحضر. لكن الأكثر يهودية منهم هم أولئك المعجزة الطاعنون في السن في هذا العالم اليهودي البربري، الذين يشبهون كثيراً أحراراً شائخين رأيتهم في القدس (ومع ذلك فالأنف له ملمح آخر)، في عبااءهم الكهنوتية السوداء، وبنظراتهم الجانبيه، يسرون جنب الأسوار من غير أن يعترضوا بالحشد الذي يتبعنا، ويبنون جهراً عن عدائهم لنا، كما المتعصبون المسلمون. لهم لحى طويلة بيضاء، ونظرات عميقة، ووجوه متألّه وبنيّة تخرقها آلاف التجاعيد كما بعض شخصيات الفنان دورر، لكن لهم قفاطة وحِدّة تذكرني بالطير الجارح الشائخ المتروحد. هم الأشخاص الوحيدون الشيطون الذين رأيتهم في هذه المدينة.

إنه بالجملة النموذج العرقي اليهودي، بدرجات مختلفة، لكن فقط الجانب الأخلاقي والاجتماعي للنموذج، ذلك الجانب الذي ليس تاريخياً حقاً ولا يدخل في باب الأنثروبولوجيا (علم الأعراق). وهو نتاج تاريخي وليس عنصراً صميمياً، حصيلة القرون المتوالية عن فكرة معينة للدين، وعن نظام المعتقدات والأخلاق والمجتمع الذي تتحكّم فيه. ولنضيف إلى ذلك كل الإلزامات والإكراهات التي مارسها المجتمع الإسلامي المحيط، وهي الإكراهات نفسها التي عرفوها لمدة طويلة في أوروبا المسيحية، كالإهانة العتيقة والعيش المنعزل في الحي اليهودي. إنها الحياة التي انحصرت في سلوك الخنوع والعبودية وفي الأعمال الخرفية المقبولة، وأنشطة المكر والتفكير، بحيث انكمشت المجموعة بكاملها على نفسها ولم تُعِد إنتاج نفسها إلا من المادة نفسها، ومن الحلم والنشاط المحدود للفرد، ومن أهمية العائلة. وفي المرتبة الثالثة ثمة الطابع الحضري، ونمطه الخاص والمنحرف الذي يتجه الغيتو، والسوائى والمفاسد الخاصة بكل غيتو، كما بأحواز المدن الكثيرة والبئسة المحيطة بمدننا الصناعية الأوروبية.

إن مجموعة كهذه كافية لتفسر لي أن يهود فاس هؤلاء، بهذه الخواص الإثنوغرافية الشبيهة بجيرانهم المسلمين، هم يهود بشكل عميق. إنهم يهود بالزواج والثقافة إن لم يكونوا يهودا بالدم. وهم يهود أساساً وجوهراً، وربما كانت حالتهم هي حالة كل المجموعات اليهودية في العالم (ففي الهند نحن نصادف بعضهم بيشرة نحاسية لا تمنع هيتهم من أن تكون يهودية). لنفكر في أن أربع أو خمس سنوات من الرهبة أو الثكنة العسكرية يمكنها أن تزرع في الإنسان مظهر وروح الراهب أو الجندي؛ كما أن أمريكا وأستراليا لم تتجاوز قرناً من الزمن كي تبدأ في رسم معالم نموذجها العرقي تحت تأثير بعض الشروط الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية، وكذا بفعل جاذبية مثل بلوروها جميعاً وأرادوها لأنفسهم. من يستطيع إذن أن يقيس الآثار الممكنة على مجموعة بشرية متغلقة من زمن بعيد، لדיانة تتدخل حتى في تفاصيل المجتمع والحياة الخاصة لخلها بدقة، ونظام من الإكراهات والإلزامات عتيق ومزدوج: النظام الذي تفرضه على الحي اليهودي شريعته، والآتي لها من الداخل، والنظام المنحرف وذو الأثر السوء على النفس الذي يأتيها من الخارج مفروضاً؛ ثم الآثار التي تخضع لها الأجسام، والآثار المتكررة للمحيط المادي الاستثنائي المتمثل في الغيتو، منذ خمسين جيلاً؟ هنا تكمن الأسباب العميقة التي تترجمها خارجياً هذه الهيئات وهذا السلوك اليهودي، لا في الضرورات البدائية للعرق. إنها أسباب عديدة وبالغة التشابك، ومختلفة الفعل بحيث لا تمس مخيلة الجمهور. فلتقرير وجود نوى يهودية في مجتمعات مختلفة، تمّ لزمن طويل وبشكل سريع، تكرار التفسير البسيط والمباشر والغريب والشعبي القائل بالقبيلة اليهودية، أو ببطن من بطونها المتجمع في أمكنة بعيدة. لهذا، كيف يمكن أن نعتقد في أن سلالة إبراهيم قد تزايد عددها بشكل كاف بحيث تتكون أحياء يهودية في عمق بلاد البربر هذه التي لم يستطع فتحها كليون الرومان ولا العرب؟ إنني أتصور بالأحرى أن التبشير بالدين الموسوي بدأ على الشواطئ المتوسطية، في العصر الذي بدأ فيه انتشار المسيحية، إما بواسطة اليهود المنحدرين من سوريا، أو بواسطة المعتنقين الجدد لليهودية بالإسكندرية والشرق الأوسط ومقدونيا، ثم من الساحل في داخل كل بلد، بالدعاية لدى أعراق الأهالي، وكل ما نتج عن ذلك من نتائج اجتماعية، حتى اليوم الذي توقف فيه اعتناق اليهودية مع المنافسة الكاسحة للمسيحية ثم فيما بعد للإسلام.

أوقفنا جياندا لأننا بلغنا دار السيد بلبل، وها وهو ينتظرنا عند عتبتها سمينا ومتأنقا،

مرتدياً سروالا وسترة ذات لون كستنائي رائع، وذات نياشين وصفوف من الأزرار، وقبعة على الرأس ذات لون خبازي ليس بأقل روعة، وخُفًا مذهباً في الأرجل. إنه هندام غريب بل جسور، قد يجلب عليه القرع بالعصا إذا ما هو تجول بهذا المظهر في الأحياء الإسلامية، باعتبار أن اللون الخزين الأسود هو وحده المسموح به لليهود بالمغرب.

بدا السيد بلبل بشوشاً ومشعاً من الرضى عن نفسه. وحوله هرعت عائلته لاستقبالنا. كان هناك بالأخص النساء: ركام وخليط من الذهب والحلي يخرج من عتمة عمر. وكلهن يرغبن في تحييتنا على الطريقة الأوروبية ويسعين إلى إظهار معرفتهن بعوائلنا. امتدت يدهن بعد الأخرى، لكن ما أن نحس بملمسها الرطب البارد حتى تنسحب بحركة سريعة كما لو كانت حيواناً صغيراً منزلقاً. كانت الجذات أيضاً في أبهى حُللهن، غير أنهن كن ذوات وقار وصرامة، والخيوط الذهبية لحزامهن أصبح مع السنين ذا لون كامد. ومن الواضح أن لباس العيد هذا الذي يتطلب من كل امرأة ثروة هائلة، لا تملك منه الواحدةٌ منهن إلا واحداً، بحيث يمرُّ بالتوارث من جيل لآخر. كانت تلك الحوريات اليهوديات العُجُز محمَّلات بالذيّاج والمعادن والمجوهرات، وكن بشوشات. وعلى أفواههن الخالية من الأسنان شفاهُهن الدقيقة التي تدخل في الفم، والتي تطلق بانحائها بابتسامات طيبة، وعيونهن تفصح لنا بأشياء رقيقة عذبة.

كم هي أهلة بالسكان دار السيد بهلول! في البهو كما في الطابق الأول، كانت نساء أخريات ينتظرن مرورنا، لكنهن كن خجولات، يرغبن في النظر إلينا خفية، هُنَّ الأشبه بالحُرُم المذهبة، ذوات الوجوه الرقيقة الفضولية خلف أعمدة الدربوز. قام السيد بهلول، الذي أطريته على أسرته الكبيرة، بتعداد أفرادها: هناك أبوه وأمه، والعمَّات والخالات العجائز، وسبعة أبناء بينهم ابن ذو السادسة عشر عاماً متزوج غير أنه مع ذلك لم يترك دار أبيه (فالعروس هنا كما في الهند واليابان تعيش في دار أصهارها، تحت إمرة حماتها). ثم هناك الخادومات ومنهن عجائز لا يشتغلن بل يحتفظ بهن ويُداوَيْن بشكل أبوي، ومنهن الصبايا الجميلات (وأنا هنا لا أريد أن أشكك في فضائل السيد بهلول، لكن قبل لي بأن العوائد الإسلامية قد تفسَّت في الملاح وأن تعدد الزوجات ليس محرماً فيه، فأجبار المغرب يتذكرون أن إبراهيم لم يكن مكثفياً بمعاشرة سارة وحدها).

أحسست بالبرد والرطوبة في هذه الدار؛ يبدو أن هواءها لا يتبدل وتخترقه روائح عديدة لا نكهة لها ومزعجة. قد يقول قائل بسهولة، إنها روائح الغيتو والوسخ اليهودي، مستمتعا بمقت هؤلاء الناس الطيبين الذين يستضيفون الزميتين استضافة حارة. لكنني فجأة استعدت ذكرى هذه الروائح التي استنشقتها سابقا وكانت أكثر عطانة في مدينتي بريست Brest وأنتي Anancy بفرنسا، في العمر والسلم العطن بالدور القديمة، التي لم تكن تملك أي طابع فرنسي. ثم إن علينا الاعتراف بأننا إذا لم نكن نعرف ما تخفيه تلك الأزياء الفاخرة، فإن الوجوه الشاحبة التي تظهر وسط الديباج، والأيدي الناعمة حولنا كانت بادية النظافة. فمن الأكيد أنهم قد أخذن نظافتهم على الأقل بمناسبة عيد الفصح، وذلك الاهتمام بالنظافة يستحق التقدير، إذا نحن علمنا أن الأسياد المسلمين قد عملوا ما في وسعهم كي يلصقوا بيهودهم عادة الوسخ والقذارة، بمنعهم من ارتياد الحمامات، مدسّين مدخل الملاح بمزبلّة ومغلّقيه بأسوار من الدواب الميتة.

وفي غرفة الضيوف في الطابق الثاني، ها نحن الآن جالسون بشكل احتفالي على الكراسي والكنبات من خشب رفيع ينتمي إلى الأمبراطورية الثانية، وهو الأثاث الذي رأيت مثيله لدى أرمنين في آسيا الوسطى ولدى المارونيين بسوريا ولدى الأقباط بمصر، وكلهم شرفيون يتعرضون لتأثير البذخ الغربي ويقولون لا للأثاث التقليدي. ثمة منضدات صغيرة، والعديد من المرايا في إطارات مذهّبة أمريكية، وصوانات من الخشب الأصفر، وكل ذلك جيء به من الساحل على ظهر الجمال. ثم هناك العلامات الدينية، وصور حجرية ملونة ألمانية حيث يلعب داود وسليمان بالتيجان، وكتابات عبرانية بحروف مربعة (وتلك الموجودة قرب الباب موضوعة تحت الزجاج وهي تكرر الشهادة الأزلية «سمع إسرائيل»⁽¹⁾). لكن ما أدهشنا في هذا الأثاث المتناثر هو أننا رأينا في قعر الغرفة سريراً بروتانياً حقيقياً، وهو عبارة عن سرير مفلق ذي مزليج ومزّين بالمنحوتات والزخارف. وكان إطاره المركزي مفتوحاً، وفجأة، في العتمة الداخلية أبصرنا بامرأة مستلقية لم أنتبه لها في البداية. إنها السيدة بلبل التي جاء بنا زوجها للسلام عليها وتقديمتنا لها. كانت هي أيضاً تتحرّم بزناار من الديباج الباهت، لكن

(1) معناها «اسمع يا إسرائيل»، وهي آية مقدسة من التوراة تعلّق في مدخل البيوت اليهودية. وتعتبر المقابل للفاعحة في الإسلام...

أُتيَ تعبٍ كان في تلك البسمة الذابلة والعذبة! (وقد فُسر لنا همساً صديق جاء إلى هنا البارحة لتنظيم هذه الزيارة: السيدة بلبل في حالة نفاس، فقد وضعت البارحة بنتاً، وهو حدث محزن ومُشين. لهذا فإن الأم التعيبة قضت اليوم السابق كله متمدةً على البساط، منكراً، تبكي سرير الشرف، والغطاء المذهب المنسوج، والتهاني التي كانت ستلقاها لو كانت وضعت ولداً. لكن البنت توفيت تلك الليلة لحسن حظها وأصبحت السيدة بلبل مريضةً يُعطف عليها، ومن سريرها تشارك الأسرة بكآبة مسرات العيد).

جلسنا حول مائدة مغطاة بالخلاوى والحلويات. قُدمت لنا أشياء معطرة، نخالها طُبخت في الصابون. ورگَرْنَا غيلتنا على الرموز التي تشكل قيمة هذا الطبخ المقرَّب، لتقوية قلوبنا، بلا جدوى. إنها مأكولات تذكرونا بالحدث الجليل الذي نحتفل به اليوم، والأشياء القديمة الخارقة التي لم يفتأ بنو إسرائيل يملعون بها، باعتبار أنهم الشعب الوحيد الذي لا يزال حياً والذي كان قبل وجود أثينا وروما على اتصال بالقراعة عبدة إيزيس وحائور. فهذه الكعب التي عجن فيها التمر والبندق واللوز، يبدو أنها تعني اللحمية التي كان الأجداد المضطهدون، في الأزمنة الأولى لمعاداة السامية يهدونها لتلك المعابد التي زار الولاة البرومانيون أطلالها قبلنا. ولسو الحظ أننا وصلنا في نهاية العيد. فقد قيل لنا إنهم كانوا من لحظة يقومون بالأنشيد ويشخصون المشاهد الساخرة والمجيدة بالمحاكاة الصامتة، التي تستعيد جروح مصر، وفرعون وهو يلاحق بني إسرائيل ومعها هزيمته النكراء.

لكن في غرفة الغيتو هذه، القبيحة بحيث تعجز عن نسخ الأشياء الحديثة لأوروبا، كانت تلك الوجوه وتلك الوضعيات كافية لي. فهي أفضل من الأنشيد والحركات المحاكاة، تحدثنني عن حضارة خصوصية، وعن شعب وقور في شيخوخته. كان الرجال أيضاً بشكل أليف معنا حول المائدة، لكن النساء حين نراهن عن قرب يديدين غريباتٍ ونائياتٍ، حارساتٍ للنموذج العرقي والأفكار التي يمجسدها. كنا مصطفات جنب الحائط، مثقلات بالنطريزات والأثواب الفاخرة، وكن متصلبات مثل التماثيل، عبارة عن أشياء جامدة لا تصلح إلا للزينة وللمنع الغرفة طابعاً فاخراً، ولحمل الذهب والفضة لتمجيد الرجال والشعب اليهودي. إنه البذخ المفرط للملل، والفسائين الواسعة الثقيلة التي يفرق فيها القوام حتى الرقبة، بحيث لم أر أبداً زينة أكثر نقلاً ودقة إلا لدى نساء بروطانيا ولدى النساء الترويجيات في حلة العرس.

إنها العدة نفسها من الفساتين والقفاطين المتراكبة، لكن الخلي هنا حلي حقيقية، بألوان زجاجية زاهية متفرقة، من أخضر مزرق وقرمزي، وزبرجد ورؤوس من الزمرد المزينة بالفضة. وهي فضة عتيقة مصوغة بطرقات دقيقة، ومصهورة بطريقة صهر الحديد. ومن هذا البذخ الذي لا حياة فيه، حيث تختفي خطوط الجسد، يظهر الذراعان عاريين، باردين وأكثر شحوباً بفعل التباين بين هذه الروائع. والوجوه، تلك الوجوه المشكّلة بطريقة احتفالية، بحيث يحسّ ذلك التباين نفسه من تعبيراتها المتأنقة. كن هناك صامتات، يتركن الرجال يتحدثون، كما لو أنهم لا ينصتن لأي شيء، بحيث يدين بحللمهن الدينية كما لو كنّ معروضات في معرض، أو كما لو أنهم وصيقات في طقس مجون نسوي في إحدى المعابد القديمة بآسيا الوسطى أو سوريا. إحداهن، شابة مثقلة الوجه بالمساحيق، كانت صرامتها تزداد بثقل حُلّتها، بحيث تبدو شبيهة بإستير Esther وقد تزوّجت للقاء أستوريوس (1) Assuréus. أظن أن وجودنا كان يجرّجها. فقد ظلت هناك جامدة في صرامة حيوان، بلهاء ورجلاها مفرجتان تحت دياجها الثقيل. أحسّ رب العائلة أنني أنظر إليها، ومعتقدا أنني مندهش فقط لثيابها وجواهرها الباذخة، اقترب منها وانتزع منها نوطاً متدلّياً كبيراً بدأ يقيس ثقله في يديه بفخرٍ وتؤدةٍ وقُدْمه لي. انصاعت الفتاة لذلك من غير حركة حيّة أو لطيفة، ومن غير أن ترمش عيناها. ثم دعاني السيد بلبل بحركة من يده لأقوم بذلك بدوري، فأنحيت على فستانها، ولست أحد ثيابته المذهّبة، على طريقة صانع محكّك بالملاح، وكما العارف التاجر، عبّرت روعته وثمنه. ابتسم السيد بلبل علامة على الرضى، غير أن المخلوقة الحسنة ظلت مثل شيء لا يتحرك.

كانت النساء الأخريات أقل نفوراً، فقد جاهدن في الابتسام حين قدّمهن لي السيد؛ ذلك أنه كان يقدم لنا الأفراد ويشرح لنا كل شيء بتعلق بالعائلة: الجدات والعمات والخالات (اللواتي يرتدين الحُلل الأشدّ بهاء)، والأخ الصغير، والبنات، والكنتات والأحفاد. وبينهم كان ثمة أمّ لم تتجاوز عامها الثالث أو الرابع عشر، تحمل رضيعاً غريباً يشبه يرقانة مصفّرة، ملفوفاً هو أيضاً في القטיפّة. وهناك أيضاً أبان صغيران، أشبه ما يكونان بتلاميذ الثانوي لدينا. لهما عيّتا يشع بالذكاء غير أنه متعب، يتبخران في قفطانين طويلين من الحرير الأصفر،

(1) يحيل المؤلف هنا إلى التوظيف الذي قام به راسين في مسرحية «إستير» لهذه الشخصية التوراتية في علاقتها بملك الفرس أزيروس.

فضفاضين كلباس النوم ومطرّزين بشكل فاخر بالزهور. أما الفتاة الصغيرة التي كان عليها أن تلعب بدماها (فهي لم تتجاوز العاشرة)، فكانت مخضّبة بالحناء، وهو ما يعني أنها فتاة مخطوبة ومقبلة على الزواج. وجهها لطيف يشبه وجه الفأرة، تحت اللون الفاقع للوشاح الحريري الأخضر الفاتح الذي يغطي رأسها، ينم عن الخجل والدهاء. وحين يتم الحديث لها عن عرسها المقبل تحني الرأس وعيناها تشعان من الجانب، ويحمر وجهها تحت وشاحها. هذه الذبابة الرقيقة تعرف عن أمور الكبار ما لا تعرفه البنات الصغيرات من سنّها في فرنسا؛ ففي الظل الدافئ لغيتوهات الشرق وما تبيحه من تجاورٍ ونمّاسٍ، تنمو الثبّة الإنسانية المفتقرة للشمس بسرعة تتجاوز نموها في الأوساط المسلمة. وعلى المرء إذا أراد أن يسمع بزواج مبكّر كهذا أن يسير حتى الهند. والهيئات هنا لها شيء من الطابع الهندي الرّخو؛ الحمول نفيّه للملامح، والمقلات العكّرة والدامعة نفسها، والبشرة الناعمة التي لا لون لها كما لو كانت خالية من العضلات، وتكاد تذوب.

ثم جاء العديد من الأشخاص الواحد تلو الآخر، متشوّقين لملاقاة الأجانب. دخلوا منزلقين بمشية سارق، محاذين الحائط، من غير أن ينسوا وهم يتجاوزون الباب أن يطبعوا قبلة على المرأة التي تغطي «شمع إسرائيل». ذلك هو الحذر الذي يطبع خطاهم، بحيث أنا متيقن أنني إذا ما استدردت فسأكتشف دائماً شخصاً جديداً خلفي وصلّ ثوّه من غير أن أنتبه لذلك. مثلاً هذا الأشقر ذو الشعر المتناثر الذي ترفرف أهدابه كما لو كان النور يؤلمها، وهذا الشاب ذو اللحية الصهباء التي تشبه لحية المسيح والذي يحني جبهته المرمية ويتصاع للحلم. هو ذو جمال عميق كما يظهر ذلك أحياناً لدى اليهود. إنه جمال مثالي، كما لو صاغته الروح ونحتته دافئاً، بسيطاً بحيث ذكّرنا أن اليهود كانوا عرقاً روحانياً أكثر من الأعراق الأخرى، وأنهم كانوا أول من اهتم بمشكلات الضمير، وابتكر للناس فيها وراء الجور وفساد الأخلاق وضلالها، مملكة الرب والعدل.

كان آخر من دخل الغرفة الحبر الأعظم، تسبقه إشارات التمثلة في «سيما» الفضفاض واللون القرمزي لغطاء رأسه الهائل الذي يشد على صدغيه. وهذا الشخص لم يتوار للدخول كما فعل الآخرون، فقد تقدم مباشرة للسلام علينا. كان في الخمسين من العمر، بلحيته التي تشبه لحية الشيطان وبؤبؤ عينه الأسود الحاد النظرة، ومشيته المتّزنة الحازمة. إنه سيد الملاح،

ويحكم في عشرة آلاف يهودي. عليهم فقط أن يدفعوا الجزية للسلطان وأن يطبقوا تعاليم الحاكمين المسلمين، وألا يرحوا ملاحهم كي لا يهتم المخزن بهم. فهو مثله في ذلك مثل الغزاة الرومان في الماضي، يكره التدخل في الخلافات والشؤون اليهودية. وهو يفرض للحبر الأعظم سلطته، إذ هو رسمياً شيخ اليهود، ويساعده في مهامه مجلس من ثلاثة أحرار وأربعة تجار. يفرض سيادته ويجبى ويحكم بالغرامات، وسلطاته تخدم أساساً الشرائع الموسوية. نحن نفهم أن يكون ذلك الحاكم المطلق حريصاً على امتيازاته، وفي صالح الجالية اليهودية، حيث يتم الحفاظ على الروح اليهودية ويتم تركيزها، في طابعها الوطني المعادي للأجانب وللتجديد، وللأفكار الليبرالية التي ينادي بها يهود أوروبا والجزائر. والرابطة اليهودية لها هنا مدرسة. وتدرّس فيها معلمتان جزائريتان حاصلتان على شهادة من جامعات فرنسا جاءتا للانجاس هنا في ملاح فاس كمبعوثتين للحضارة. وهما لا تلاقيان من لدن الأحرار سوى العداء والمقت والممانعة. إنها التضحية الأكثر قسوة والأقل اعترافاً. فهما امرأتان ضامتان في نظر أهلها، إذ لا تحصلان على عطلة (إذ السفر من فاس إلى طنجة لوحده أغلى وأطول من السفر من فرنسا إلى أمريكا). هما اللتان تربّيتا في مدرسة عليا بباريس، هما تنفاسان الغيتو العفن، الذي تستشري فيه الأمراض، والفقر العام، محبوستين هناك، فقيرتين من بين الفقراء، تدرّسان في حجرة واحدة في الطابق الثاني من دارٍ تفوح منعها العطانة، كل غرفة منها تقطنها أسرة بكاملها وسط الهرج والمرج. ومع ذلك فهما مسرورتان، قانعتان مكتنفتان، ودائمتا النظافة كما قيل لي، بهندام جصور جميل، كما أبصرت بهما في المرة الأولى التي زرت فيه الحي اليهودي. وهما تدرّسان الفرنسية والإسبانية، اللغتين اللتين يستطيع بهما هؤلاء اليهود التواصل مع أوروبا، وتعلمان تلامذتها خاصة النظافة والوقاية، والأفكار ذات المصدر الأوروبي، وإرادة النهضة والتحرّر. فلنشكرهما بالسلام الفرنسي الذي فاجأنا به تلامذتهما من لحظة في هذا الحي الهامشي لفاس المعادي لنا والصامت، وبلاستقبال الحار الذي خصتنا به شبيهة الملاح!

أنينا عشيتنا لدى الحبر الأعظم، الذي كان يمارس السياسة المحلية وهو يستقبلنا بكرم. هو أيضاً قدم لنا أكلة خفيفة كثيرة العطور، وأسرة تكاد تكون عبارة عن قبيلة، وجماعة عديدة من الحفدة.

وبينما كنا نشرب خمر عيد الفصح، غمرتنا أناشيد غريبة صاحبة ذات نبرات كهنوتية، كانت تبدو وكأنها تنبثق من الحائط. رفع الرجل ذو القبعة الحمراء الستارة، فظهرت فتحة في الباب لا تقضي إلى الشارع وإنما إلى قبة بيضاء. إنها معبد يهودي ليست دار الخبز سوى ملحقة بها. فهل نواعد كل عجزة الملاح على اللقاء تحت هذه القبة التي يُبصت بالجير؟ أبصرت من فوق بجماجم حادة، وعباءات سوداء، ولحيّ بيضاء، ووجوه ضامرة بثينة. لكنني لا أدري أي هيجان يفترق كل هذا الحشد المرتعش والمترنح في رقصة مقدسة، بإيقاع الظهر الذي ينحني ويستقيم في ارتجاج سريع. ثمة شيء ينضاف إلى انطباع الهوس هذا هو أن كل واحد منهم يبدو منعزلا، منفلقا في حلمه الخاص. لم أحس أنني أمام طقس من الطقوس الجماعية وإنما أمام مراسيم احتفالية منّظمة. أغلبهم يقفون إزاء مظلة اليهود وبعضهم يدير لها الظهر. وها هم بعضهم ينطرحون على المقعد برخاوة، مقصوفي الظهر متابعين حلما كثيبا. وعلى مصطبة يقف عجوزٌ منهم مشرقا عليهم كلهم، من الشحوب والضمور بمكان، وقد فتته قرن كامل من اليأس. ظل هناك ورأسه غائر بين كتفيه، شاردا من الحلم والوهن، كأنه نسر شائح مريض على مريضه. كان مصير سلالة بكامله محفورا على جبين هذا الوجه الرائع.

هؤلاء اليهود القداماء! هنا توجد النواة الحارقة حيث تَحْتَدُّ عصبيتهم. فبين حيطان هذا المعبد يلزم المحافظة على الجو الأكثر إثارة وتثيجا. وقبل أن يدعوهم ربه إلى جواره، بعد أن يتجردوا من كل المعلوم الدنيوية، يأتون ليخضعوا لتأثيرها الخاص، ليهيجوا في أنفسهم الندم وأمل صهيون، وكل الحنين الوراثي. وهذا النودان والتأرجع الرتيب (الذي يمثل حسب ما قبل لي ترنح الجمال التي كانت تحمل من مصر شعب الله)، وهذا الهرج المتواتر المذهل، الحريّ بدرأويش صوفين، ينتهي إلى الرمي بهم في الفرضية الدينية. هل لأن الفكرة المتسلطة للأرض الموعودة تتملكهم؟ هؤلاء الضامرون العجزة الحاذقون الطبع أكثر يهودية مرتين من الآخرين. إن نموذجهم العرقي له نبرة أخرى هوجاء حاسمة. نعم، أعتقد أن الفكرة الجماعية العتيقة التي تتملك الصّبي من المهّد، وتتغلغل في الرجل طيلة نموه، لم تكف عن التأثير في الخارج، واستكمال صورتها حتى بعد السبعين من العمر. حينها فقط يكون قد حقّق مصيره الذي لا يتمثل سوى في تجسيد نمودجه العرقي.

لكنّ كل ما يشدّ انتباهي هنا كنت قد وقفت عليه في الأحياء اليهودية بفلسطين. فمنذ زمن

طويل، وفي إحدى مساءات شتير بمعبد من المعابد اليهودية بالقدس، رأيت الوضعيات نفسها، ونفس هززة الظهر، والحلم نفسه في العيون، وشرارة الغضب نفسها ضد الدخيل. كانوا هم العجزة أنفسهم، والرجال أنفسهم لأنها كانت الأفكار نفسها. إنها فكرة شبيهة بتلك التي ردّدها لي تجار مسلمون في دمشق وفي أسواق فاس. ها هم الناس الحقيقيون للتاريخ، القوى الكبرى الدائمة التي تحدّد أشكال الإنسان، والتي بها تعود هذه الأخيرة من خلال الديمومة والفضاء، متشابهة كما ينفج الغرب ينفج الشرق، وكما ينفج اليوم ينفج العصور الماضية. إنها نفسها حقاً، بل إنها كذلك بحيث إن القوى المطوعة التي تُنمي المادة البشرية من الداخل أكثر إلحاحاً، هي ليست مختلطة ومتناقضة وفوضوية، كما في غربنا الحديث، وإنما كل واحدة منها بسيطة وخالصة من كل تناقض، تسود لوحدها كما في أوروبا خلال العصور الوسطى، وكما الإسلام واليهودية في الشرق، البارحة واليوم.

23 أبريل/ نيسان. عيد الفصح المسيحي. لا ناقوس هنا لعيد الفصح يذق أجراس البعث. واليوم ليس يوم الأحد. أمام نافذتي كان بناءون يسوّون الجير الطريّ لسطح دارٍ انتهوا من بنائها. وبدقة، يرفعون جماعةً مدقاتهم ويتركونها تنزل، في الحين الذي كانت فيه أفواههم تطلق اللازمة الخافتة والناعسة التي تميز العمل القديم الإيقاعي.

ليس ثمة من ناقوس لعيد الفصح، ولا شيء يتحدث هنا عن العيد. وفاس تمتد أمامي، شاحبة وبلا أصوات كما الأيام السابقة. كم هي بعيدة أوروبا! والمسيحية ليس لها أثر هنا في هذه المدينة، سوى ما كان يكتُّه في نفوسهم الأسرى الذين اعتقلهم القراصنة، عبيد أوروبا الذين بنوا تحت ضربات الكرياج من ثلاثة قرون الحصنين اللذين أراهما في شمال وجنوب المدينة، واللذين يسميان لحدّ الآن قلاع النصارى. لقد كان للهند والصين دياتُهما المسيحية. فهل مورست الصلاة العيسوية أبداً في مدينة فاس؟

ليس ثمة من ناقوس لعيد الفصح. ومع ذلك فالأمر يتعلق بالانبعاث السنوي المجيد. هناك مئات الفواكه الذهبية تتدلّ تحت نافذتي بين أوراق لأمعة. اللون الذهبي الباهت لحبات الليمون، أو الأكثر حمرة لحبات البرتقال. والزهور كالنجوم بين هذه الأوراق قرب الفواكه، إنها ميزة هذه النباتات الرائعة. وفي هذه اللحظة التي يتم فيها تمجيد الحب والحياة، تصعد رائحتها كروح في حالة وجد. وكانت الشحارير تتعارك وتشقّق بلا انقطاع في الخضرة المبرنقة اللامعة، ووسط الليمون والزهور ذات اللمعان الخارق. عصافير أخرى كانت منهيكة ومن مناقبرها تتدلّى اللّيدان الصغيرة وأوراق العشب. أحدها ينطلق من أحد الأفنان نحو الكوّات الزجاجية التي تنير غرفتي من الأعلى. ومن الداخل أراه ينقرّ على عشه. ثمة ثمانية كوات أخرى مشابهة فوق السّقف مباشرة. وكل واحد منها محتوي على عش، وأنا أميز حركات غامضة لفراخ العصافير التي تولد، وأعناق خالية من الريش ترتفع، ومناقبر ممدودة فاغرة فاهاً من الجوع.

البنّاؤون أيضاً يفتّون ويعملون في الهواء الرطب الخفيف لشهر أبريل/ نيسان تحت سماء

رائعة، هناك حيث يتابع الأطلس المتوسط خطَّ الأفق الرقيق. الهواء رطبٌ وخفيف كما الطيور. لكن يا له من تعب متأصل، ويا له من فتور في حركات هؤلاء الرجال، ويا للجملة الحزينة التي يرددونها! إنني أحس وأنا أنظر إليهم وأسمعهم أنَّ دَفْقَ الحياة الذي يصعد الآن في الطبيعة لم يعد يمرُّ في أناس فاس.

منذ أسبوعين، حين فتحت نافذتي لأول مرة، كانوا هناك. وهم هناك كل يوم من الصباح إلى المساء. وإذا ما استفتُ في الفجر، أصادف أصواتهم الاثني عشر المتناغمة المتهادية، بإيقاع وحركة لا يتغيران وبرتابة ملحاحة تُكاد تُؤمنني. وفي النهار أكاد لا أحس بهم، لكن ما أن أرفع عيني عن كتابي أو عن صفحتي، حتى أستعيد وجودهم من جديد في وعيي، كما نستعيد دقائق ساعة حائطية سهونا للحظة عن إدراكها. والآن أصبحت هذه الأنشودة تشكّل جزءاً لا يتجزأ من الأشياء الفائرة بمحيطي. إنها هي أيضاً هناك أمام نافذتي كأشجار وحبّات البرتقال، وكشجوب مدينة فاس، والقبور الكالحة المحروقة في البعيد. إنها أنشودة سكوبنةٌ وممتسلمةٌ كتهيدة تعبٍ بعد الصمت، كأنها هنا من الأزل بمثابة التعليق الإنساني على ذلك المنظر العتيق.

للمرة العشرين أتوقّف للنظر في هؤلاء الرجال الذين يشتغلون ويغنون. عملهم بالأحرى رقصة ذات طابع طقوسي، بطيئة وتكرّره هي نفسها بلا كلل، يقودها ترتيل يكاد يكون ذا طابع طقوسي. إنهم أولاً ذوو لباس شبيه بلباس القُشس، وجلايبهم الريفية أشبه بالبُطرشيل⁽¹⁾ وبرانيسهم الطويلة صالحة للمهام الجلدية كالصلاة، ثم الحلم في صمت عند أسفل الأسوار الهائلة. نحن لا نتصوّر هؤلاء البنائين يهدرون الجيس، أو يحملون حجراً بضربة كتف، أو يحدّون في عملهم بحركات العمل السريعة والقوية. إنهم واقفون، مجتمعون كلهم الاثنا عشر رجلاً في حلقة ضيقة تهادى في حركتها، يرفعون جماعةً يدقّتهم التي لا تسقط إلا بثقلها ذاته. ودائماً يأتون الحركة نفسها، خلال ساعات وساعات، بضربات متباعدة، من غير أن ينظروا لما يقومون به، كأنهم لا يرغبون في ذلك أو لا يعرفون، غافين كلهم في الحلم نفسه، هاشين برؤوسهم. أفواهم فاعرة، وكل واحد منهم منغمس في رتابة وإيقاع الأنشودة. إنها أنشودة الحرفة المندورة لهذا العمل الخاص، التي لم تتغير بالتأكيد منذ قرون. والدار تشيّد

(1) قطعة قماش منقوشة يضعها الكاهن على صدره.

هكذا شيئاً فشيئاً على إيقاع رقصة مؤنمة تقليدية، بحيث يمكننا القول إنها ترتفع هكذا مع الإيقاع والموسيقى، بل يمكننا القول بأن تلك الموسيقى العتيقة تأخذ الآن شكلاً محسوساً ومكتملاً وإن كان عتيقاً أيضاً، هو هذه الدار في زقاق مظلم، التي سوف لن نميزها بعد فترة عن الدور العربية العتيقة الأخرى...

وفيا وراء هذه الفرقة التي تتابع عملها وشكواها، تنحدر فاس وتنتهي عند الهضبة المحروقة لباب الفتوح. وهناك، غير بعيد عن الصومعة البدائية لجامع الأندلس، تبدو الأرض مقعرة بتجاويف واسعة نخالها مناجم حجر قديمة، غير أن فيها تقاويس شاذة متصافّة لا يقف عليها أي شيء. إنها فنادق⁽¹⁾ عتيقة كانت بلا شك ذات أهمية خاصة في العصور الوسطى، حين كانت فاس تمتد على هذه الهضبة التي ليست اليوم سوى مقبرة (عتيقة هي أيضاً) بين الأسوار الكالحة التي تعرّت جذورها. وخلف تلك الحفر تبدأ القبور متناجزة مع الصخور التي تتناثر في هذه المنطقة. تعرفت على الأضرحة التي فقدت طلاءها، والمسجد الأزرق الصغير الذي تحيط به جماعات النساء كل جمعة، يأتين هناك عند نهاية العشية للصلاة، ولزيارة ضريح الولي الصالح، وربط خرق ملوّنة جديدة على زيتونه، لكن بالأخص ليأخذن راحتهن على الطريقة الإسلامية، بالارتخاء وسط القبور. في هذا الوقت يكون نور فاس في حال اندحار، وتشحب المدينة أكثر في البخار الضبابي لواديا. آنذاك وكما العادة تغدو الهضبة الكثيرة قراءاً؛ أجزاء من السور تعلو من ورائها، وأطلال الأبراج نكاد نمتزج بالأرض المحروقة، وقطع من السور ممزقة تعود لعصر المرابطين.

لكن، حول كل ذلك تتوالى البساتين الرطبية حيث كانت أفنان أشجار اللوز والخوخ الباردة تروق بشرارات وردية؛ وهي اليوم خضرة يجعل منها جوار ذلك الخراب أكثر عذوبة. إنها خضرة وضّاحة، بل هي تنحو من فرط يفاعتها نحو الصفرة، إذا ما نحن قارناها بخضرة أشجار الزيتون والبرتقال، أي بتلك التّوريفات الخالدة. ثمة خطوط للصفصاف تلج المدينة وتنتشر فيها في شكل جزر وبخار أخضر وامتداداتٍ عبر البياض العتيق الكاوي. إنه التناقض الخالد في هذه البلدان الإسلامية العتيقة، حيث لا يموت الماضي إلا بتحلل بطيء يكاد لا يُحس، ليترك على الأرض عظامه كلها. وعلينا العودة دائماً لهذا التناقض، ففاس

(1) الفندق كان أشبه بالخان في الشرق. وهو مخصص للمسافرين ودوابهم.

تجد فيه طابعها الاستثنائي. وذكرها الكاملة لديّ يمكنني اختزالها في صورتين: صورة وادي فاس الجاري والمتعرج بين أدغال القصب والبلاب والدودية الأرجوانية تحت ضباب الصفصاف؛ وصورة المساحات الإقطاعية التي تمسك فيها الجبال تحت الصفوف المتحطمة لسنّات السور. تبدو لي الأطلال أكثر وقارا بسبب السيول والأزهار والأوراق المبتقة؛ وبسبب الأطلال، تُفصح لي المياه الجارية بشكل أفضل عن حركة الحياة الهاربة والخارقة. إنه تعارض جميل مؤثر لأن العلاقة العادية فيه انقلبت. المآثر الإنسانية هي التي تحدث هنا عن الأزمنة القديمة وعن الديمومة، والطبيعة هي التي تقدّم لنا العارض والزائل. ولأن الإنسان في هذه البلدان العتيقة ظل بسيطا ولم يسع إلى ترويض الطبيعة، فإن هذه الأخيرة تعرض حياتها في أمواج وانبثاقات عديدة، في كل ما تحفّف من المآثر ونفّث تدريجياً ليدخل في عالم الموت الآمن. لهذا فالسائين العطرة والأنهار السائلة، والأجراف المخضرة تكون دائماً مجاورة للمقابر والأسوار الكثيبة العتيقة.

كم أحسست البارحة بتلك التعارضات من فوق القبور المرينية! كنا قد جاوزنا حقول الزيتون. وكان يسبني عسكريّ مخزيّ حزين، على كفه بندقيته الطويلة ليدراً بها عنا قطاع الطرق المحتملين. صعدنا في صمت مسلكا صخورا، بين فُرشات شاحبة من الأحجار الجيرية، بين الأحراش والأطلال من كل الأزمنة. وأسوار فاس التي تتسلّق هذه الأعالي، تبدو أكثر فظاظة وتهذّما من الأمكنة الأخرى، وتنحدر تدريجياً، يحيط بها زبد أشجار الزيتون للفضي. وأخيراً بدا لنا السهل الممتد في الغرب، مشرفاً على المدينة التي تكاد تلامسه من عقر تجوّفاتها هذه.

إنه امتداد المناظر الطبيعية وعذوبتها التي يصعب وصفها. ثمة الفضاءات الخلاء، معزولة كقطعة من إفريقيا. وهذا السهل، الذي يشبه بحرا هادئا يبرد في صمت الأصيل، ينصاع للأشعة الأخيرة للمساء المنبثة من هذا البريق المنسجم والمخضّر للعشب. كانت سلسلة جبال الأطلس تحده من الجنوب، عند الخط الأزرق الخفيف السائل، حيث يسرح البصر قاطعا الفراسخ تلوّ الفراسخ بحزّة، غاماً كما لو أنه من أعلى الجرف يجب أن يتبع خط الأفق البحري، الأمر الذي يتم بسعادة أكبر، نظرا للمرونة الرائعة للتموّجات الحيّة. ونحو الغرب المستنير، على بعد مسافات لا يمكننا تقديرها، تبرز ثلاث تقطّعات حادة وبنفسجية

من اللامتهى كما لو كانت جُزْراً مغلقة بمنحنى الأرض. وحين نعبّر مرة واحدة هذه الفضاءات الشاسعة، نُتَمِّم وجهنا نحو الشرق. وسطح الأرض من هذه الجهة ينفلت من التّظنر وينحدر بشكل غريب ليكشف عن قعر قفر ومضيء تلمّته فيه تعرّجات نهر سبو. ثم هنالك سطوح من الحجر، وجبال وردية إفريقية في شكل مدرّج؛ والقمة العليا التي تظهر في الأيام الصّحو، والتي تشرف على كل ما حولها، من غير أساس مرئي، وكأنها نابعة من الأثير. إنها قمة عالية جدا، بعيدة وخفيفة، بحيث نخاها بخاراً رقيقاً، سيصبح لتوه شفافاً عند لمعان النجوم الكبرى، لو أن الثلوج اللامعة في القمة لم تخطّطها شيئاً ما.

انتهينا من تسلّق المنحدر الأول لجبل زلاغ، الذي كانت صحوره تتحوّل تحت الشمس الغاربة إلى لون أرجواني حار. وهما نحن نلامس القوسين المنهارين اللذين بناهما السلاطين المربنيون. ومشينا على أنقاضهما الزرقاء من الفسيفساء، وكل ما يوجد في الواجهة من الأطلال يبدو كما فضاءٍ ينحدر وينتهي انحداؤه عند أقدامنا، لتظهر وراءه فاس كاشفة عن نفسها. يا لها من شبح حزين داكن في قلب جمال هذا العالم الذي يغفو في النور! وبإله من مركز مظلم لهذا المنظر الوضيء! كانت المدينة تحشر في وهادها، معزولة عن الشمس التي كانت أشعتها النابعة من المرعى العالي تمرّ من فوقها كي تسير بعيداً لتترك ألوانها على مشرق الدّرجات الهوائية الحجرية. لا أثر للحياة على الاكفهرار المنطفئ. فمن دون مداخن (سوى المثلث الأخضر لضريح مولاي إدريس)، وبهذه البيوت المقطوعة الرأس كلها، تبدو فاس أشبه بمدينة محروقة منذ زمن، لم يتبقّ فيها غير أسوار لها لون الرماد. كل هذا ظل هنا بقي في الزمن، في هذا الوادي المحروم من النور، بين ربوات القبور المنتشرة والخضرة الجديدة (فالطبيعة تستمرّ في الحياة)، في قلب بلاد بكرٍ ومغلقة بالنور. ومدينة الظل هذه ظلت وحيدة معزولة، فهي لا تتصل بأي طريق مع باقي العالم.

تحتنا وفيما فوق فاس، كان يرتفع هيكل حصن عظيم. كانت قمته قد تجوّفت بالآكل، لتغدو عبارة عن نصلين حاذبين كما في جبال الألب حين تتآكل قمة جبل من الحجر الجيري. كان سفحه يمتزج بالصخر بحيث يمدّد مظهره الشامع الصّلب ولا شيء يميّز بينها. هنالك الأحراش الزرقاء نفسها المتسلّقة للصخور والبرج، والجروح نفسها في شكل تجاويف فاعرة يبدو أن العديد منها كانت عبارة عن قبور. إنّه تشقّق واحد يمتدّ من الصخر للسور، والنور

الساطع الذي يغلفها معا يستكمل الخلط بينها. إنه الشاهد المأساوي على عالم غابراً كان يسهر على جنان هذه المدينة، ويمتخ الآثمة للطبيعة بحيث يغذي سكونها.

ومن جانبي هذا الطلل، يمتد سور المدينة العتيق مكدلاً بحصون متشابهة، عمراً ومأكلاً بين الصخور المتأكلة بدورها. والبصر يبط ويصعد متابعاً إياه، فيغيب عنه في أكمام الزيتون وفي الأجراف، ثم يستعيده في الأعلى، ليتعرّف عليه في البعيد خلف الأراضي المحترقة لباب الفتح حيث لم يعد يسور شيئاً عدا مقبرة قديمة.

وعند أقدامنا، في ثلمات هذا السور الخارجي، هنا وهناك، يوجد رجل حالم، ينسلق بين التشققات والأحراش، ليجلس هناك يتأمل المساء. إنه يتأمل الأصل والمدينة الغبراء، والغابة الربيعية حولها، ومن وراء ذلك الساعة الساكنة الدائرية... فعلنا كما هؤلاء الحكماء الذواقين، فاستلمنا لحدّ الفضاء اللامتناهي، بجباله في الشرق، وبالمبسط الأملس كما بحر هاديّ تجمّد في الأصل...

إنه سكون شاسع كما المنظر الممتد أمامنا. ففي هذا العلوّ، لا نسمع شيئاً أبداً غير صفيق أجنحة جوائيم غير مرئية، ضائعة قريناً في هوّة النور، ومرفقة وراء حشراتها المفضّلة.



حين يعسّس الليل ويحين وقت إغلاق الأبواب ويكون المرء قرب الأفواس المربّية هذه، عليه أن يهرع للدخول للمدينة من باب عجّبة. عليّ إذن أن أنزل المنحدر الصّعب، خطوة خطوة، ماسكاً دابّتي جيداً من عنانها. ثمة أحجار تنهاوي، ومنحدرات من التراب المغبر، ثم بين الهياكل العظمية لحمير وكلاب ثمة سريرٌ غدير جاف أصبح عبارة عن مسلك. وبمقدار ما كنت أنزل المنحدر، بدأت أحجار كبيرة تختلط بالصلصال الرّملّي الذي صار يتكاثر في السطح. وبالرغم من قدمها وتآكلها، نحسّ بأنها نُحتت في شكل تابوت. من المستحيل عليّ تفاديها؛ فليس هناك من مسلك غير هذا الذي حُطّ من تلقاء ذاته على مرّ العصور، والذي يسير بنا إلى المقابر. من المستحيل أيضاً عدم المرور قرب حلقة من الحلقات الدينية المعتادة التي تتكوّن هنا كل مساء، حول فقيه عجوز يقرأ ما بين يديه ويعلّق عليه بصوت جهوري. ففي هذا المكان الجانّزي، طالما الليل يقترب، كان هؤلاء الأحياء المتدثّرون بعباءاتهم، والمنحنون

من غير أن يحركوا ساكناً، يشبهون إلى حد ما الأموات الذين ينبعثون في أكفانهم في الليل على جوانب قبورهم...

ولقد عانينا الأمرين حتى لا نمرّ من أمامهم خوفاً من قطع رؤوسنا. فما أن أبصر بنا الفقيه حتى سكت عن الكلام، ومن غير أن يتحرك أيّ وجه من بين الوجوه، رفعت الأعين نحونا بطريقة ذات دلالة، جعلتنا نسرع في تدحرجنا.

وقائع من الحياة اليومية بفاس.

ما يُقال ويُشاع في الأسواق. رجالٌ يتمتعون بحمايتنا وأناس من تلمسان، زبناء للقصص والمفوضية الفرنسية يأتوننا دوماً بهذه الأخبار والإشاعات. لكن ثمة أشياء نبلغُ مسامعنا مباشرة.

مثلاً، هم لا يزالون يترددون على مسامعنا أن علينا اتخاذ الحذر والحيلة. ففي السنة الماضية، دخل أحد البدوئين المدينة، وهو مصمّم حسيماً فيها بعد، على قتل أول رومي يلاقه حول جامع مولاي إدريس. وكان القتل نصيب أحد الإنجليز كان يساوم أجواخاً في مدخل زقاق محرم. الرجاء عدم المغامرة هناك إلا بحراسة جيدة، أو على الأقل التجوّل بحيلة وحذر كبيرين، من غير كلام، واتخاذ مظهر جادّ وحازم، كما هو حال الناس بفاس.

كان الريسولي⁽¹⁾، الذي لم ينس السيد بيرديكاريس⁽²⁾ Perdicaris ضيافته قد عين مؤخراً باشا على أحواز مدينة طنجة. وهو ما يعني أن على المفوضيات الأجنبية الأساسية، الموجودة خارج المدينة، أن تطلب من قاطع الطريق هذا حراسها الضروريين. وقد بدأ ممارسة مهامه بتجريد تلك المفوضيات من حرسها، وهو ما سيؤدي إلى معارك حامية في السوق الكبير الذي يقع تحت نفوذ ذلك الباشا. فمن بين القبائل والقرى التي تقصده لتسويق متوجاتها، نصفها يحارب رجال الريسولي. لذلك فهذا الأخير لا يبالغ في الحظوة التي يتمتع بها؛ فهو خبير بكل الخيل السياسية القديمة للمخزن، بحيث لا بد أنه أحسن بمكيده. وأن يتجاسر على ترك معقل جباله كي يتجوّل في نواحي السوق الكبير الذي قع في دائرة نفوذه، في الوقت الذي يبدو أن عساكر باشا مدينة طنجة لديهم أمر بالانقضاء عليه، فذاك شأنٌ محيرٌ. حينها

(1) أحد الريسولي (أو الريسوني)، كان أحد أكبر قطاع الطرق في عهد مولاي الحسن في أواخر القرن 19 وبدايات القرن 20، وصار قوة مسيطرة على الشمال المغربي، فأمر السلطان باعتقاله. وظل في السجن إلى أن تولى مولاي عبد العزيز الحكم، فأطلق سراحه، ليعاود مناوشاته للقوى الأجنبية بطنجة. عينه مولاي عبد حفيظ باشا على مدينة أصيلة.

(2) بيرديكاريس مواطن أمريكي اعتقله الريسوني هو وشخص بريطاني معه، في ماي 1904، ولم يطلق سراحه إلا بفدية هائلة. وقد أثار الحدث مشكلات كبرى بين القوى الأوروبية وأمريكا.

سيودع نهايا المساعدات التي حظي بها، وسياسة الغاب المربحة مرة إلى الأبد. فالأقباء العميقة لفاس الجديد التي تصلح لممارسة العدالة والأخذ بالتأثر الشخصي للسلطان تحفظ جيداً مساجينها. والريسولي الذي يعرف كل هذا جيداً يظل محتمياً بجبله الأحمر. إنه هو يمارس سيادته من غير أن يقترب من حكومته.

لا يزال بريد طنجة يتعرّض للنهب من وقت لآخر، وفي العادة على بُعد بضع ساعات من البحر، حين يدخل أراضي الريسولي.

بعض الحكايات المشؤومة تذكرنا أننا في عصر فليب الجميل⁽¹⁾، وعصر السحر الأسود وأن التواريخ المحفورة على كل الجدران تبدأ كلها برقم 13. ففي زنقة «عقبة الفئران» حيناً، يقوم عساكر المخزن بالتجوّل من باب لباب بتاجر عجوز خجول من نفسه تحت سباب ولعنات الناس. وهو سوف يقضي الليلة أيضاً في الحبس، وقد يفاديه في الغد إذا ما هو قرّر منح القاضي صرة المال المليئة المنتظرة منه. وإليك جريمته. لقد فقد هذا الرجل زوجته من بضعة أيام. هرعت الجارات، وناحت النائمات، وكثر اللغط الشعائري، والمهرج والمرج طيلة اليوم كما هي العادة في هذه الحال. وفي الليل ظل الزوج وحيداً مع غسالة الميتة قرب الجنان الذي كان قد كُفّن ليدفن في الغد. وعند الفجر، وحين بدأت الغسالة تغيق من النوم، أبصرت بالرجل منكفئاً على جثمان الميتة ويدها تقومان بحركات غريبة. وحتى لا يحس بها الرجل ظلت عينها في نصف إغماضة فرائت أن الكفن قد فُسخ، وأن الرجل سحب من قفطانه أربع قطع خبز حزمها في باطن ركبتي المرأة الميتة وتحت إبطيها، ثم أعاد الكفن كما كان. لم تنس الغسالة بينت شفة بالرغم من أنها شكّت في عملية سحرية، وتركت الناس يوارونها التراب. لكنها لم تستطع مع صواحبيها في الثروة من أن تحبس لسانها، فكان أن تردّدت الخبر بحيث وصل إلى أذني القاضي. ونُبش القبر وأخرج الجثمان فوجدت الخبزات الأربع كما وصفتها الغسالة، وتمت محاكمة التاجر. وخلال المحاكمة اعترف التاجر بأنه بفعلته تلك كان يرغب في ممارسة عمل مُشين يتمثل في كون تلك العملية والشعائر المصاحبة لها تمكّن من تعقّن

(1) هو فليب الرابع (1268-1314م) ملك فرنسا، الملقب بـ«فليب الجميل». عرف عصره الفلاقل واعتبر انتقلاً من فرنسا الإقطاعية إلى فرنسا المنظمة إدارياً من خلال الإصلاحات الاقتصادية والإدارية التي أدخلها. واتسم بالاختصاص بالصراع بينه وبين البابا بونيفاس الثامن

مخزون فاس كله من الحبوب والمؤن. وهو كان ينتظر وصول أربعين حملاً عملاً بالحبوب الجيدة من العرائش، وبما أنها لم تكن قد بلغت فاس فإنها لن تعاني من أثر السحر. وهكذا كان ينتهي تموين المدينة في وقت ستكون فيه الكارثة العامة سبباً في ثروته. نطق القاضي بحكم حكيم وقاسٍ في حق الرجل وأمر بالتجوال به في المدينة على ظهر حمار عبرةً لمن يعتبر.

وأنا معجب بهذا الحكم الرّحيم. ففي عهد فيليب الجميل، كان الحكم في حق رجل ساحر كهذا سيكون المحرقة. لكن العدالة في البلاد الإسلامية رحيمةٌ. ففي المغرب كما في تركيا لا يتم قطع رؤوس كثيرة. والروؤوس التي تعلق في باب المحروق غداة الانتصار في معركة، وتقدم ليهود الملاح قصد تمليحها، تقطع من أجساد صرعى المعركة. وفي العمق، فما نسميه جريمة ليس بالأمر الذي يثير الصدمة. فالاغتيال ليس في غالب الأمر سوى حادث من أحداث الحروب بين القرى، والسرقة نمط من أنماط النهب التليد، وهي مسألة أفضل من أخرى وتتم بشكل مباح. وفي الغالب فإن من تقع عليه السرقة يتفاوض مع السارق كي يحتفظ ببعض الغنيمة. فهل يتم اللجوء إلى القاضي؟ يسعى هذا الأخير في البداية إلى المصالحة بين المتقاضين. وإذا ما هو نطق بالحبس، فإن الجاني يكون مدينًا للمجني عليه بغرامة مالية، وهي مساومةٌ تسهر عليها السلطة القضائية وتخصم منها نصيبها. وحين تتم الصّفقة، يأتي السارق والمسروق معاً إلى المحكمة، في المشور العتيق في قعر القوس الأعمى، حيث يكون القاضي مقرصاً على مقعده الحجري، ويتلو عليها بعض الآيات التي تنصّ على المصالحة، فيتعاقب الخصمان. وهكذا تأخذ الحياة الاجتماعية هنا حُطاطتها الكاملة، في طابعها البسيط والخرافي الذي يشكل ميزة القصص الشرقية.



لا يزال الطلبة في غمرة احتفالهم منذ أسبوع. إنهم يمسكرون في المرمى على الشطّ المزهري لوادى فاس، حيث تتلخّص متعّتهم في العزف على العود وطبخ بعض المأكولات السريعة. والعادة جرت أن السلطان الفعلي للبلاد يتظاهر بأخذهم مأخذ الجد والتعامل مع سلطان الطلبة بطريقة ملكية وذلك قصد المزاح. يتم في البداية تبادل الزيارات بين الوزراء من الطرفين، ثم بين السلطان الحق وسلطان الكرنفال. إنها أيام ترفهية للفاسيين الذين يموتون

من القنوط والملل. ففي أوقات الانحطاط التي لم يعد فيها هذا الشعب شعباً فعلياً، يندو سعيداً لابتداع ذرائع لحفلات شبيهة بالحفلات والأعياد الحقّة في الماضي، بالرغم من أنها مخالفة لها ومجرّدة من دلالتها العميقة، باعتبار أنها ليست فكرة حيوية تسمى لتمجيد الشعب.

لم أحسّ بأيّ تعاطف وجداني، لأنني كنت أعرف أن الأمر لا يتعلق سوى بلعبة لا تتوفر على أي أساس أخلاقي أو وطني أو ديني، وأنا أرى جبهة الفاسيين تغمر المشور وتتجمّع فوق كوم التراب التي تغوص فيها أساسات الأسوار الهائلة، وهي بنفسها تبدو داكنة ورصاصية مثلها مثل تلك الأسوار المستنّة الموجّشة. وفي وسط المربع، كان هناك جنودٌ خضروّ وحمروّ (بأنفخذ عارية وبزيّ بئيس يجعلهم أشبه بالقروء الإنسانية)، خمسون فارساً أبيض من الكيش يجرسون فضاء محرّماً. وهناك كان أعيان من المدينة ينتظرون مع جوقه من الموسيقيين أمام قوس وراءه بابٌ عظيم، الوحيد هنا الذي يحمل تاريخاً حديثاً من التاريخ الهجري: 1321، غير أنه باب غريب، لأنه يقود إلى أسوار القصر الذي لا يعرف الشعب إلا أسواره اللانهائية. وفي الطرف القضيّ من المستطيل الطويل، تراكب أطلال شائخة وهائلة، من قلاع عظيمة نخلها مستحاثات، لأن اتصالها بالأسوار الحديثة يشبه اتصال حيوان أسطوري ضخم بالفيل. كانت أحجارها العتيقة المتوحدة تسود في السماء في شكل غيوم سوداء، تعلوها خضرة الحراز، والشمس فيها وراء الظل وحركة الناس في الساحة العميقة، تتر بوضوح الماضي البعيد وتعيده للحياة. ما هي قيمة الناس اليوم في سفح هذه المخلوقات التي عرفت أمجاد أسايد إسبانيا؟

زعم النفير وبدأ المركب السلطاني في الظهور. كان يخرج من الباب العالي ذي الطابع الأندلسي الذي نُقش عليه رقم السلطان الأخير. وصار الفرسان يتوالون زرافات منبثقين من القوس المدلهم، في خطوط طافية متعرجة كما أوشحة يتلاعب بها الريح في النور. رقص الخيول ولعبة الفروسية الرائعة، ولمعان السيوف؛ اختلاط أعراف الخيول المتهايدة والبرانس والجلابيب من الصوف الرفيع التي تكشف عن الأحزمة من خيوط الذهب، ولون القفاطين الوردي والأصفر والكستنائي. وما هو الفضاء الخالي الذي كان يحرسه العسكر يمثل بفوضى عارمة وبقفزات الجياد. ظلت الجياد النافرة عند مرأى الناس تزيد من هيجانها، وصفوفها تنفكك، وقواد المجموعات يركضون من هذا الطرف لذاك صارخين بأوامرهم

الجمهوريّة. وسارت هذه الفرقة بصُعبوبة تحت أسنان السور السوداء لتغوص في الباب الشمالي في المحور الأكثر شساعة من الساحة. وأخيراً، وخلال بضع دقائق، في فاس هاته التي لم أعرف فيها إلا ما هو باردٌ ومغلّقٌ وصامتٌ كما قبر من الجبر، انبثق أمامي الشرق الخرافي رائعا في تلاوته، ذلك الشرق الذي تحبّله الفنانون الرومنسيون لدينا، والذي يزين سقط متاعه مراسمهم. وفي هذا المرح البهيج من الألوان والبريق، رايت الأعلام وسروج القطيفة القرمزية، وعدة الأفراس الخضراء الباهتة، وحديدتها المنقوش، والمهاميز الواسعة المسطحة المزينة بالعظام، والخناجر وقوارير البارود الإجاصية بقرنها المزوّق وحبلها الحريري حيث تتدلّى قطعٌ من الجلد الأخضر. والعباءات الموصلية المنسدلة والضبابية وهي تحجب أو تكشف عن كل هذا، على هوى دوران الفرس أو قفزاته. وفي غمرة هذا المنظر الاحتفالي، كان ثمة شيء يلمع في صدر أحد القوّاد. وحين مرّ بجانبي، تعرفت على شارة جوقه الشرف الفرنسية، وهي عبارة عن صليب في حجم الكف راق له أن يرسمه على قفطانه، قد يكون رآه لدى بعض أمراء الجزائر.

وأخيراً ها هم الموسيقيون الزنوج ينفخون في النفير، فانبعث زعيقٌ نحاسي طويل تقابله ضربات الطبل العميقة. كم كان هذا اللحن الملّون المتناقض شجياً وبعيداً وغريباً، وكم كان موافقا لهذا الفضاء القُروسطي الشاسع والمظلم. كانت الجوقة تعزف بمجيء السلطان. وها هو يظهر في موجة من الشخصيات أكثر شيخوخة من الأخرى، يسمته النحيف، مرتدياً أيضاً الأبيض بحيث يبدو من الممر المقوس. إنه الشريف، والولي الذي يتعرف عليه المرء للتوّ، يختلف عن كل الآخرين، المتوحد وسط هذا الحشد من الناس، لأنه كان لا يبدي حراكاً، مرتدياً البياض في كل شيء كما لو كان محبوساً في الثنايا النيرة لكفن طويل.

كان ثلاثة من العبيد راجلين محيطين به، أحدهم يرفع فوق رأسه مظلة حمراء، والآخران يحملان مروّحتين يمنعان بهما الذباب عن فرس السلطان التافر. لكنه هو لم تكن عليه سياء الحياة، فقد ظلّ معتدل القوام، كما لو كان مربوطاً إلى فرسه، وساعده جامدان ونحبان تحت ثيابه بحيث نخال أنه بتجاهلها تماماً. لم أر عينه فتحيّلتها مغمّضتين، بحيث يبدو أنه لا يرى ولا يحسّ بأي شيء. كان مثل مومياء مقدّسة يظهرها الرهبان للشعب في جلال واحتفالية.

وفجأة سمعت اللَّغظ الصارخ للجماهير التي علت على زغاريد النساء الحادة والمهاجة. كنَّ وراء الرجال فوق كَوَم التراب المتراكمة على جنبات الأسوار، متجمعات تحت رؤوس تشنّات السور الطويلة، في شكل قطع له لونُ الصوف من غير أن يظهر منهن وجهٌ واحدٌ. كانت الزَّغاريد الحادة والمتهاوجة للنساء تأتي من كل مكان، وقد تعرّفت عليها لأنّي سمعتها من قبلُ في لبنان ومصر. إنها الأصوات التي تتعالى في المشرق بكامله منذ ليل الزمن، بمناسبة الأعياد أو الجنائز. والثَّوراة تحدث عنها، فهي في طيبة وبيبلوس وقرطاج تستقبل المنتصرين، وتصاحب الطُّواف المقدس ومواكب موت الآلهة وانبعاثها (أدونيس، أوزيريس). تلك الزغاريد تعبر عن منتهى العاطفة، وعن الميجان المقدس الحماسي أو اليائس، القريب من الوجد الكهنوتي، والدُّوار الذي يغيب فيه الفرد. إن هذه الحالات القصوى التي يبحث عنها الشرق من فاس إلى كلكوتا، والتي يعتبرها ذات مصدر إلهي، لا تدل عليها هذه الجلبة الصاخبة فقط وإنما تستدعيها وتساهم في إنتاجها.

والمناسبة هنا ليست ذات قيمة، وعلينا ألا ننسى ذلك. فحفل الطلبة هذا لا معنى عميق له. لكن أهل فاس يجدونه أمراً موجبا للعواطف، مليئا بالاعتبار والهيبة التي يتمتع بها هذا الشيخ الضامر للغارس الذي لا يتحرك، والذي يغلفه البياض الساحر حتى أسفل المهاز. هذا الشكل الصارم، الجامد والكهنوتي، ما يتجدد أمامه هو فكرة الكمال، التي يسعى إلى تحقيقها عبر وضعية الصُّمت والوقار. وفكرة من قبيل هذه هي مُتتهى وغاية حضارة بكاملها، وليس مهما أن تكون تلك الحضارة في انحطاط، فحين تنتج الفكرة تستمر في الوجود. ليس مهما أن يكون هذا السلطان سلطانا غير حقيقي، وألا يكون هذا الطالب زعيما حقاً، أو ألا يكون طالبا من أهل فاس. ففي هذه اللحظة، يتحقق في عيون هذه الجماهرة المسلمة حلمٌ عتيق بالجمال تبلور خلال قرون عديدة، ويرتبط بجوهر المجتمع الإسلامي. أمام هذا اللباس الزنبرقي الخالص، وإزاء هذا الصُّمت الصارم والتري، وأمام هذا جود هذا الولي الصالح الذي لا يتواصل إلا مع ربه، تهيج هذه الجماهير، كما أن مرأى جنرال على صهوة جواده، حاملا سيفه ومزينا بياشيتيه، في أوروبا يجعل الشعب يحلم بالبطولة والمجد وإشارة الإمبراطورية الخالدة.

إنني أفضل الأيام العادية لقطع الساحات الإقطاعية الكبرى، ومعها المنظر الخرافي في مدخل فاس. وهكذا، ففي سكونية المساء والوحدة، التي لا يعكّر صفوها مرور قطائع الدواب والفرسان، التي تبدو صغيرة جداً قرب الأسوار، نسمع أفضل الأصوات التي تأتي من الماضي. وكل تلك الأشكال الرمادية، المتهاكة طوال الساحات والمعمرات، لا يبدو أنها تصمت أو تنكمش على نفسها في عباها إلا لتتصّت مليّاً لما تقوله في صمت.

تلك الأصوات متعددة ومختلفة، تبعاً للوقت والنور، قد تبدو غامضة وبعيدة أو واضحة، وبدلالات مختلفة، مثل موضوع موسيقي يتغيّر معناه وقيّمته.

أحياناً، في تلك الأسابيع الأولى من أبريل/ نيسان التي تكون قريبة من الاعتدال، بعد أيام ساخنة وشفاقة، يبدأ نفس المحيط الأطلسي (الذي يبعد كثيراً من هنا) في الضغط كما في الخريف بباريس، حين تهبّ ريح مكدرّة ورطبة آتية من الجنوب الغربي. كل شيء يتكدّر ويغدو مظلماً. وينكشف عالم الأطلال وتشتت التور هذا في صورة أكثر شيخوخة ومأساوية، في الفرجات بين الغيوم. حينها وحينها فقط، ينبعث هذا الماضي ويصبح حاضراً وفي أوج حيويته. إنه هناك، بعد أن انتهت الفواصل بين القرون، ولم تعد ذكراه هي ما تجترّه المآثر. ومن دون شك في تلك اللحظات أن اكفهرار السماء والضباب الأسود المنذر بالعاصفة بتناغم مع قدم الأشياء حتى ليبدو معاصراً لها. وفجأة يبدو أن ليلة من العصور الوسطى المظلمة قد عاد: إنها فاس القرن الخامس عشر هي التي تمتزج بهذه السماء العتيقة. هؤلاء الناس الذين يدفعون حيرهم نحو باب المدينة، وهؤلاء الفرسان المتلفعون ببرانسهم يسرون بمحاذاة سور المدينة، هم إخوة عرب إسبانيا الذين يعيشون في هذا الوقت بفرناطة خلف باحة مشابهة يتوسطها باب مشابه أيضاً.

لكن السماء في الغالب تكون يافعة، وأفقها بكراً منتشياً بفرحة شهر أبريل/ نيسان بحيث نخالها نوراً ينبثق للحظة، مثل جناح مرتعشٍ ومنطلقٍ ليراقية. وكم نحس أن هذه اللحظة في بريقها الحاد تكون هي الواقع كله! وكم يبدو الماضي ماضياً!

ندخل المدينة من «باب الساجمة»، دائماً مع ضجيج وثغاء قُطعان الخرفان المتزاحمة السائرة تحت الظلال الوارفة للجبال. وفجأة يفتح المشور الكبير (حيث مرَّ السلطان من أيام لملاقة الطلبة). وخلف الفرسان الذين يشكّلون حاميّتنا العسكرية، ومع المراكب الأخرى التي تعود للمدينة وينادقها على أكتافها، عبرناه في محوره الزنيس، من الباب الشمالي نحو الباب الذي يغوص في الأجراف المظلمة المتوازية للأبراج المريّنة، على بعد مائتي متر. وحين يعود المرء من رحلة العدو على الفرس في المَبْسَط يندھش للحرارة السائدة بين هذه الأسوار. فهواء الخارج لا يتسلّل هنا بالتأكيد إلا تدريجياً، وكل فُرْشَة عمودية من الآجر أو الطين التي سَخّنتها السماء طيلة اليوم تحتاج للعديد من الساعات كي تبرد.



غير بعيد عن «المشور» باتجاه الملاح، توجد أجمل صوامع فاس الجديد، تلك التي نراها من «باب الفتوح» تلوح في السماء في الطرف الأعلى من الوادي. ففي هذا الحي المخصّص لخدام القصر وجنود «الجيش»، ليست الأزقة عبارة عن أحاديث عميقة كما في المدينة القديمة. ولا وجود للأقواس التي تحول دون التقاء المنازل العتيقة في أعلاها. إنه ضاحية بُنيت حديثاً، المنازل فيها واطئة مشيّدة من الطين الناصع.

أصبح الوقت متأخراً حين عبرنا ساحة أبي الجنود الطويلة للنزول نحو فاس البالي. كانت السّراجات قد أُنبِرت تحت الحيام البدوية والأكواخ المتكئة على السور. وفي هذه المنازل المظلمة تنهمك النساء في مشاغل الليل، ومن خلال الشقوق والمنفتحات نرى الأطفال الرُضّع عراة، وأيدي مليئة بالخواتم تحرك القُدور.

لكن في الخارج، لا يزال موقع المخيم ضاحياً بالحركة تحت النجوم التي بدأت تطلق بريقها. وعبر الزّحام يروح السحرة الزوج ويمبشون بأكاليلهم المحارية ضارين الطبل، وحين مررنا بهم واجهونا بإشارات بشوشة. وثمة أولياء يلبسون عباءات غريبة يوزّعون بركانهم على الناس ويقبّل الناس أيديهم. وفي طرفي الساحة الطويلة، يرفع الحكواتيون أيديهم فتطير معها برانسهم. وقصصهم المتعلقة بالجن والخلفاء والجمال الطائرة تتتابع من يوم لآخر مثلها في ذلك مثل حكايات شهرزاد. وفي أمكنة أخرى يتحلّق الناس حول البهلوانات. هل هناك

نموذجٌ مذهري لحاوي الثَّعابين؟ أولئك الحواة الذين رأيتهم في فاس رجالٌ طويلو القامة صامرون وذوو بشرة كالخة وعيون حاملة وحركات بطيئة، بحيث يشبهون بشكل كبير إخوانهم في الهند الذين يلعبون بالكوبرا.

على المرء أن يعبرُ بتؤدةٍ كبيرة هذه الفضاءات المأهولة في الصُّباح في عزِّ الشمس عند وقت انطلاق السوق، كي يدرك التَّنوع الكبير في الهيئة والطُّباع. وأنا لا أعرف بلدا في الدنيا، غير الهند التي تكاد تكون قارةً، تختلف فيها الألوان وتتَّوع إلى هذه الدرجة. إنها في المغرب تسير من لون الزُّنوجة حتى اللون الأبيض الشمالي، مروراً من كل الانتقالات اللَّونية بينها. فهناك لون الخلاستين بكامل درجاته، ثم ألوان ناس أوروبا، والألوان المتوسطة الزيتونية أو السمراء، واللون الأكثر نصاعة للبلدان الجرمانية. وبعض الرؤوس تدهش لا فقط بعيونها الزرقاء وشعرها الأشقر الباهت وإنا بينيتها وتعبيراتها الشَّالية وبرباطة جأشها وطبعها البارد المتشد. ونحن نتساءل كما يلح على ذلك بعض الإثنوغرافيين إن كان قد تبقى في بلاد البربر هذه شيء من الدم القوطي والوندالي. وهؤلاء هم في الغالب بدوٌ وريفيون، لأن البورجوازية الحضرية أو طبقة المخزن، تشتري الزنوجيات المرغوبات في الأسواق، فتتسبغ تدريجياً بالدم الأسود. ولو كان هنا حكم لوني مسبق لكان سيفضِّل الملَّونين، لكن ليس هنا من إحساس عرقي، فكل التمايزات تصبُّ في وحدة الدِّين والإيمان. الأسود والأبيض إخوانٌ في المغرب أكثر من أي بلد آخر، باعتبارهما مؤمنين معاً، فيما أنها أخوان في الصلاة، فإن المقت الاجتماعي في مجتمع ذي جوهر ديني لا ينصبُّ سوى على الأجنبي كلفةً، أي المشرِك. وبعض الأولياء الذين يزورهم الناس ويقُدُّسونهم في هذا الميدان الشاسع لأبي الجنود هم زنوج من السودان. لكن عند الأصيل، تمنحي تلك الاختلافات. فلا نرى سوى بشريةً غامضة تتهادى، تؤخِّد بينها العباءات الفضفاضة، وترها تتحرَّك تحت الأسوار العظيمة التي يتحوَّل فوقها كل سنٍّ من سننات التور إلى شبحٍ أسود...

بدأت أعرف جيداً بعض هؤلاء الوزراء الغريبيين الذين تتجسّد فيهم روح الحضارة الأندلسية، والمدافعين عن أطلالها اليوم ضد المسيحية التي تحاصرها وتتربّص بها الدوائر. وهم يعيشون من جديد حيوّات السياسين الدّواهي بغرناطة الذين عرفوا كيف يحافظون لمدة أربعة قرون على المملكة العربية الصّغيرة وسط إسبانيا الكاثوليكية. وبعضهم فقط كان أبائهم أسيادا لبلاد البربر المتوحّشة. بأي براعة تُراهم يؤبّدون هذا النظام الشائخ المبني على الرّثسرة والموت، حيث هم الأمراء!

اجتمع وزير الحرب ووزير الخارجية (واسمه الحقيقي وزير البحر) كي يتفقا على استقبالي. فقد حدّثوا عني كما عن فقيه، أي قرّاءٍ للكتب وصادقٍ للعلم، ذلك العلم الوروي الغريب والخطير الذي صنع قوة أوروبا. وسألا للتوّ إن كنت رجل مخزن، أي شخصية رسمية تنتمي للدولة الفرنسية. فكان الرّدّ بالنفي فأبانا عن غبّتهما. حصلت على موعد لدى وزير البحر في القاعة التي تصلح للاجتماعات الدبلوماسية. وهذه المرة لن يتعلّق الأمر لا بالاقتراض ولا بالإصلاحات، إذ سوف يمكننا من دون أفكار مسبقة أن نبادل وجهات النظر عن الدّراسة، التي تعتبر خطوة المرموقين. وكان بصحّتي التّرجمان الجزائري⁽¹⁾ للمفوضية، وهو فقيه وأديب أيضاً، يجذوه الفضول لحضور هذه المقابلة.

كان الزقاق مثل باقي الأزقة، والباب شبيها باقي الأبواب، وهناك تركنا بغالنا لتتبع ظلّ ممّر متعرج طويل. وبعده، ها هو البهاء المحبوس، فناء ملكيّ، وأقواس أقلّ زخرفة من أقواس دار المقرّي، بياض عارٍ ورفيع وبأعمدة رقيقة من تحت. وفي عتبة باب من خشب الأرز، وجدنا مضيّفينا اللذين هرعّا إلى لقائنا. كانا رجلين مغربيين من عليّة القوم وكانت ثنايا حايكهما الفضفاض متراصة على الشكل الروماني. كان الاستقبال من اللياقة والحرارة

(1) يتعلّق الأمر بابن غريبط، الذي سوف يظلّ تراجنا بالمغرب حتى يتم تعيينه مديراً وإماماً لمسجد باريس بعد تشييده مباشرة في أواسط عشرينيات القرن الماضي.

بمكان، والتحتيات عميقة تصاحبها حركات الثوب الموصل والبيسات، والرجوه بشوشة تنضج بالحفاوة. وبما أنهم كانوا يستقبلون «فقيها» من أوروبا العاملة فقد كانوا مسرورين لذلك لأن رغبتهم قد بُيِّت.

كان وزير البحر، الذي عبّر أكثر عن حفاوته، أصغر المستقبلين جميعا، وهو شبيه بمحمد المقرئ الصدر الأعظم (ووزير القصر والملذات السلطانية)، الذي كنت قد التقيته بضعة أيام قبل ذلك. لكنه أكثر انفتاحا منه وأكثر حفاوة، ومثله يميل لونه شيئا ما إلى السواد، وبياض عينه مشوب بالصفرة كما عيون الزنوج، وإن لم يكن في هيته شيء من الروح الزنجية. على العكس من ذلك كانت شفتاه رقيقتين، والفم حادا على الهيئة العربية، ونحافته ورعة، وهيشته تنم عن الإرادة والاهتمام الخفي، وعينان بلون الجمر. يخاله المرء نمرا من نمور الغاب تنكشف حماسه الممكنة، وجروح رغبته وشهوته، وطاقته الوثابة في الإيقاع المتهاوج لفظنة المشية الخفيفة.

أما وزير الحرب فكان يبدو أشبه بأوروبي، فهو رجل بدين ذو لحية بيضاء قصيرة مقصوفة على الطريقة الإنجليزية، ولون ناصع بشكل غريب، وعينين ذواتي زرقة شاحبة نندهش أن نلاقيهما تحت شمس إفريقيا. وصوته الحاد، وحركاته الحيوية تجعل منه في الأخير واحداً من أولئك العجزة ذوي المزاج المرح، الذين يرتاح لهم المرء ويشق فيهم.

كان يتبعهما كاتب شاب ذو حركات حذرة قدامه إلي. كان هذا «الخواجة» لا يشبه لا الأوروبي ولا الإفريقي الأسود. إنه مغربي قحّ، من النماذج التي نلاقيها عادة في أسواق فاس، بوجه خشين وممتلي محاط بسواد اللحية الإسلامية، وشارب مقصوص على حدّ الشفة العليا بحيث يبدو قوسا تاما. إنها هيئة إسلامية كاملة مكونة من التواضع والوقار وهي التي نجدها في المنمنات الفارسية. ومن بداية زيارتي إلى نهايتها ظل يرسم على عيائه ابتسامة مؤدبة. وظل جامدا لا يتحرك في عباته ذات الثياب الدقيقة، بحيث لا يتحدث إلا بالنظرة، تلك اللغة الإسلامية الحقيقية، مشعاً أدبا وحذرا. كان هذا الشاب يحضر منذ عدة شهور المفاوضات بين الدبلوماسيين المغاربة والفرنسيين. وبينما كانت المناقشات والحُطَب تتوالى، كان في زاوية من الغرفة الفسيحة، ومن غير أن ينتبه أحد لوجوده، يقوم بتحرير تقارير تجعلها الحداثة العربية

ذات أهمية خاصة في أنظار دبلوماسي برلين. وأنا أنظر إليه، تذكرت أن كل كاتب هو كاتب الشرّ وحافظه.

كنا نحن الخمسة جالسين حول زربية خضراء على الطريقة الأوروبية، في تلك القاعة الواسعة التي تصلح للمؤتمرات السياسية مع الأوروبيين. اتخذت الشخصيتان الرئيستان مكانهما في مقابلي، فامتلاً ذهني بذكرى سنة عشتها عند اجتيازي الباكلوريا. لكن ممتحناتي هذان كانا يتميزان بالرفق وحسن الالتفات، والكاتب بجانبهما يداعبني بنظراته. كنا قد دخلنا صلب الموضوع. فهو لاء الأشراف المغاربة يملكون من الخبرة العتيقة بحيث لا يحسون بالخرج أمام أي شيء.

وما أن امتدحوا في شخصي العلم الأوروبي، حتى رددت عليهم بذكر أسلافهم، عرب إسبانيا الذين أتوا بالعلم إلى أوروبا العصور الوسطى. كان ذلك الجواب قد وقع منهم موقعا حسنا، فتحرك رأساهما بما يعبر عن الرضا. وهكذا جاء على ذكر هذا الماضي الجليل الذي يعرفانه حق المعرفة، ومعركة «بواتي»، وهارون الرشيد (الذي حُكي لي في دمشق عن مكارمه بالدقة نفسها) والساعات المائة الخمس التي أهداها للإمبراطور شارلمان، ثم ممالك العرب في إسبانيا، وأمراء الأندلس عشاق الموسيقى وأغاني الحب، والجامعات الكبرى بقرطبة وفاس حيث كان يمارس علم الفلك. فسألتها: «لكن فاس ما تزال تملك جامعة القرويين. فهل حقاً لم يعد يوجد بها علماء فلك من بين العلماء؟». فأجابوا بالتفني. فاستطردت: «والعلوم العربية الأخرى كالرياضيات والجغرافيا والكيمياء، هل حقاً أنها اندثرت كما سمعنا؟» فكان الجواب: «كانت هذه العلوم كلها تدرّس قبل خمسين سنة. لكن اليوم، لا. لقد انتهى الأمر». إنها بالبساطة والهمة نفسها التي تمخّدت بها عن علماء الماضي يكرّران لي أن الأمر انتهى، وأن العلم الذي لا يزالون يسمونه «الجبر» قد أهمل إهمالاً. ولا ندم أو تردّد في ذلك، بحيث لا يبدو عليهما الإحساس بأي نقص أو انحطاط في ذلك. إنهما سيتحدثان باللهجة نفسها عن نبذة كانت توجد في بادية فاس وانقرضت اليوم. بيد أني أبدت لهم ارتياباً مؤذّباً، مذكّراً إياهم ببعض المشكلات الخالدة التي لا يمكن للإنسان أن يعرض عنها كل الإعراض. فصرّحا لي أن الناس العقلاء والمسنين يتناقشون فعلاً أحياناً في مسألة النفس وعلاقتها بالبدن، وفي الاختلاف بين الإنسان والحوان وغيرها من الموضوعات الماثلة، وذلك في مجال الفقه، بينهم

وبين الناس المتفهمين في أمور القرآن والدين، خاصة في المسامرات بعد العشاء (بعد غسل الأيدي والجلوس القرفصاء على الزرابي بين فيض الأتواب الموصلية).

ثم جرى بنا الحديث للحياة الأندلسية القديمة (فالأندلس في منظورهم نعتٌ يعود دائماً على أسلافهم في إسبانيا). وقد بدأ في هذا الأمر على علم كبير تبعاً لتقليد لا يزال حياً. فقال بنسليمان إن غرناطة كانت شبيهة كل الشبه بفاس. ففي القرون الماضية كان ثمة اضطهاد، فتأوَّرب المسلمون بعض الشيء، وتخلَّت نساؤهم عن الحجاب، وفقد البرنس عُتبه، وفي ذلك أصل المعطف الإسباني. وفي فاس لا يزال الناس يتذكَّرون كل ذلك كما لو كان البارحة (فما هي ثلاثة قرون في بلاد الإسلام؟؟). وظلت العائلات من أصول أندلسية متميزة أو بعضها تحتفظ بمفاتيح الدور التي تركها آباؤهم في غرناطة. ويعترف عليهم المرء بأسائهم الإسبانية، وبالبلغات (الأحذية) السوداء لدى الرجال، ويزي نسايتهم. لكن أجمل شيء جاء به الهاربون من غرناطة هو الموسيقى. فالبدو والرعاة يغنون ألحانا غير معروفة، لكن الموسيقى العالمية، التي تتمتع بها القصر والمدينة هي الموسيقى الأندلسية. ولسماع الموسيقى الأندلسية، على المرء أن يقصد مدينة فاس. هنا، ثلاثة أو أربع فرق موسيقية جيدة فقط تعرف عزفها وإنشادها تبعاً للتقاليد.

كان من يتحدث في مواضيع الفن والتاريخ هذه هو سيدي عبد الرحمن بنسليمان، وهو الأصغر من بين الوزيرين، والذي كانت نظراته الحارقة والمغتاطيسية، والحركة الإيقاعية، والطابع الارستقراطي يفصحان عن حساسيته تجاه الجمال. وهو قد زار إسبانيا، وها هو قد انطلق في وصف أحد قصور مدريد (هل هو الإسكوريال؟)، بشكل حماسي ومن خلال فورة الذكريات بحيث نسي وجود الغريب ليتوجه بالحديث إلى محمد الجباص الذي ييدي عن دهشته وإعجابه. كان الأمرُ يتعلَّق بالقبب والسقوف التي يقارنها بأروع خيام السلطان، قاصداً أن يفهم كلامه. وبما أني لا أملك مخاً عربياً، فإن تلك المقارنة لم تُثر دهشتي.

وبعد أن هدأت حماسه، أضاف بنبرة الفيلسوف المتبصّر أن ما يستحق الملاحظة في أوروبا ليس هذا الشيء أو ذاك، وإنما كل شيء، فالشيء يقود إلى الكل. «وهكذا، ففي بستان في فصل الربيع، لا يمكن أن تفصل بين شجرة وأخرى مزهرة لتأملها، فالروعة التي تتأملها وأنت

نحمد الله هو عملية الإزهار بكاملها». بادرته بالسؤال: «لكن باريس؟» (فنحن نعرف أن بنسليمان قد كان فيها من بضع سنوات في زيارة دبلوماسية، وأن أحد مرافقيه قد قُفِّد عقله عند زيارة مدهشة لقصر الإليزيه». فأجاب: «آه، باريس. إنها جنة الأحياء. وكل طيبات الحياة توجد بها واجتمعت فيها بمعجزة. تريد أن تغير المكان وها أنت عمول. الأمر مثل ما يحدث في الخرافات حيث الجن يهرعون لخدمة الإنس». وبينما كان السي قدور يقوم بالترجمة، كان السي عبد الرحمن بأسياً يغلفنا بنظراته البراقة ويتابع في عيوننا تأثير مديحه.

رددنا تلك المدائح بتواضع. هل يعرفون ضجيج باريس ونشاطها وأن كل الناس يحملون فيها بسكينة الشرق؟ إنها في نظرنا جنة نرغب في الخروج منها كما يشهد على ذلك وجودنا في مدينة مولاي إدريس. وكان الوزير ذو اللحية البيضاء مهتماً لسامع هذه الكلمات. وافق عليها ثم حكى لنا خرافة حكيمية: «كان فيما مرَّ من الأزمان في بلاد الرافدين مدينة لم يكن لها من مثيل. كان فيها كل ما يرغب فيه الناس ويشتهون، قصورٌ من المرمر، ومياهٌ جارية، وحدائق معلقة، وكل الزهور والفواكه والعطور. وإذن من سيصدق ذلك؟ أصاب الملل الناس من ذلك. وفي أحد الأيام، رحلوا كلهم وظلت المدينة خالية. وقد حكى مسافرون أنهم صادفوا أطلالها...».

وبما أن مضيفيَّ امتدحا باريس، فمن اللياقة أن أتابع مديح فاس. «إنها مدينة الحكماء. والحياة فيها بسيطة ودينية. ولا تغيير يعيق سكينتها (وهو ما يعرفانه جيداً، وبحركة من الرأس يؤكدان لي أنني على حق). وكم تحوي من الجمال، بصوامعها ذات الزليج الأزرق، والأطلال في بساتين الزيتون، والحدائق المزهرة، والأودية الزَّلَّالة (وهما ظلا يؤكدان كلامي بالخرافات نفسها). وكل هذا الكمال يعرفه أهل فاس، ويعرفون كيف يتذوّقونه تذوّق العارف (نعم، نعم، الأمر كذلك). وقد رأيتهم في المساء يسعون إلى أجل الأماكن للعبادة (أنت ملاحظ مُبْصِر). أصبحت عينا المعجوز أمامي ذوات حياة وبريق، مفصّحتين عن النشوة والدّهشة والرّضى. وفي النهاية قاطعني وصرح أن الحياة في البلدان الإسلامية أطول لأنها أقل قلقاً. نعم إنه يعرف تعب الذهن الذي يشتغل. وهو قد تعرّف على كُتّاب غربيّين، وكانت عيونهم لا تتنم عن الطمأنينة كما عيون الناس الآخرين. وبادرتُ بالسؤال: «هل هناك كُتّاب بفاس؟» فأجابني: «طبعاً، كما في كل مكان. فهم يكتبون هنا في الفقه والقرآن. ألم ترَ زاوية من سوق

العطارين تباع فيها الكتب المسفرة بشكل رفيع؟».

دخل خدم وبأيديهم أواني المائدة. كان الساموفار يصفر على المائدة. وبحركة أميرية قدم لنا السي عبد الرحمن بنسليمان حلويات بالأنيسون. وجميعاً بدأنا نرشف المشروب الذي كان ذا نكهة الليمونة. كانت الشفاه ترشف فيها كانت العيون من فوق الأفداح تبسم بعرج وبفصاحة مشقة. وهذه اللحظة من الصمت مكنت أذهاننا من الاستراحة والتوجه نحو موضوعات جديدة للتفكير.

وحين رُفعت الأواني، طلبت الإذن من أناس الفكر هؤلاء أن أطرح عليهم سؤالاً ذا طابع جغرافي (أي فكرة لهم عن العالم المرئي؟ وعن علاقتهم بذلك العالم؟ الأمر يتعلق بالنظرة الجوهرية لكل حضارة). جاءتني ابتسامة وحركة منها لتشجعتني على ذلك. «أولاً ما رأيهم في شكل الأرض؟ ما الذي يقوله الناس القوقرون والذين يتناقشون في أمور الفقه في ذلك؟ هل يعتقدون أنها كروية الشكل؟» «كروية»، ثم تبادلنا النظرات فيما بينهما لتتابع أحدهما: «صحيح أن هذا الرأي لا يتجاهله علماءنا. والكتب القديمة تؤكد ذلك، غير أن الأمر أصبح اليوم محط نقاش. والأساتذة لا يقولون بكروية الأرض، ذلك أن الأرض إذا كانت كروية فإنها ستكون كذلك لكي تدور. والحال، هل هي تدور؟ ما الذي يقوله في هذا الأمر الدارسون في أوروبا؟»

وهنا نحن أصبحنا في قلب علم الفلك، وفي قلب السماء المليئة بالنجوم. وقد فرحنا لكوننا كنا متفقين على طبيعة الأفلاك. إنها عوالم ونيران متعددة يكون مرآها مصدراً للأفكار التدرجية، عوالم مثل عالمنا تفصلها عنا فضاءات مختلفة. لكن، وليس السمان لآلفسها بالتفكير، إذا كانت الكواكب هي التي تدور في السماء وليس الأرض، وإذا كانت مسافاتها ليست متطابقة، فكيف ننصور أنها في كل ليلة تأتي لتشكّل في السماء الأشكال نفسها التي لا تتبدّل؟ ليس من السهل تفسير مفهوم السرعة الزاوية، لكن السي محمد الجباص، الرجل العسكري «والعالم»، سوف لن يلبث أن يدرك ذلك. إنها رعدة الاستارة المفاجئة للذهن بحيث إن حقيقة جديدة تستولي على جوارحه ويرغب في أن يلفها لنا. وكان بين الوزيرين حديثاً ساخناً، فصارا يتأملاني ويعودان للنقاش. وأخيراً انقشعت الظلمة، وطلع نور كوبرنيكي وذلك بفضل

مقارنة ذكية جاء بها الجياص. فقد افترض دوائر موحدة المركز تدور كلها حول ذلك المركز. والواضح أن ثوراتها لا يمكن أن تنتهي في الوقت نفسه. وفكرة الدوائر المتداخلة هذه نشي بعلم الفلك. إننا نعر فيها على النظرية القديمة للكواكب المتوالية. لكن تباً. على الأقل فهذه الغيمة لن تبسط علينا ظلمتها، وليس لنا الوقت للتوقف عندها. وبما أن الثقة سرت بيننا وثار فضولنا للمعرفة، فإن عشرات الأسئلة صارت تلح علينا. وسأل وزير الحرب: «الشمس، هذا الكوكب العظيم، هل يرى الأوروبيون أنه أعظم من القمر؟»، وأضاف: «وهذا يقودنا إلى اختلاف زوايا النظر إلى الكواكب، ومن ذلك إلى المدفعية، فبأي طريقة يعرف من يرمي بكرة المدفع بعيداً المسافة التي تفصله عن الهدف؟». وها نحن نعود مرة أخرى لعلم الفلك العجيب. وسأل التي عبد الرحمن: «كم من الفراخ تفصل بين الأرض والشمس، والأرض والقمر؟ وعلماء القمر يقولون بأن لا شيء»، وأن حلية الليل هذه أكثر لعة من الصحراء، لأن الإنسان لن يجد فيه لا ماء يرتوي به ولا نسمة هواء. وكثر وراءه الجياص بتؤدة وببرة الإنسان الذي يدفعه ذلك الكلام إلى الإغراق في التفكير: «لا ماء ولا هواء». وجاء دوري للاستخبار: «وما رأي الفقهاء في ذلك بمدينة مولاي إدريس؟ هل يعتقدون أن الله قد أعر الكواكب والنجوم بالمخلوقات؟». فأجاب أحدهم: «إنها مسألة لم يتطرق لها علماء فاس».

ولم يكن من الممكن تقديم جواب أقل لأدريّة ويتسم بهذه التواضع الحكيم.

مرّت ساعة ونحن نتناقش في هذه الموضوعات العلمية التي يجتذها الناس النبهاء، لكن المتعبة أيضاً. وقفنا للانصراف معتذرين عن الأخذ من وقت وزراء يتظرهم بأمور الاهتمام بأمور الدولة. وشكرتها على تفضّلها بالإجابة على الأسئلة التزقة لغريب عن البلد. غير أنها هما اللذان شكراني: «لقد تعلمنا درساً، فنحن لم نكن نعتقد أن ثمة فقهاء كبار لدى الزوميين، ولم نكن نتوقع عمقاً كبيراً في النقاش». وحتى أضيافهم في لياقتهم وأدبهم ذكرتهم بأن أولويات علّومنا قد تعلّمتها من أجدادهم. فقال السي عبد الرحمن بنسليمان: «وللاسف أننا لم نعد نملك تلك العلوم...».

ثم عادا إلى طبعهما الرسمي. نزلا معنا درجات السلم بخطوات واثقة تجعلها عباءتهما أكثر ثقلاً، ولم يتوقفا إلا عند قوس البهو. ثم من جديد التحيات العربية والسلام الأوروبي

والرغبةُ في اللقاء من جديد.

وفي الرواق المظلم قام الكاتب الصامت والباسم دوما بمرافقتنا حتى الزُقاق حيث كانت
بغالنا في انتظارنا مربوطةً في حلقاتِ الحائطِ القديمة.

فاتح مايو/ أيار. هنا، كما في سوريا يكون الانتقال من فصل الشتاء إلى فصل الصيف قصيرا. ومن يوم لآخر، نحسُّ بالدَّقِّ المتصاعد للحرارة، فتكون نهاية الربيع المفاجئ والإلهي، والضبَابُ المخضَّرُ المترجِّجُ لأشجار السحر والصَّفاف. ولم يعد ثمة ولا تويجة وردية واحدة لشجر اللُّوز في الوضاحة الناصعة للسماء. ومن مُسَلِّسِ إزهار الأشجار لم يعد ثمة غير زهر البرتقال ورائحتها التي تعبُّ في الهواء المعبرُ الثقيل. بيد أن تغير العالم هذا من حولنا ليس متحدداً كلية. فمن السماء والأرض تنبعث تأثيراتٌ غير مرئية. لقد هجرتها روحها الفتية؛ وفي هذا النور الأكثر لمعانا واستقرارا، تبدو الجدران المتآكلة التي تحتزن الحرارة أكثر شيخوخةً وأكثر تفككا وأقرب إلى التفتت. تنبعث منها حرارة حارقة منذ التاسعة صباحاً، والحجر الأصفر يلتهب ويمرح النظر في الأراضي الحالية البئسة، التي تناثر فيها القبور والقبُ وركامُ الأتربة...

وحولنا، في الأزقة الوضيئة في حِثنا، أصبح الفراغ يعمُّ كلَّ شيء. وجيراننا الفاسيون لم يعودوا يجلسون هناك. لقد بدأ الفصل الذي يعلوهم فيه الظلُّ الأبيض الوثير لغرفهم المزوَّقة بالمرمرِ والجصّ. وهم لمدة ستة أشهر لن يقوموا سوى بممارسة القيلولة والجنس تحت الأقواس وموسيقى العود ونفور الماء في الحفّيات.

أما نحن، فإننا نهرب من هذه الأسواق في الظُّلّمة الغامقة للأزقة القديمة. ونحن نقضي فيها سحابة يومنا. والرطوبة التي تعمُّ هذه الأمكنة هي نفسها لا تتغيّر. ولا شيء يصلُّها من الصيف حتى في عزِّ الحرِّ حين يحرق ببادر السهل، ويطلق لهيبه على المدينة الكامدة. إنها رطوبة مزدوجة: رطوبة الأعماق حيث تنساب الأودية تحت الأرض في قعر الحافة التي تحتضن مدينة فاس، ورطوبة الظلِّ والأروقة المختنفة والعميقة التي لا يبلغها أبداً شعاعُ الشمس والتي تغلق في الغالب من فوق.

استدار السائس نحوي وناداني بنظرة من عينيه. بيد أفي كنت أعرف، ولم أكن بحاجة لأن أقرأ على شفّته الحروف التي حرص على ألا ينطق بها بصوت عال: «مولاي إدريس». ها

نحن إذن في المركز الغامض والمقدس للمتعة. وفي اليسار، حيث أشار لي أن أوجه نظري، ثمة عارضة تحبس المرور إلى هذا الزقاق «الحرم»، الذي هو عبارة عن سوق مزدحم مثله مثل الأسواق الأخرى، وحيث لن ندخل إلا مغاطرة بحياتنا. وفي الطرف الآخر، في قلب العتمة، تنبثق وضاحة النهار. وها هو موطن الأسرار. ومن غير أن أتوقف أو أدير الرأس، أبصرت به وتعرفت عليه بين دفتي بابه البرونزي الهائل، بباحاته الداخلية، وأجنحته ذات المائة عماد، والأقواس الثقلية. إنه معمارٌ شبيه بمعمار ساحة الأسود بجامع قرطبة يحيط بحنفية وضريح أخضر. ثم فجأة، ومن الزقاق الظليل، والعمق المحبوس حيث تضج حياة صاخبة، أبصرت بتلك النصاعة العظيمة الحرة البيضاء، والزروعة الصوفية التي ترفرف هناك. إنه تجلي سكية عذنية.. مررنا بسرعة، فقد كان ثمة عيون رقية، محملة بالحدق المحلي، تطرد كل مسيحي يقترب من هناك ليرى أكثر مما يجب أن يراه.

لكن، على بُعد خطواتٍ من هناك، توجد الحيطان العتمة للقرويين، الجامع المقدس الآخر للمدينة، مغمورا بنور النهار الأزرق، هو أيضاً مثل عنكبوت في وسط شبكته، محبوساً في شرفة الأسواق العتيقة. والقياسية⁽¹⁾ كلها تتعلق به وتحجبه، بحيث لكي يكتشف المرء الجامع العظيم، عليه أن يصل إلى الزقاق، الواسع شيئاً ما الذي تلتصق به حوائته، أو على العكس من ذلك، أن يخرج كليةً من فاس، ويعتلي تلةً ليبحث في المدى الرمادي عن مستطيل الجامع الشاسع.

هنا كما في مولاي إدريس لا يستطيع الواحد منا أن يرى شيئاً إلا جلسة. لكن ليس هنا من زقاق محرم يفصلنا عن الجامع. كنا نلامس حيطانه، ومن زقاق لآخر نتركه كي نلاقه أبعد من ذلك، بحيث يمكننا أن ندور به تقريباً. إنه يشبه الجامع الذي لا يزال قائماً بقرطبة، والتي عمت المسيحية منه كل الحوائت التي كانت ملتصقة به كما هنا.

واليوم فإن جامع القرويين هذا، الذي كان فيا قبل شقيق جامع قرطبة، يظل هو ثالث مسجد في العالم الإسلامي بعد مسجد مكة ومسجد عمر الرابع بالقدس. والعديد من الطلبة والعلماء يملؤون مدارسه، أولئك الذين يسرون جماعات في الأصيل ليقروا السور الخالدة في المقابر. إنها جامعة وريثة للجامعات الكبرى العربية في العصور الوسطى، والقلب النابض (1) هي سرق الاثواب.

لأفريقية القديمة، حيث الحماسة الإسلامية لا تزال حية، لتشعّ بواسطة الطلبة الرّحل حتى مصر، وعبر الصحراء حتى السودان.

والصلاة في القرويين دائماً مستمرة. وحين تكون كل المساجد نائمة، تظل القرويين سهرانة حتى يظل اسم الله يذكر فيها بكراً وأصيلاً. وفي كل وقت ينهض مؤذنها ليكبّروا الله في صومعتها. وقبل الفجر يأتيني صوت الثّهاليل البعيدة مؤثرة التي تشكل الإيقاع المرفرف على شعب بكامل بحيث يصنع حياته من قرن لآخر...



وخلف القرويين، خرجنا للأسواق عبر الأزقة المزدهمة المليئة بالخوانيت، لكن التي لا تشبه القيسارية بأجوانها الخائقة وسقفها وتجارها الصّارمين، المتظمين صفّاً في دواليهم، حافني الأقدام، يبشّتهم البيضاء التي تشبه الأتواب الموصلية التي يرتدونها. وبعد الخوانيت الصامتة هؤلاء البورجوازيين التجار، ها هي حوانيت العامة المليئة باللغظ والألوان والنفايات... إنه الحمي القدر والمزدهم حيث تتوارد حشود بدويّة لا تزال وفية لأسانها وملابسها القبلية، والتي لم يمضها بعد تأثير فاس وإكراهات الحضارة الأندلسيّة، ولا تزال من ثم تحتفظ ببعض الدّم القطّ الأحمر البدائي في عروقها.

سرنا تحت تلك الأفاريز المتهالكة، في الرّحمة العربية، عبر الحمامات الشمسية المتناوبة التي تطل علينا من تشابك أغصان الكروم. وأحياناً في عمّر ظليل، حين يغطي أسفل بيت ما عالية الزقاق ليوقف زحف السوق، تنزل غمغمّة من الأعمدة القديمة، أشبه بزقزقة الطيور الغامضة. إنه كتاب قرآني معلّق كما حظيرة طيور فوق الناس وروائح السوق. وما أن تجاوزنا الممرّ، حتى رفعنا رأسنا فأبصرنا من فتحة نافذة جمهرة من الصّبيان تعوم في عتمة ساخنة، جالسين كلهم أرضاً يتهايلون في حركة جماعية غريبة مستمرة (تشبه الرقصة المدوخة التي كان يقوم بها الشيوخ اليهود في معبد الملاح). كانت التلاوة والترديد بإيقاعهما السريع الحاد يخرجان من عشرات الأفواه التي ترتّل جمعا في ذلك الصباح الآيات القرآنية نفسها. هكذا منذ الأزمنة القديمة يتمّ تكوين أجيال المسلمين.

وبعض الأحيان نرى الفقيه المعلم، وهو عجوزٌ بنظاراتٍ ضخمةٍ وبعبّ مُطْبِئٍ على رأسه،

جالساً على مصطبة أمام الصبيان، ويده عصا طويلة كما عصا مدير الجوقة، غير أنه يستعملها كسوط يخطب بها الرؤوس يميناً وشمالاً، طابعاً مدى الحياة على الرؤوس الحليقة للصبيان الكلمات التي هي كلمات الدين.



وفي مكان آخر من ذلك الحى البئيس الصاخب، وفي ساحة تُرَبط فيها البغال، توجد سقاية قديمة رائحة يبدو أنها معاصرة لجوامع فاس الجديد. ويغلفها ما يشبه معطف مدفأة تحت سقف مُنحني من القرميد. وفي القعر على الحائط، في إطار قوس صغير أندلسي، يلعب الرّليج بزخارفه ذات الطابع المريني. وهي عبارة عن عيون ذات زرق فاقعة وزرقة فيروزية (وهي ألوان جاذبة)، وشموس مشعة تدور الواحدة منها حول الأخرى، مشابهة بين هالاتها وأهدابها، على خلفية صوفية من التّجبيّات.

وقرب إحدى هذه السقايات، وفي المكان نفسه الذي يشغله السوق، يفتح فندق عتيق يمكن اعتبار بابه من تحف الفن الإسلامي. وإذا كانت المآثر في طليطلة أو غرناطة مخصصة لزيارة أولئك الآتين من بعيد، فإن هذه الأطلال الجميلة هنا ليست جامدة. إنها ترتبط بالحياة المحيطة بها وتتناسق معها، تلك الحياة التي ما تزال أنماطها هي نفسها أنماط اليوم. فهذا الباب الذي لا يقدر بضمن في فندق التجارين لا يزال مأهولاً بالتجارين. وهم يضعون عليه ألواحهم الخشبية. ويبدو أن تلك عاداتهم منذ زمن لأن برنقه قد زال بالضبط في مستوى تلك الألواح المتكئة عليه. ويمر تحت الباب، ذي الزخارف المغربية الأندلسية، العديد من الناس ذوي البرانس المرقعة بألف رقعة. وحوله الأحجار العتيقة للحيطان، التي فقدت غلافها، والساق المحدودب لتينة برية خضراء، وجحوش تغفو، والمدخل المعتم والبئيس لزقاق مقوّس...

دُعينا لعشاء وداع لدى أحد أصدقائنا المسلمين في حيّ الأندلس. وكان من الصعب علينا التعرف على طريقنا إلى داره في الليل، عبر شبكة الأزقة التي تكاد تكون محفورة في الأرض، والتي يته فيها ساستنا في وَضَح النهار. كنا نسير على ضوء الفوانيس التي يحملها رجالنا في هذه المنعرجات من الأقبية التي تغدو مدهشة أكثر في هذا الوقت. ظلوا يسرون بانحناء كي ينبروا أفضل أمام أقدام الخيول الأرضية الخشنة التي ظهرت في الدائرة الثورية الصفراء المتحركة. وكان علينا أن نرمي بأجسامنا إلى الوراء نحو مؤخرة الحصان اتقاءً للمنحدرات الوعرة التي بدأت فجأة والتي لا تتصوّر متهاها. كنا نتحدر فيها بانزلاقاتٍ مدوّية. ومن لحظة لأخرى كان الحارس الذي يسير أمامنا يطلق صرخةً، فعلم معنا أن علينا الانحناء حتى لا تصطدم رؤوسنا بعواميد أفقية. وظللنا نفوس أكثر فأكثر في السر المزودج لليل والمدينة، تارة في الغسق البهيم لفتق، وتارة في عمق أخذود تحت منعرجات ضيقة ومشقة للسماء الليلية. وسرنا طويلاً في تلك المنعرجات بحيث فقدنا كل فكرة عن الشمال والجنوب ولم نعد نعرف في أي جهة من فاس كنا نوجد. وهكذا حضرني ذكرى ساذجة مما درسناه في المرحلة الثانوية. ففي القرن الخامس عشر، كان دوق أورليانز Orléans يسير على صهوة جواده في باريس ليلاً، محاطاً بحرسه وبحاملي الفوانيس. لكن، في الليل الذي تكثر فيه الكمائن، لم تكن أزقة باريس مبيّنة. كانت بعض النوافذ تفتح وعبودٌ فضولية تراقبه وهو يمرّ...

عبرنا العديد من أبواب الأحياء، التي ستظل مفتوحة لنا بأمر خاص، حتى عودتنا في العاشرة والنصف ليلاً. صادفنا أحياناً شعباً إنسانياً متكئاً على حائط، يستنبر بضوء باهت عند القدمين. وأحياناً دائرة واسعة من الضوء تنبعث من باب مسجد، وأشكالاً إنسانية في وضعية الصلاة راکعة أو ساجدة تحت المصابيح والأقواس. وفجأة، وبعد أكثر من نصف ساعة من المسير، يقطع الوحدة انبثاقٌ سوقي غريب لا يزال الناس يتحركون فيه، في مخرج هذه الأزقة التي تشبه القبور. ولم أكن أتصوّر في هذا الليل الساخن الحركة المتأخرة بين أنوار الحوانيت لهذه العبادات الباهتة.

وفي الوقت نفسه، سمعنا انهار مياه قوية علمنا معها أننا في التسوق المحاذي للجامع الأندلس، غير بعيدين عن وادي فاس، الذي يجري عارياً هناك بين الأسوار لينغمس صاحبا تحت إحدى المطاحن. كنا قرييين جداً من وجهتنا. غطنا من جديد في الظلام والكون، حتى ظهر لنا النور تحت سقيفة. وحرلها كان الجنود والخدم يحملون الفوانيس الضخمة. حينها جاءني صوت مضيفنا مرحباً: «السلام عليكم، أهلاً ومرحباً بكم...».

ومع أني كنت متعوداً على الانتقال السريع من زقاق يبدو أهلاً فقط بالفئران إلى الروائع الخفية لباحة مغربية، فإني أحسست هذه المرة أن التباين أكبر من أن يُتصوّر. الزقاق الضيق الشيس في ظلام الليل، ثم هاهي تظهر أمامنا فرشة منيرة من الرخام بين جدران مغطاة بالزليج. وعلى البلاطات شموع طويلة تحترق وشمعدانات متوازية. وهناك في الأعلى شمعدانات أخرى تزين الأقواس الصغيرة البيزنطية التي تحيط بالطابق العلوي وكل هذا اللعب المتراقص، تحت مربع الفناء حيث تظهر السماء السوداء، يدخل البهجة بروعة لا تضاهيها سمفونية الكتابات العربية والتنجيات المزخرفة والتأريخ المشقة.

وقبالة المدخل، في وسط الزقاق، سقيفة يتدلى منها ستار من الدنتيلا البيضاء. وما أن رفعنا الستارة حتى وجدنا أنفسنا في قاعة الأكل. إنها قاعة ضيقة، كل شيء فيها أبيض مع صف من الشمعدانات على البساط أمام الأرائك الواطئة الطويلة. وفيها كما في البهو رائحة البخور تبعث من المبخرات. في هذا المكان لا يمكن للمرء إلا أن يخفض الصوت. وفي طرفي القاعة على الأرض كان ثمة صينية نحاسية كبيرة مهيأة للضيوف الذين سيمشون في مجموعتين مختلفتين.

كان العديد منهم قد وصلوا، رجال كبار السن وذوو رفعة ومقام، جالسين على الأرائك ثابنين أرجلهم. رجال مرتدون الحايك، أكثر الملابس المغربية كبراً، ذلك الذي يُثنى ويُرمى على الكتف في شكل عباءة رومانية؛ فيما كان آخرون لا يزالون يتوافدون في صف صامت، غربيين في لباسهم المتشابه، أيديهم على القلب ومنحنون للمرور من عتبة هذا المكان الأبيض المنير. تركوا أحذيتهم في الباب، وتقدموا بنودة ليحيوا المضيف وهم يقبلون باسمين أطراف

أصابهم. نكاد لا نسمع سلامهم المغمم بصوت خفيض. ثم سار كل واحد منهم ليغمر يديه ووجهه البخار المتصاعد للبان، بل ليتشبع به تماماً بحيث يفرد رجله حول المجرم ويغفيه بأثوابه ويقوم بحركات تعبر عن الرضى.

ثم دخل الخدم حاملين الأباريق والصينيات النحاسية اللامعة. إنها الإشارة إلى من سيتعشون في الطرف الآخر من الغرفة، والذين سوف يقودهم صاحب الدار ليجلسوا حول الصينيات اللامعة فوق الزربية. ثم قام أحد الخدم، ذو الزي المتراخي والرجلين العاريتين، بالإطلال علينا من فوق كي يقدم لنا الإبريق. والواحد بعد الآخر مددنا راحتنا فوق الحوض وغسلنا أيدينا في الماء البارد.

حينها بدأ تتابع الأطباق المتعددة والشهية التي تشكل مفعرة صاحب الدار. وكل واحد يرفع وكان لم تمسسه يد. ومع ذلك فإن السهرة لم تكن ناجحة تماماً. فقد دعا مُضيفنا شيخاً^(١)، من أشهر المغنيات في فاس لنستمع بغنائها بعد العشاء. ورفعت الشفرة وجلس الناس على الأرائك في انتظار المغنية. ولما تأخرت أرسل للسؤال عنها فعلمنا أنها أودعت السجن منذ الصباح، وهو أمر يحدث عادة، فهي تكسب الكثير من المال والسلطات التي تعوزها الموارد لا تتورع عن ابتزازها. وما أن تفرغ كيس نقودها لدى المحتسب حتى يُطلق سراحها في انتظار اعتقالها من جديد حين تفتني مرة أخرى.

هذه الأمور حكاها لي (دائماً بصوت خفيض) جاري الجالس جانبي، وهو جزائري بسمت أكثر رقة وحبوية من هؤلاء المغاربة، بلحية كثة معقدة تبدو طويلة وأشورية الشكل كما يبدو في عباؤه الرفيعة. كان يتحدث بسخرية في النبرة عن المخزن وأهل فاس والخمول الفاسي، مردداً على مسامعي الآية القرآنية التي تحت على العمل. وظل يهمس لي ببعض التفاصيل التي لن أتمجراً على ذكرها. وحسبه، فإن تلك «الشيخة» شهيرة شهرة كبرى. وهي بصحبة أخيها وصديق أخيها تقدم فرجات ليست دائماً ذات طابع فني (دائماً على نور الشموع، في أمكنة يغلبها بخور اللبان الذي يذكر بأجواء الخشوع)...

(١) ما يقابل العاملة لدى المصريين.

2 مايو/ أيار. وسهرة أخرى لدى السي عبد الرحمن بن سليمان. وبما أن البعثة الفرنسية كانت مدعوة فإننا جلسنا هذه المرة على كراسي، وأكلنا بالملاعق والشوكات التي استعارها صاحب الدار من المفوضية الفرنسية. كان كل أوروبي يجلس بين شخصيتين متلفعتين بالاثواب الموصلة الطويلة، وعلنا نفننا حينها أننا في حفل عشاء أوروبي فاخر. فثمة تناوب بين الثياب السوداء والثلجية والضبابية وحلية النساء الرائعة.

كانت القاعة المخصصة للاستقبالات فسيحة، وهي التي تسمى في دمشق «السلامك» وتحتل جانبا كاملا من مربع فناء الدار. كانت دقنا الباب مفتوحتين على مصراعيها خلف الأقواس التي تزين الباحة المعمّدة، بحيث نرى الفناء الرائع الأبيض تماماً تتوسطه حنفية تطلق زخات الماء. لا وجود للزليج على الحيطان، ثمة فقط لون البياض المرمرى.

كان بعض الضيوف يتجولون في هذا الفضاء الليلي الجميل. هنالك توافق رائع بين الشخصيات الإنسانية ذات العباءات والأعمدة الخالصة، والأروقة الفسيحة وتوازي الأدرج. إنها تبدو صغيرة في هذا المعمار، لكن ليس بشكل مبالغ فيه بحيث تظل محافظة فيه على كرامتها ونخوتها. وحولهم يعم السكون المتناغم والتجريدي، الذي نظمته الإرادة الإنسانية بجلال.

كانت الأطباق التي يحملها الخدم ملء أذرعهم حول المائدة، من قطع اللحم المثيلة والخرفان المشوية الموضوعة كاملة في صحون من النحاس. كان مدى المأدبة يليق بشخصية مغربية مرموقة. وهو كان ببساطته وبياضه الزنبرقي وقمه الدقيق وحركاته النادرة المحسوبة يُداعبنا كل واحد بدوره بنظرته المغناطيسية من غير أن يدبر الرأس، وحدقاته تدوران في عينيه الخلاصيتين.

كف الضيوف كلهم عن الأكل، ومع ذلك ظلت الأطباق تتوالى. وكنا نستمع لموسيقى أندلسية طويلة ورتيبة وفاتنة. إنها الموسيقى الوطنية للمغاربة، تلك التي حملوها معهم من ممالك اشبيلية وقرطبة وغرناطة، والتي حافظ على تقاليدھا الأصلية في فاس موسيقو

البلاط. كانوا تسعة موسيقيين جالسين القرفصاء أمام باب كبير مفتوح على جانب صحن الدار واللبل، الليل الذي كان يبدو فيه انبثاق الماء في النافورة مبهما، وحيث يتعكس شبح شجرة برتقال غريبة بين الأنوار على الرخام والنجوم الحية في مرتع الساء.

ظلوا يعزفون منذ انطلاق الحفل، بحيث فعلت الموسيقى الآن فيهم فعلها. كنا نحسهم منهمكين مأخوذين وثملين بحيث صاروا كيانا جماعيا واحداً تخترقهم روح واحدة تحرك فيهم السواعد والأيدي والأصابع على الدفوف والكمانات وآلات العود. كانوا يعزفون ويغنون ووجوههم مشبعة بالموسيقى، وينهايلون كما في الحلم، والأصوات كلها مهتاجة، والعيون تنغلق كلها في حالة من الوجد.

كانوا يغنون أناشيدهم الأندلسية وموشحاتهم التي تتحدث عن المياه والحدائق الفناء وهموم الحزن وسعادة العاشقين. إنه غناء جماعي ترك تولد الجمل فيه وتنازع ثم تنفصل وتخبو كما الذبذبات التي تموت.

كان الجالس جنبي على اليسار رجلاً تونسياً قصير القامة، ذا مظهر حذر وناعس وملامح منهالكة وعينين نصف مغمضتين. كان متشبهاً بالموسيقى بحيث إن وجهه الكئيب ما لبث أن استنار بالقبطة. وبالكاد استطعت، في بداية الحفل، أن أنتزع منه بعض الكلمات. أما الآن فإنه أحس أنني مثله منغمس في جذوة الموسيقى، فشرح لي صدره بحماس وبصوت خافت مليء بالوجد: إنها أجمل موسيقى سمعتها أذناي، بحيث لا يمكن معها أن يحتاج الإنسان لموسيقى أخرى... لا أظن أن هناك موسيقى أجود... والكلمات والمجازات، هنا يكمن الجمال الأسمر. يا لهم من فطاحل هؤلاء الشعراء الأندلسيون، إذ على المرء أن يكون قد قضى سنوات طوال في الدراسة ليتمكن من إدراك جميع المعاني، ويستكنه المعنى الباطن لأبياتهم. اسمع، إنهم يغنون الآن عن الغلام باعتباره المحبوب (وذلك بصيغة الذكر لأن ذلك أجمل). ففي السهرة في بلاط الأمير، يقدم الغلام قدح خمر. وتمنحنا القصيدة اسم هذا الخمر. والعارف يعلم أن اسم هذا الخمر يعني أيضاً ريق المحبوبة. يا له من عمق. وهاك اسماً آخر يعني في الآن نفسه النبيذ الأحمر، وشفة المحبوبة ووجتها الحمراء...».

ثم صممت بحركة العاجز عن التعبير عما يحته، لكن عينيه الخائبتين من لحظة صارتا

متقدتين وتحدثان إلي أكثر فأكثر. احتدت الموسيقى أيضاً تتخللها وقفات مؤثرة مُفاجئة. وتعالّت بغتة جملة يغنيها صوتٌ انفصل عن الأصوات الأخرى، بصيغةٍ شجيّةٍ مترججةٍ ممتدّة تشعّبت لها حركات وجهه.

في تلك اللحظة، مال نحوي التونسي القصير، وعيناه على المغني، وهمس لي في الأذن: «لقد التقى العاشق بمحبوبته في بستان، والموسيقى تقول: يا قلب، يا قلب غمّمت بالوصال».

استمرت الموسيقى الأندلسية حتى بعد انتهاء الحفل. وتفرّق الضيوف في صحن الدّار الرّخامي، شخصيات بيضاء كما ذلك الرخام، متناثرة هنا وهناك في عباءاتها الصوفية، متناظمة مع الأقواس والأعمدة. كان الوزير صاحب الحفل ينتقل من هذا الشخص لذلك، وفورا وبشوشا وبيّناً. وفجأة جاء إلي لتابع مع النقاش الذي بدأناه أياما قبل ذلك عن الأفلاك. ومعارفنا رأسنا إلى النجوم المتقدة في السماء.

وعدانا نحن بياينا السوداء، كان الباقي أشبه بمنظر من إسبانيا العربية القديمة، في أحد بلاطات أمراء الأندلس حيث نُظمت تلك الموسيقى الأندلسية، وتلك الترانيل العاشقة التي لا تنتهي إلا لكي تعادود إنشادها. وبين أغنية وأخرى لم يكن الفاصل سكونا. كان صوت الماء في النافورة يصدر شهقاته في الليل الدافئ.

7 مايو/ أيار. سنشدُّ الرُّحال غدا، وقد بدأنا الاستعداد لذلك. واليوم نستطيع بالكاد التسلُّل في «زقاق الفران» الذي امتلأ بالحقائب والقَفَفَ والخيام الملفوفة، والبغال وسانسيهم الذين جاؤوا لحملها، ومعهم عسكر المخزن هؤلاء. كان التَّباين واضحاً مع الدواب والناس الذين استأجروناهم في طنجة.

نعم، غدا صباحاً سوف نمتطي جياندا ونسير خلف الفرسان، وسنعبُر الممرَّات الطينية الباهتة بين البساتين لنصل سوق السَّراجين والحَدَّادين الظليل المزدحم، بين فاس الجديد وفاس البالي. وسنخرج من باب المحروق، لتتبع دربا أعرفه جيداً ونصعد بين الأطلال والقبور وأشجار الألوة ثم أشجار الزيتون، لنعبر حافة سُدَّير رأسنا عندها وسرى فاس تختفي إلى الأبد من أمام عيوننا، بأسوارها المذهَّبة وامتداد سطورحها، وبصوامعها الزيّنة بالفيسفاء الفيروزي؛ فاس المدينة الدينية الشَّرسة حيث عشنا فيها بعيداً عن زمتنا، والتي ستظل حيةً في عزلتها.

وفي انتظار الرحيل، قمنا بزيارة الوداع لكل الذين استضافونا. بل إننا سرنا أيضاً لتقديم التحيّة للسلطان. إنه هو الذي بعث في طلبنا من غير أن يترك لنا الوقت للاستعداد لوقوع هذه المقابلة. وبالكاد وجد الخير المسلم الذي سرافقنا لدى السلطان الوقت لكي يلبس قفطانا كستانيا وجليابه الرفيع، ويحمل بين يديه بلغةً (حُفًا) باذخاً من القطيفة لانتعاله عند استقبال جلالته لنا، فامتطينا دوابنا وصرنا نحرق النور تحت شمس حارقة. وفي منتصف الطريق من القصر، بين باب الحديد وباب سيدي بونافع، وفي منعرج درب يسير بجوار غدير مرعى، صادفنا عجوزاً قصيراً على بقلته أشار إلينا بالوقوف. كان هو صديقنا السي محمد الجياص وزير الحرية الفائض في عباهته بحيث لم نمتز منه غير لحية الفضية. كان قد انتهى من مقابلة السلطان ليعود إلى داره بهذا الشكل البسيط. وقد أوقفنا ليطرح علينا أسئلة مباشرة عن الموضوع الحارق لهذا اليوم: «السفير الألماني يتأهب لزيارة فاس. فما رأي الفرنسيين في ذلك؟ هل لهم علم بموضوع بعثته؟ كم من وقت سيمكث هنا؟». ولجلهنا بالأمر عمدنا إلى

استعمال الصيغ الدينية والحكم التي يستعملها المغاربة. ففي مجال السياسة كما في الأمور كلها الله أعلم.

سوف يبقى في ذهني من هذه الزيارة للسلطان شيء واحد بالأخص هو شاعة المكان الذي استقبلنا فيه، وصغر ومودة شخصية الحاجب الذي كان ينتظرنا في زاوية من الباحة. قام حاجب السلطان بقيادتنا حتى منعطف السور واختفى. وجدنا السلطان هناك في انتظارنا وعلى محياه ابتسامة تنم عن رعايته الملكية. كان جالساً على الطريقة الأوروبية على كرسي من خشب في عتبة باب صغير قد يكون باب حدائقه السرية، بحيث كان عليه أن يدفع فقط الباب كي يأتي لمقابلتنا في هذه الباحة.

سألني السلطان عن الاختراعات الآلية الكبرى في أوروبا ولا أدري أي كلمة عربية عثر بها عن الكهرباء. فضوله يكشف عن حدته في هدوء الكلام وسكون الحركة. كان بالتأكيد يعرف سر قوة الرومانيين وما يجعلهم منذ قرن خطراً على الإسلام. كان يحس بجاذبية تلك القوة وفي الآن نفسه يعرف أنها العدو لكل ما عليه الدفاع عنه.

وبما أنني كنت في حضرة السلطان فقد أبحث لنفسي النظر إلى هذا الشاب ذي النساء الكثيرات. بدا لي هذا القائد الديني والعسكري محبوساً وراء هذه الأسوار، هو الذي يملك قوى خارقة، وسليل أسرة من الملوك يتجسد فيها مبدأ مجتمع عتيق. بدا لي غريباً، ومثله مثل كل أبناء الحريم ناجماً عن مزيج من الدماء، غير أن العنصر الأسود طاغ فيه. يمكننا تخمين قوامه القوي تحت العباءة ذات العُقب التي تغلفه من الرأس إلى القدمين ولا تُظهر منه إلا الوجه. كانت ملاعقه عريضة وواضحة تنم عن قوة الشباب، وعينه حيوانان وذكيتان ومُداعتان، خاصة حين تشد اهتمامه المحادثة، بحيث ينبع منهما بريق جميل. ومع السواد الدافئ لتلك النظرة يتناغم سواد خصلة شعر تنسدل على وجهه، علامة على النسب الشريف المنحدر من واحات تافيلالت.

إحدى عباراته كانت جميلة وجديرة بقائد يُطلق عليه لقب «أمير المؤمنين»، لكن ربما كانت تلك العبارة في نظر من صدمت اختياراته الصرامة الفاسية مجرد عبارة مسكوكة ومتداولة. وعن سؤاله الأخير: «ما هو الشيء الذي يصدك أكثر الأوروبيين في فاس؟»، أجبت بتحويل

انطباعاتي شيئاً ما: عزّة النفس التي لا تُضاهى لدى السكان، وصرامة الوجوه والنخوة العارمة، وأشار برأسه علامة الموافقة التامة. فترجم لي صاحبي جوابه: «سيدنا قال بأن الأمر كذلك وهو يعرفه؛ والسبب في ذلك أن الدين لا يملك مشاعر الناس في بلاد الإسلام أكثر من مدينة فاس».

في هذا المساء الأخير، كنا عائدتين من هضبة باب الفُتوح حيث رحنا لوداع المقابر القديمة وأطلال القرون الأولى من حياة فاس، وكذا لوداع المسجد الأزرق الصغير ذي الوداعة الدبية في هذا المنظر المحروق بالصخور والمدافن، والذي منه تبدو المدينة عبارة عن مدى عظمي أبيض.

كنت أتبع العسكري العجوز وسط منطقة الغبار المتراكم التي تحاذي، في الخارج، السور المتهالك الذي شيده السلاطين الموحدون بأبراجه المتوالية المخرومة. ثمة صخور قرية وبقايا قبور. وعلى إحدى هذه الصخور وقف راعيان. يبدو أنها يتأملان السور الشائخ الوقور، ومن ورائه الحافة التي تسقط فيها تستناته ليعاود الصعود بانعطاف مفاجئ متابعاً قطعة غير متحددة من المدينة. كانت قطعانها من الماعز تتراحم عند أقدامها.

تمدداً على الصخرة في عبايتها بلون جلد الدواب التي يرتديها كل الرعاة، ولم يقطعا تأملهما ليستديرا نحونا. لكن ما أن تجاوزناهما حتى كسر أحدهما الصمت وبدأ في الغناء، بذلك النبر الحاد الصائت الذي يميز رفعة التريل الشرقي.

توقفتُ للإصغاء إليه. فهذا الارتجال الغنائي لراع متمدد على الصخر، أمام مناظر جميلة وحزينة، كانت في نظري جوهر الفن في تجليته الأسمى، والموسيقى في مصدرها الأولي حين تكون عفوية، وانطلاق النفس الإنسانية في قلب الطبيعة في لحظة أصيل وأمام منظر شجي.

وفكرتُ في نفسي أن في أوروبا، المقتنمة اقتناعاً بثقافتها و«تقدمها»، ربما بفعل تلك الثقافة وذلك التقدم، لم تعد تلك الانبثاقات اليوم تتصل سوى ببعض الكائنات الفريدة. لقد انتهى الأمر، ففلاحنا لم يعد يتعاطى الغناء. إنه الثمن الذي دفعه ليقراً الصحافة. والمساء في بوادينا لم يعد يبعث في القلب ذلك الانفعال المتوالي والبسيط بالأصوات.

غير بعيد من هناك، تأكد لي الدرس نفسه. فقد بلغنا في مسيرنا مجال المياه والبساتين. وتابعنا الوادي الرطيب الذي تظهر أحجار مجراه بكاملها. وحين انعطفتنا على الجسر المغروس

رأينا، وراء حاجزه والمياه المناسبة، الطريق الذي نزلنا منه المنحدر. كان منظرنا مكتملا مليئا بالمعنى بعظمته وبساطة يصعب التعبير عنها، وليس له من مركز وموضوع غير أطلال نكاد لا تظهر في طرف الدرب القديم بين أشجار الزيتون الفضية.

كان يوجد على الجسر ومنحدر القصب ما يقرب من العشرين متنزها جالسين أو متكئين حالمين. لم يكونوا رعاة بدوا وإنما فاسيين أقحاحا بوجوههم البيضاء مثل ملابسهم. كانوا ينظرون ويعلمون لا غير. ولا أحد من بينهم يدخن. لقد جاؤوا إلى هنا، ماسكين بالزهور بين أيديهم، أو بقفص عصفورهم المعرود. وفي نظر الرسام سيكون ذلك هو ما يمكن أن يمنحه تناظرا ودلالة من كل الأشياء التي يحويها المكان.

ذلك هو ما يتبقى لهم وما نغيظهم نحن عليه. لقد راقبتُ ولاحظتُ خلال أسبوعين أهل فاس الغربيين وأصدرتُ عليهم جزافا بعض الأحكام. وقد بدوا لنا نصف أموات، وأكثر تلاشيا من المدينة القديمة ومن الأسوار ومن قضاء المقابر. لكن، في هذه المدينة التي يذكرنا ظاهرها الباهت الصامت وباطنها الأسود المتآكل بالحجر وبياطن القبر، وبجذور الأسوار التي غرتها الأحراش والألوة وأشجار التين والسوسن المبارك، في هذه البادية التي تكون فيها الباقات التي وضعها الربيع هنا وهناك أشبه بزهور موضوعة على قبر شاسع، وفي هذه الأشياء التي يتركها الإنسان لقوى الزمن القاهرة، من غير أن يجهد في تنظيمها أو إصلاحها، في هذا المجال الشاسع للهجران، لم نعثر سوى على الجمال الباهر، ذلك الجمال الذي يسمو على كل ما ابتكرته فنوننا الأكثر اقدا لتزيين مُدُننا الأوروبية. ففي ذلك الجمال لا تغدو الإراة شيئا ذا بال. إن فاس نفسها، وباديتها، وبقايا ماضيها ومآثرها، كلها تنتمي إلى الطبيعة وتحمل سمات قوانينها وإيقاعاتها الطويلة المدى التي تؤثر في الحياة المديدة لمدينة شعب ما.

لقد عيبَ على الإسلام تجاهله لكرامة العمل، وأفراح وواجبات الحياة الشخصية، وبريقها الأصيل وأفعائها، وجدوة إشعاع الروح والعقل. وكان التفكير سائرا إلى المثل الذي حققته بعض النفوس السامية. لكن ما تنويسي هو أن الحقيقة ليست كذلك لدى عامة شعوبنا. فحياتهم لا شيء يثيرها، وعملهم أشبه بعمل الآلات التي يخدمونها، وحياتهم عبارة عن عبودية وتمرد العبيد. كما أننا ننسى ما يعيشه المورسون من سأم وملل، ومن متع صاخبة

وهموم عابرة، والحركات القلقة وتقطيب الوجه. إنهم أشخاص من غير عظمة وكبرياء لأن لا إيمان لهم، ولا فكرة ضرورية وبسيطة، ولا تقاليد سلطوية ولا سلوك منظماً يمنحهم قوة الشكيمة. والحضارة الإسلامية الكثيرة لا تجيب على عتابنا إلا بالصمت، كاشفة لنا عن وجهها المعجوز، ذلك الوجه الذي لا يتغير، ذو الجلالة الرائعة والبسطة التي لا تكف عن إدهاشنا. ثم إن عينيه الخابيتين تغوصان في رؤى لم نعد نعرف كيف نراها...

أفكر أنني بعد ستة أيام سأكون بجبل طارق. إنها مسافة لا تحسب بالفراسخ. فالصخرة الهائلة القائمة، والمدافع التي تنتصب بها، والمدرعات الضخمة، والبواخر المنهكة التي ترسو بها لعدة ساعات، والأنوار الكهربائية، ودخان الآلات وجلجلة الحديد في الترسانة، والعمال الذين اسودت وجوههم من الفحم، والجنود الحمر بكبرياتهم الساطع، وأيضاً المسارح الكبرى، والحانات، والجرائد المليئة ببرقيات أخبار جانبي الكرة الأرضية: يا له من مختصر للإنسانية بكاملها خارج طبيعة أوروبا! ولها من عودة للحلم الشيطاني الذي صنعناه لأنفسنا، والذي يثير هلوستنا، ويمسك بنا من العنق، ويجرنا بشكل جنوني، هذا الحلم بحضارة مغايرة، غير أنها من الطبيعة نفسها التي يصدر عنها جهود حضارة الإسلام وصمتها! وحينها، وغالباً فيما بعد، في حمة مدننا وصخبها، نعودني ذكرى الراعي المتكى على الصخرة، ينطلق بالغناء من جراه جمال الأطلال والأصيل.

المحتويات

5 في الطريق إلى مدينة فاس
55 الدخول إلى فاس
69 في ظل مدينة فاس